

بیت و نطوص

کبیر أبوبکر أمین

أدب ونصوص

للمدارس الثانوية

على ضوء المنهج الذي يقرره
المجلس الوطني للدراسات العربية والإسلامية
التابع لمعهد التربية
جامعة أحمد بلو، زاريا - نيجيريا

كبير أوبكر أمين

©K .A. Aminu 2016

All rights reserved.

No part of this book may be reproduced in any form or translated into any language, by any means, without the prior written permission of the copyright owner.

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يحظر طبع أو تصوير أو ترجمة

أو إعادة تنضيد هذا الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على أجهزة استرادية إلا

بإذن مسبق ومكتوب

من صاحب الحقوق

اسم الكتاب: أدب ونصوص

المؤلف: كبير أبوبكر أمين

طبعة جديدة: سنة ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٦ م

البريد الإلكتروني kaabubakar@abu.edu.ng

رقم الجوال: +234 806 221 6364

التقديم الدولي: 978-978-49235-1-5

Title: Literature and Text

Author: Kabir Abubakar Aminu

THIRD EDITION 1437 A.H. /2016 A.D.

I.S.B.N: 978-978-49235-1-5

الإهداء

إلى

أعجوبة الدنيا الثامنة

زوجتي العزيزة وشقيقة قلبي

أمرفيدة

سكينة عبد الله موسى

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وبعد.

كان أصل هذا الكتاب أوراق محاضراتٍ عاديةٍ كنت أستعملها لإلقاء الدروس على طلاب كلية الشيخ أبي بكر جومي زارياً حيث كنت مدرّساً لمادة تاريخ الأدب العربي، وذلك منذ أواخر تسعينيات القرن العشرين الميلادي. ثم بدا لي أن أقوم بتنزيدها على الحاسوب وإخراجها في صورة مذكرة بعد اقتراحٍ ملحٍ من بعض محبي الخير من الزملاء المدرسين والطلاب.

وتمّ ذلك بالفعل، وكتب الله للمذكرة قبولاً عند المدرسين والطلاب، وانثفع بها زمناً طويلاً. وذلك على الرغم من مشاكل عدة وعوائق كثيرة قابلتها المذكرة، ومن ذلك كثرة الأخطاء التنزيديّة التي توزّعت على صفحاتها على الرغم من الجهد غير العادي الذي كنت أعتقد أنني أنفقتة في تبييضها وتنقيحها. ثم مضى عليها نحو عقدٍ من الزمن والطلاب عيال عليها، كما يتخذها بعض المدرسين مرجعاً يعودون إليه كل حين وآخر في عملية تدريس مادة تاريخ الأدب العربي، وذلك ليس في الكلية فقط بل في غيرها من المدارس العربية في مدينة زارياً وخارجها. ومن ثمّ علا ذكرها، ونفدت نسخها، وكثر طلبها. فطفق الناس يصوّرونها من النسخ التي تقع عليها أيديهم، والتي قد تكون - هي الأخرى - مصورة!

وكنت قد غادرت مدينة زارياً لمدة سنة وزيادة، وذلك لما مكثت في مدينة أبيكُتّا؛ عاصمة ولاية أوغون للقيام بخدمة الوطن بعد تخرجي في جامعة أحمد بلو زاريا سنة ٢٠٠٥م. ولما عدت من أبيكُتّا لم أستمر بتدريس تاريخ الأدب العربي في كلية الشيخ أبي بكر جومي، فلم ألتفت - جرّاء ذلك - إلى المذكرة ولا إلى المادة.

ولكن الزملاء والطلاب ظلّوا يُلحون عليّ بأن أقوم بتصحيحها وتعصيرها وإخراجها في صورة كتاب مدرسي تعم فائدته وتكتمل، فلم أجب لهذا الطلب أولاً لكثرة الشغول التي كانت تذهب بأوقاتي وقلة الباع.

ثم بدا لي أن أجيب على طلبهم بعد أن أصروا وألحوا، وصادف ذلك أن وجدت فجوة من الوقت، لإعادة النظر في المذكرة ومراجعة المصادر. وكان مما جدا بي إلى الاهتمام بإخراج هذا الكتاب إحساسي العميق بحاجة طلاب المدارس العربية الثانوية في بلادنا إلى مثله. فأنفقت من الجهد ما وسعتني ظروفه وخبرتي المتواضعة في جمع المادة وترتيبها. وأعترف أنني لامست أكثر من خمس وتسعين بالمائة من المنهج المقرر من قبل المجلس الوطني للدراسات العربية والإسلامية التابع لمعهد التربية بجامعة أحمد بلو زاريا-نيجيريا، وأجريت بعض التعديلات التي أعتقد أنها منطقية في ترتيب المادة حتى يخرج الكتاب بصورة كُروْنُولُوجِيَّة، كما أضفت إلى المنهج بعض الحقائق التي أيقنت من خلال تجاربي كمدرّسٍ للمادة أنها هامة. فكان من ذلك الكتاب الذي بين يدي القارئ العزيز. وأرجو أن أكون قد وفيت، أو - على الأقل - قد حاولت وأسهمت.

وَدَيْنُ عليّ أن أذكر هنا أن عملي في هذا الكتاب إنما هو جمع وترتيب حقائق ومعلومات كانت من قبل مبعثرة في شتات المصادر وبطون كتب تاريخ الأدب العربي. وتركت الإحالة إلى المصادر والمراجع حتى يبدو الكتاب بصورةٍ ينبغي أن تكون عليه كتاب مدرسي.

ولا بد أن أستغل هذه الفرصة فأقول إن منهج مادة تاريخ الأدب العربي المستخدم في مدارس بلادنا بحاجة ماسةٍ إلى غرلة وتهذيب، شأنه في ذلك شأن سائر المواد العربية والإسلامية في المنهج. وليت شعري لو يصغي أولو الأمر إلى مثل هذا البكاء فيقومون بواجبهم تجاه هذا المنهج العتيق.

وأعترف بأن هذا العمل المتواضع بحاجة إلى تقويمات، لأنه - قبل كل شيء - عمل إنسان، ومعروف أن عمل الإنسان مهما سمّت قيمته أو استُحسِنَت جودته لا يخلو

من نقص أو تقصير، ولا يسلم من انتقاد أو تعقيب. هذا زيادة على أن الكاتب ضعيفٌ ولا تواضع! فأرجو من القارئ النصائح والتوصيات والانتقادات الموضوعية حتى نسعى جميعاً وراء تحسين الكتاب ونشارك في هذا المشروع الخيري.

ولا يمكن أن أتفلس الصعداء قبل أن أشكر الله تعالى على ما أنعم به عليّ، فإنه تعالى بمشيئته ومنه وقدرته أكملت هذا العمل. فله الحمد في الآخرة والأولى، وأسأله تعالى أن يبارك لي في هذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسناتي، وأن يكتب له القبول والانتشار كما أرجو منه تعالى أن يجعله نافعاً للطلاب وعونا للمدرسين دون أن يتكلوا عليه اتكال المقلدين كما فعل غير واحد منهم مع الأصل. فإن حرفة التدريس لا تتماشى مع الاتكال، ولا يحسن القيام بها كسلاناً، بل تتطلب جهداً جباراً في المطالعة والمراجعة والبحث والتحقيق.

وأستغفره تعالى من الأخطاء والزلات والهفوات التي وقعت لي في هذا الكتاب أو خارجه، إنه هو الغفور الرحيم.

كبير أئبكر أئبب

١٠ رمضان، ١٤٣٠هـ

٣١ أغسطس، ٢٠٠٩م

الفصل الأول الأدب العربي في العصر الجاهلي

■ معنى الأدب

كانت كلمة الأدب من الكلمات التي طرأت عليها معانٍ متعددة عبر العصور الأدبية. فطوراً كانت تدلّ على الدعوة إلى المأدبة كما هو الحال في العصر الجاهلي. وطوراً كانت تدلّ على تهذيب الأخلاق كما هو الأمر في صدر الإسلام. ولما تطوّرت الحياة الثقافية في العصر العباسي أصبحت الكلمة تدلّ على العلم والمعرفة. وتستعمل الكلمة في العصر الراهن كمصطلح علمي يدل على معنيين:

أ/ معنى الأدب باعتبار الكلمة اسماً لظاهرة اجتماعية

كلّ كلامٍ يصوّر حياة تصويراً فنياً. فالأدب العربي بناءً على ذلك هو كلام عربي سواء كان شعراً أو نثراً يصوّر حياة عربية تصويراً فنياً، ولا فرق بين أن يكون الكلام مكتوباً أو شفهيّاً.

ب/ معنى الأدب باعتبار الكلمة علماً لفن من فنون الدراسة

علم أو فنّ يقوم بالدراسة والبحث حول كلّ ما يتصل بالكلام الفني الذي يصوّر الحياة تصويراً فنياً من قريب أو بعيد من تاريخ ونقد ونظرية ومقارنة وغير ذلك. فعلى ذلك يمكن أن يعرف الأدب بأنه فن يبحث عن أحوال أمة ولغتها وأدبها وما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ النظم والنثر في مختلف العصور وعمّا عرض لهما من أسباب الصعود والهبوط والدثور ويُعني بتاريخ الناهجين من أهل الكتابة واللسان ونقد إنتاجهم وبيان تأثير بعضهم في بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب.

■ أقسام الأدب

مضت العادة عند القدماء من علماء الأدب العربي إلى تقسيم الأدب إلى قسمين

أساسيين، وهما:

أ/ الشعر

هو الكلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيلا البديعة والصور الرائعة المثيرة للعواطف والناطقة عنها.

ب/ النثر

هو كل ما ليس بالشعر من حيث الصياغة، بحيث لا يكون موزوناً ولا مقفياً. ولكنه عاطفي ومثير للعاطفة كالشعر. فالنثر هو ما وافق الشعر في الذوق والإثارة، وخالفه في الوزن والقافية.

وينبغي أن يُذكر هنا أن هناك قسماً ثالثاً لم يعرفه الأدب العربي قبل اتصال أهله بالعالم الأوروبي، وهو:

ج/ المسرحية

هو ذلك النوع من الأدب الذي يُهدَف به التمثيل على المسرح. ويُعبّر عن المشاعر لا باللغة فقط. بل بوسيلة الأداء التمثيلي عن طريق الحركة والإشارة والإيماء وسائر المتطلبات الفنية.

■ تقسيم العصور الأدبية

يقسم مؤرّخو الأدب العربي عصوره عادة إلى الخمسة التالية:

أ/ العصر الجاهلي

ويراد به ذلك العصر الذي عاشه العرب في جزيرتهم قبل ظهور الإسلام، وقد امتد نحو قرنٍ ونصفٍ قبل البعثة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليمات - وينتهي بها.

ب/ صدر الإسلام وعصر بني أمية

يبدأ عصر صدر الإسلام بظهور الإسلام في جزيرة العرب، وينتهي بسقوط الدولة الأموية في دمشق على يد المسودة من دعاة بني العباس سنة ١٣٢هـ.

ج/ العصر العباسي

ويبدأ بقيام الدولة العباسية بعد احتلال الدولة الأموية، وينتهي باستيلاء هولاكو على بغداد وإسقاطه لحكم المستعصم بالله؛ آخر خلفاء العباسيين، وذلك سنة ٦٥٦هـ.

د/ عصر الأتراك والمماليك

ويبدأ بقيام دولة المماليك التي بدأت بإمارة المعز أيبك التركماني على عقب سلسلة من الاضطرابات السياسية التي حدثت بعد موت الملك الصالح أيوب (ت ٦٤٧هـ)، ويمتد إلى دخول حملة الفرنسيين بلاد مصر سنة ١٢٢٠هـ.

هـ/ عصر النهضة الأدبية

ويبدأ بتولية نابليون الفرنسي على عرش الملك في مصر بعد دخول حملته أرض كنانة، ويمتد إلى العصر الراهن.

■ العرب في الجاهلية

كانت الأمة العربية في العصر الجاهلي تسكن في الجنوب الغربي من قارة آسيا؛ في منطقة تعرف بجزيرة العرب وهي منطقة يحدها المحيط الهندي جنوباً، والبحر الأحمر غرباً، والخليج العربي وعمّان شرقاً، وبادية الشام ونهر الفرات شمالاً. فهي ليست جزيرة حقيقية، ولكنّ الناس اعتادوا إطلاق اسم الجزيرة عليها تجوّراً.

وكانت العرب في العصر الجاهلي أمةً متواضعةً، بدويةً وأميةً. تتسم بفصاحة اللسان وسداجة الثقافة. كما انتشرت بينهم الجاهلية والمعارك القبلية والعنف. وكانت أمة تعيش حياة بدائية يحكمها نظام اجتماعي تقليديّ وغير متكامل. وكان يدين كثير منهم بالوثنية، ومنهم من تنصّر، كما وُجد من بينهم من بقي على دين إسماعيل.

وكذلك كان أكثر العرب يعيش حياة بدوية قائمة على الترحال وراء منابت العشب والكلأ لإطعام مواشيتهم وأنعامهم وكانوا يحتقرون الصناعة ويتعصبون للقبيلة ظالمة أو مظلومة. ومنهم أهل الحضر الذين يعيشون في بيوت مبنية مستقرة ويعملون في التجارة والزراعة الصناعة ويحيون حياة استقرار في المدن والقرى.

وكانت لعرب الجاهلية أخلاق كريمة تم الإسلام مكارمها وأيدها كما كانت لهم أخلاق ذميمة أنكرها الإسلام وعمل على محوها. وكان لهم أيضا ثقافة تتناسب مع بيئة الصحراء وعقلية الأميين. ومن التداوي بالأعشاب والكي وكذلك القيافة كما اهتموا بالنسب. وكان فيهم انتشار للكهانة والعرافة وأضرابهما من الشراكيات.

■ أسواق العرب في العصر الجاهلي

كان للعرب في الجاهلية أسواق تجارية يتسوق فيها أفراد القبائل والعشائر. ولكنها تحولت تدريجاً إلى أندية أدبية كبرى، يلتقي فيها فصحاء الأعراب لإلقاء الخطب والأشعار. وقد ساعدت هذه الأسواق التي في الحجاز على سيادة لهجة قريش على لهجات سائر القبائل وتوليتها منصب اللهجة الرسمية أو شبه الرسمية على أقل تقدير. ولعل ذلك تمهيداً لينزل القرآن بها. ولقد أسهمت هذه الأسواق مساهمة جبارة في توليد القصائد والخطب وغيرها من الإنتاجات الأدبية في العصر الجاهلي.

ومن أشهر هذه الأسواق ذو مجنة التي كانت على مدى أميال من مكة، وذو المجاز التي كانت بمعى خلف عرفات. ومنها سوق عكاظ، وكانت تُقام سنوياً في الحجاز بين نخلة والطائف ابتداءً من هلال ذي القعدة، وتظلُّ نحو عشرين يوماً، فينشد خلالها شعراء القبائل وخطبائها قصائدهم ومقالاتهم. وكان لها أثرٌ عميقٌ في تهذيب العرب، فقد كان يتوافد إليها الصالح والطالح من جميع أعماق جزيرة العرب.

■ الشعر العربي في الجاهلية

/أ/ أولية الشعر

ليس لدي مؤرخي الأدب العربي من الوثائق أو البراهن ما يكفي لإقامة الدليل على تحديد تاريخ بداية الشعر العربي في الجاهلية تحديداً دقيقاً. ومعروفٌ أن طبيعة العلوم والفنون في بدايتها أن تبدأ بمحاولاتٍ ناقصةٍ، ترتقي وتتمُّ على مرّ الزمن ومع مساهمات اللاحقين. ولكن الشعر العربي الذي يعتبر بمثابة الأقدم لم يكن بهذا الطابع، فلا يمكن أن يكون هو الأول.

ومن هنا نشأت نظريات مختلفة حول أوليته. فمن قائلٍ بنشأة الشعر من التعويذات التعبدية للآلهة، ومن قائلٍ بأن الشعر بدأ بعدي بن ربيعة التغلبي (ت ٥٢٥م) الملقب بالمهلهل أو بعمرو بن قميئة البكري (ت ٥٤٠م)، ومن مُنكرٍ لأن يكون هذا التراث من العرب في الجاهلية... وهكذا.

ب/ خصائص الشعر الجاهلي

يتميز الشعر الجاهلي بخصائص عديدة. ومن أبرزها ما يلي:

- ١- يلتزم الشعر الجاهلي بالأوزان والقوافي التقليدية.
- ٢- يمتاز الشعر الجاهلي بقلّة التكلّف وكثرة الطبع.
- ٣- يميل الشعر الجاهلي إلى الإيجاز أكثر من ميله إلى الإطناب.
- ٤- يكاد الشعر العربي في الجاهلية يخلو من المحسنات البديعية والألفاظ الأعجمية.
- ٥- عامة الشعر الجاهلي غنائي ليس فيه من الشعر القصصي أو الملحمي أو المسرحي أو التعليمي شيء.

٦- يسود الشعر الجاهلي كثرة الاستطراد في المعاني.

٧- عدم العلاقة غالبًا فيما بين الأبيات وفقدان الوحدة العضوية. وغير ذلك.

ج/ أغراض الشعر الجاهلي

يتبين من خلال دراسة تراث الشعر الذي خلفه الشعراء في العصر الجاهلي أن أهم أغراضهم هي:

١- الفخر والحماسة

كان الشاعر في الجاهلية يفتخر بالقبيلة وبنفسه، ويذكر من كرم قومه وشجاعتهم ويتباهى بالأصل وبالانتصار في الحرب. ومثال الفخر قول عنتر:

أَغْشَى فِتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا
وَأَغْضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى تُوَارِي جَارَتِي مَاوَاهَا
إِنِّي إِمْرُؤٌ سَمِحُ الْحَلِيقَةِ مَا جِدُّ لَا أُتْبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

ومثال الحماسة قول امرئ القيس

يَعْطُ غَطِيطَ الْبَكْرِ شُدَّ خِنَاقُهُ
ليقتلني والمرء ليس بقتال
أقتلني والمشرفي مضاجعي
ومسنونة زرق كأنياب أغوال
وليس بذي سيف فيقتلني به
وليس بذي رمح وليس بنبال

٢- المدح

هو الثناء على المرء بما يتصف به من الخصال الحميدة، كالصدق والوفاء والكرم والشجاعة وأصالة النسب. ومثاله قول أمية بن أبي الصلت يخاطب سيف بن ذي يزن لما ظفر بالحبشة وأجلاهم عن اليمن:

أَرْسَلْتَ أُسْدًا عَلَى سُودِ الْكِلَابِ فَقَدْ
أَضْحَى شَرِيدُهُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَا لَأ
فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً
في رأس غمدان داراً منك محلالاً

٣- الرثاء

هو تعداد مناقب الميت وإظهار التلهّف عليه وتفقدّه، وقد كثر هذا النوع في العصر الجاهلي جرّاء كثرة الحروب وسقوط الضحايا فيها. ومثاله قول الخنساء في رثاء أخيها صخر

يذكرني طلوع الشمس صخراً
وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي
على إخوانهم لقتلت نفسي
فلا، والله، لا أنساك حتى
أفارق مهجتي ويشص رمسي
فيا لهفي عليه، ولهف نفسي
أيصبح في الضريح وفيه يمسي

٤- المهجاء

هو ذكر مثالب المرء وذمّه هو وقبيلته ونفي المكارم والمحاسن عنه. ووصفه بالبخل والشح والغدر وتعنيب قبيلته وغير ذلك. ومثاله قول عمرو بن معدي كرب في جرم بن زبّان:

ولمّا رأيتُ الخيلَ زوراً كأنّها
جداولُ ماءٍ أرسلتُ فأسبّطرتُ

وجاشتُ إليَّ النفسُ أوَّلَ مرَّةٍ فرُدَّتْ على مكروهاها فاستقرَّت
فلو أنَّ قومي أنطقتني رماحهم نطقتُ ولكنَّ الرماحَ أجرت
ظَلَلْتُ كأبيِّ للرماحِ دريئةً أقاتل عن أحسابِ جرمٍ وفرت

٥- الاعتذار

هو دفع الشاعر التهمة عن نفسه ومحاولته في إظهار براءته عن التهمة، وكان الاعتذار غرضاً غير مشهور في العصر الجاهلي. ويقال إن النابغة الذبياني هو الذي ابتكره، على أن هناك شعراء غيره قالوا اعتذاراً جيداً، ومنهم الشاعر المتلمس الذي اعتذر إلى أخواله بقوله:

فَلَوْ غَيْرُ أَخَوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي جَعَلْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينَ مَيْسَمًا
وَمَا كُنْتُ إِلَّا مِثْلَ قَاطِعِ كَفِّهِ بِكَفِّ لَه أُخْرَى فَأَصْبَحَ أَجْدَمَا

٧- الغزل

هو الحديث عن النساء والتشبيب بهن وذكر محاسنهن ووصفهن وشرح أحوالهن وذكر أطلال ديارهن. وكان الغزل نوعاً مهماً وبارزاً يتطرق إليه عامة الشعراء الجاهليين كمقدمة في أغلب قصائدهم. ومنهم من يتعهر في شعره كما مرى القيس وهو القائل:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُّوْ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ
فَقَالَتْ سَبَاكَ اللَّهُ إِنَّكَ فَاضِحِي أَلَسْتَ تَرَى السُّمَّارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي
فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

٧- الوصف

هو شرح حال شيء ووصفه على ما هو عليه في الواقع والحقيقة. وكان الشعراء الجاهليون يكثر من وصف الناقة والفرس في بداية قصائدهم. ومثال الوصف قول عمرو بن كلثوم في وصف الخمر:

أَلَا هِيَ بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي حُمُورَ الْأُنْدَرِينَا

مُشَعَّعَةً كَأَنَّ الحِصَّ فِيهَا إِذَا مَا المَاءَ خَالَطَهَا سَخِينَا
تَجُورُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَن هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا

د/ منهج القصيدة في الجاهلية

كانت القصائد في الشعر الجاهلي تسلك طريقاً تقليدياً. فالشاعر يبدأ غالباً بالوقوف على الأطلال وتفقد أصحابها والغزل بعشيقته، ثم يستطرد إلى وصف ناقه أو فرس، ثم يتخلص بعدئذٍ إلى الغرض الرئيسي المقصود من فخر أو مدح أو هجاء أو غير ذلك.

هـ/ منزلة الشاعر في الجاهلية

يتمتع الشاعر في العصر الجاهلي بمكانة مرموقة في مجتمعه. إذ يأخذ منصب السيد في قومه وبطل قبيلته في الحرب. ويُسأل الرأي في الأمور كلها، وكانت آراؤه تُقدّس فلا تُخالف. وكثيراً ما أعزّ الشاعر الجاهلي قبيلة أو أهانها بلسان شعره.

■ المعلقات

هي قصائد طويلة ومختارة من أجود الشعر الجاهلي، ويُذكر أنها سميت بالمعلقات لأن العرب علّقوها على خيامهم، وقيل لأنها كُتبت بماء الذهب وعُلّقت على أستار الكعبة، وقيل بل لأنها محفوظة في صدور الناس. وعددها سبعة في قول، وعشرة في قول آخر.

ومن الأدباء والنقاد من أنكر وجود المعلقات، لأنها إنما جُمعت في منتصف القرن الثاني الهجري على يد حمّاد الراوية (ت ١٥٥هـ)؛ جمعها لما رأى زهد الناس عن الشعر وسمّاها بالمشهورات. فزعموا أن ظاهر هذا يدل على أنه اخترعها وأبى أن ينسبها إلى نفسه، فنسبها إلى بعض الشعراء الجاهليين.

■ أصحاب المعلقات

أ/ امرؤ القيس الكندي، ومطلع معلقته قوله:

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

- ب/ زهير بن أبي سلمى، ويقول في مطلعها:
 بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَثَلِّمِ أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةَ لَمْ تَكَلِّمِ
- ج/ عنتره بن شداد العبسي، ومطلعها قوله:
 هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمِ
- د/ ليبد بن ربيعة رضي الله عنه، ومطلع معلقته قوله:
 عَفَّتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمَقَامُهَا بِمَعْنَى تَأَبَّدَ غَوْهَا فَرِحَامُهَا
- هـ/ طرفه بن العبد البكري، ويقول في مطلعها:
 حَيَوْلَةَ أَطْلَالٍ بِبُرْقَةِ تَهْمَدِ تَلُوْحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ
- و/ عمرو بن كلثوم التغلبي، ومطلع معلقته قوله:
 أَلَا هِيَ بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي حُمُورَ الأَنْدَرِينَا
- ز/ الحارث بن حلزة، ومطلعها قوله:
 آذَنْتَنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ تَاوِ يَمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ
- ح/ النابغة الذبياني، ومطلعها قوله:
 يَا دَارَ مِيَّةَ بالعِلْيَاءِ، فَالْسِّنْدِ أَفْوَتْ، وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَبْدِ
- ط/ أعشى القيس، ويقول في مطلعها:
 وَدَعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مَرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرِّجْلُ ؟
- ي/ عبيد بن الأبرص، ومطلعها قوله:
 أَفْقَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالْقُطَيْبِيَّاتُ فَالذُّنُوبُ
- تراجم طائفة من الشعراء الجاهليين
- أ/ امرؤ القيس

هو حنْدُجُ بن حُجْر بن الحارث بن عمرو الكندي، من ملوك بني أسد ومن أهل نجد، يُلقَّب بالملك الضليل وبذي القروح. ويعتبر أشعر من نطق بالشعر في الجاهلية غير مدافع. وكانت أمه أخت المهلهل بن الربيع، فلقنه خاله الشعر فقاله وهو حدث. ونشأ في

اللهو والمجون؛ يشرب ويطرب ويُغازل النساء ويتبع الشهوات ويتمادى في المنكرات حتى تبرأ أبوه منه بعد أن نهاه فما كان من المنتهين. ثم لازم بعض الصعاليك يخرجون للصيد ويقطعون السبيل. وظل كذلك إلى أن بلغه نعي مقتل أبيه، فكان ذلك الحادث حدًا فاصلا بين مرحلة اللهو ومرحلة الجد والحروب في حياته. فهم يطلب نثار أبيه وقال: "اليوم خمر وغدا أمر" وأقسم بألا يكتفي بأقل من قتل مائة رجل. واستمر يقاتل بني كندة إلى أن قُتل مسموماً - في أشهر الأقوال - وهو عائد من القُسْطَنْطِينِيَّة، وذلك نحو سنة ٥٤٥م. وقد خُلف شعراً كثيراً وجيداً. وكتب الأدب مشحونة بأخباره.

ومن معلقته التي هي أشهر المعلقات هذه الأبيات:

بقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وليل كموج البحر أرخى سدوله	عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لَمَّا تمطى بصلبه	وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي	بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وقد أغتدي والطير في وكناتها	بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكراً مفراً مقبلاً مدبراً معا	كجلمود صخر حطّه السيل من عل
له أطلا ظبي وساقا نعامة	وإرخاء سرحانٍ وتقريب تتفل

ب/ الذابغة الذبياني

هو أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب الغطفاني، من أهل الحجاز ومن الشعراء المكثرين. وكان شريفاً فغض منه الشعر. وكان يتكسب بالشعر، فاتصل بالنعمان بن المنذر (ت ٦٠٨م)؛ ملك الحيرة، وبأمراء الشام من الغساسنة. ويُعدّ الذابغة من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية. وكان حكماً بين الشعراء في سوق عكاظ. كما كان من أحسن شعراء العرب ديباجة؛ لا تكلف في شعره ولا حشو. وتوفي نحو سنة ٦٠٤م.

ولُقّب بالذابغة لأن بعض جلساء النعمان بن المنذر تذاكروا عنده الشعر والشعراء يوماً، فقال رجل منهم: "لقد نبغ في بني ذبيان شاعر قلما سمعت كشعره"، تشبيهاً بالماء

النابع. وكان النابغة شاعراً للنعمان بن المنذر ونديمه، ولكنَّ الحساد دسّوا بينهما دسياسة حتى همّ النعمان بقتله، ففرّ النابغة إلى الشام وأكرمه الغساسنة، فمدحهم. ولكنَّ حين النابغة إلى الحيرة دفعه إلى التماس طريقة للعفو بافتتاح بابٍ لغرضٍ جديدٍ في الشعر الجاهلي وهو الاعتذار. فاعتذر عن ذنبه بقصائد رائعة. ومن بينها النص التالي:

أتاني-أبيت اللعن- أنك لمتني	وتلك التي أهتمّ منها وأنصب
فبتُّ كأن العائدات فرشن لي	هراسا به يعلى فراشي ويقشب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة	وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بُلّغت عني جناية	لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب
ولكنني كنت امرءاً لي جانب	من الأرض فيه مستراد ومهرب
ملوك وإخواناً إذا ما أتيتهم	أحكّم في أموالهم وأقرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة	ترى كلّ ملكٍ دونها يتذبذب
وأنت شمسٌ والملوك كواكب	إذا طلعت لم يبق منهن كوكب

ج/ طرفة بن العبد

هو عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، من أهل البحرين. وطرفة لقبٌ تغلّب على اسمه الحقيقي. ولد في منتصف القرن السادس الميلادي. ومات أبوه وهو صغير فتولّى أعمامه أمره وأهمّلوا تربيته، فمال إلى اللهو والبطالة. وكان حادّ اللسان ومولعاً بالوقوع على أعراض الناس. وقد هجاء عمرو بن هند اللخمي (ت ٥٧٨م)؛ ملك الحيرة، أنفةً وغضباً لأمه فقتله وهو دون الثلاثين من عمره، وذلك في حدود سنة ٥٦٤هـ. ويُعدّ طرفة أحدث أصحاب المعلقات سنّاً، ومن أجودهم وصفاً للناقة. وقد نطق بالشعر منذ صغره، وعُدّ من الفحول. ولاسيما حين وصف ناقته بخمسة وثلاثين بيتاً، وما سبقه إلى ذلك أحد. ومن شعره ما يلي:

لخولة أطلال برفة ثمهد	تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
إذا القوم قالوا من فتى خلت أنبي	عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وما زال تشراي الخمر ولذتي
 إلى أن تحامتني العشيرة كلها
 أرى الموت يعتام الكريم ويصطفي
 أرى قبر نحام بخيل بماله
 أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
 لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
 متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه
 فمالي أراني وابن عمي مالكا
 ويبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
 وأفردتُ أفراد البعير المعبد
 عقيلة مال الفاحش المتشدد
 كقبر غويٍّ في البطالة مفسد
 وما تنقص الأيام والدهر ينفد
 لكا الطول المُرخى وثيابه باليد
 ومن يك في حبل المنية ينقد
 متى أدن منه ينأ عني و يبعد

د / عمرو بن كلثوم

هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبي. سيّد تغلب وفارسها وشاعرها المشتهر بقصيدته ومعلقته في الوقت نفسه. ساد قومه وهو مراهق، وقاد جيوش قبيلته في كثير من الوقائع التي خاضتها. وكان صاحب حمية، شجاعاً ومعجباً بنفسه. وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند (ت ٥٧٨م) في مجلسه. وكان عمرو من المعمرين، وتوفي نحو سنة ٥٨٤م ودفن بالجزيرة الفراتية.

ومما يُذكر أنه قضى حياته يكرّر معلقته في سوق عكاظ، وحفظها بنو تغلب وأكثرها من روايتها. فشهرته كشاعرٍ تبدأ وتنتهي بمعلقته التي يزعم بعض المؤرخين أنّ عدد أبياتها يربو على الألف. وناهيك بعضها:

أبا هند فلا تعجل علينا
 وأنا المهلكون إذا ابتلينا
 وأنا المانعون لما أردنا
 ونشرب إن أردنا الماء صفواً
 وأنظرنا نخبرك اليقينا
 وأنا النازلون بحيث شئنا
 ويشرب غيرنا كدرًا وطيناً

لنا الدنيا ومن أضحى علينا
ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الفطام لنا صبيّ
تخرّ له الجبابر ساجدينَا
ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

هـ / عنتره بن شداد

هو عنتره عمرو بن شداد بن عمرو بن معاوية العبسي المهجين، فارسٌ وشاعرٌ جاهلي من أصحاب المعلقات. وكان جواداً، من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعدوبة. وكان أبوه من أشرف عبس، واسم أمه زُبيبة، وكانت جارية حبشية، فولدته أسود، فرفض شداد أن يعترف به ابناً له. ولكن عنتره استطاع بشجاعته في الحرب وحكمته في القول أن يُجبر أباه على الاعتراف ببُنوته. وقد شارك عنتره في معارك متعددة مع قبيلته، وسقط قتيلًا ضمن ضحايا إحدى المعارك التي شارك فيها، وذلك نحو سنة ٦٠٠م. وكان مغرماً بابنة عم له تدعى عبلة؛ فقل أن تخلو له قصيدة من ذكرها. ويخاطبها في معلقته فيقول:

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي
وعمي صباحا دار عبلة واسلمي
فإذا شربت فإنني مستهلك مالي
وعرضي وافر لم يكلمي
وإذا صحوت فما أقصر عن ندا
وكما علمت شمائلتي وتكرمي
هلاً سألت الخيل يا ابنة مالك
إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الواقعة أنني
أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم
ومدججّ كره الكماة نزاله
لا ممعنّ هرباً ولا مستسلم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره
ولبانه حتى تسربل بالدم
فازورّ من وقع القنا بلبانه
وشكا إليّ بعبرة وتحننم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام تكلم

و / زهير بن أبي سلمى

هو زهير بن ربيعة بن رباح المُزَيِّ. حكيم الشعراء الجاهليين ومن أهل الحجاز. ينتسب زهير إلى أسرة لها تقاليد الشعاعية. فقد كان أبوه شاعرًا، وكذلك خاله بشامة بن الغدير الذي لازمه زهير وأخذ عنه الشعر، وله أختان شاعرتان، وابناه بجيرٌ وكعبٌ من الشعراء المُخَضَّرَمِينَ. وكان راوية لأوس بن حجر (ت ٦٢٠م) يُعدُّ أحد الثلاثة الذين تنتهي إليهم الرياسة الشعرية في الجاهلية مع امرئ القيس والنابغة.

رُوي أنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر، وينقحها في أربعة أشهر، ويعرضها على خواصه خلال أربعة أشهر، فلا يُخرجها إلا على رأس السنة. ولذلك سميت قصائده بالحوليات. وقد غلب على شعر زهير الحكمة، والدعوة إلى الصلح بين قبيلتي ذبيان وعبس وغيرهما من القبائل التي كانت تتحارب مع بعضها. وكان صادقًا في المدح، فلا يمدح أحدًا إلا بما يتمتع به الممدوح من الصفات الحميدة. وكان ذا رأيٍ شديدٍ، حكيماً وقاضياً بين الناس. ويمتاز شعره بجودة الأسلوب، وصدق اللهجة وتناسب المقام. وتوفي سنة ٦٠٩م. ومن حكمه ما يلي:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش	ثمانين حولاً لا أبالك يسأم
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله	ولكنني عن علم ما في غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب	تُمتنه ومن تخطئ يعمر فيهم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة	يُضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه	يُهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه	يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضلٍ فيبخل بفضله	على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا تنلنه	وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يصنع المعروف في غير أهله	يعد حمده ذمًا عليه ويندم

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تعلم
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده
فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ز/ أمية بن أبي الصلت

هو أمية بن وهب عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عزة الثقفي، من أهل الطائف ومن دهاة العرب. كان مطلعاً على الكتب القديمة، وكان لا يشرب الخمر ولا يسجد للأوثان. وكان يخبر بأن نبيا يبعث قد قرب زمانه، ويأمل أن يكون ذلك النبي. ورحل إلى البحرين فأقام ثمان سنين ظهر في أثنائها الإسلام، ثم قدم مكة وسمع من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من القرآن، فلم يسلم. ثم خرج إلى الشام وعاد منها بعد حين يريد الإسلام، فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خال له، فامتنع. وأقام في الطائف إلى أن مات. وأخباره كثيرة، وشعره من الطبقة الأولى. وصح عن عمرو بن الشريد عن أبيه أنه قال أنشدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مائة قافية من شعر أمية بن أبي الصلت. كما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: "وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم". ومن شعره قوله وهو يمدح عبد الله بن جدعان:

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي
حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ
إِذَا أَتَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا
كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِكَ الثَّنَاءُ
كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحُ
عَنِ الْخُلُقِ الْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ
يُبَارِي الرِّيحَ مَكْرَمَةً وَجُودًا
إِذَا مَا الصَّبُّ أَجْحَرَهُ الشِّتَاءُ
فَأَرَضُكَ كُلُّ مَكْرَمَةٍ بِنَاهَا
بُنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ هُمْ سَمَاءُ
وَعَلْمُكَ بِالْأُمُورِ وَأَنْتَ قَرَمُ
لَكَ الْحَسْبُ الْمَهْدَبُ وَالسَّنَاءُ

■ النثر الجاهلي

الفرق بين الشعر والنثر

الشعر والنثر جنسان من أجناس الأدب ولكل واحد منهما قواعده وأنواعه ومسمياته وخواصه. فالشعر يعتمد في الغالب على الإيجاز والاختزال وشحن الكلمات

بطاقات تأثيرية لأنه يخاطب العاطفة. كما يحتاج أيضا إلى الموسيقى والإيقاعات التي تربط بين كلماته وعباراته، وتكسيبها نغمة فنية. وأما النثر فيعتمد على العقل والمنطق والتجربة لأنه يخاطب العقل بالدرجة الأولى ولا يلتزم غالبا صورة متكلفة في شكله. ويصدر عن أصحاب العقل الحصب وذوي التجربة والخبرة.

▪ فنون النثر في الجاهلية

وللنثر في الجاهلية أغراض كثيرة. ومن أهمها ما يلي:

أ/ الخطابة

وهي فنّ مخاطبة الجماهير للترغيب فيما ينفع أو الترهيب عمّا يضرّ. ويمتاز أسلوبها بالسهولة والوضوح والإقناع وروعة اللفظ في الاحتجاج والبرهنة وجمال التعبير. وأكثر ما كانت الخطابة في التحريض على القتال والتحكيم في الخصومات وإصلاح ذات البين وفي المفارحات والمنافرات وحين قودم الوفود وغير ذلك.

ب/ الوصية

وهو كلامٌ يُراد به الإرشاد، صادرٌ من الأسنّ الذي اكتسب تجربة في الحياة إلى من هو أقل منه تجربة أو أصغر سنا، كالولد من الوالد. فهي ليست موجّهة إلى الجماهير خلافاً للخطابة. وتشتمل على كثرة الحكم ودقة العبارة.

ج/ نثر الكهان

وهو قولٌ صادرٌ من أفواه الكهان الذين يدعون معرفة الغيب في الجاهلية. ويمتاز هذا النوع بالسجع والغموض وغرابة الأسلوب حيث يدعي أصحابها سماويتها وقُدسيّتها وجنيتها.

د/ الحكم

وهو قولٌ موجزٌ مشهورٌ رائع التعبير محتوياً على تجربة إنسانية عميقة، يهدف إلى الخير والإرشاد إلى الصواب. وقد شاعت الحكمة على ألسنة العرب منذ الجاهلية لاعتمادهم على التجارب من الحوادث مع دقّة الملاحظة ونبوغ البصيرة.

هـ/ الأمثال

وهو قولٌ موجزٌ دقيقٌ سائرٌ على الألسنة له موردٌ ومضربٌ. وقد يكون مستمدًا من قصةٍ أو واقعةٍ أو مرتبطًا بأشخاصٍ اشتهروا بصفاتٍ محمودةٍ أو عكسها.

■ تراجم بعض الخطباء في العصر الجاهلي

أ/ هاشم بن عبد المناف

هو عمرو بن عبد المناف بن قصي بن كلاب والد عبد المطلب جدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكان سيّدًا في قومه، وكان كريمًا يتولّى مهمّة إطفاء الحجيج. ولُقّب بالهاشم لأن قومه أصيبوا بمجاعة فبذل ماله وتجارته وهشم الخبز والشريد للجائعين وأطعم الحجيج المحتاجين. وهو أول من سنّ للقريش الرحلين التجاريتين؛ رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى بلاد الشام. وهو الذي أخذ الحلف من قيصر لقريش على أن تأتي الشام وتعود منها آمنة. ومات نحو سنة ٥٢٤م. والخطبة الآتية ألقاها يُحثُّ قريشًا على إكرام الضيوف، ويقول فيها:

يا معشر قريش! أنتم جيران بيت الله، أكرمكم بولايته، وخصّكم بجواره دون بني إسماعيل، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزوّار بيته. فإنهم يأتونكم شعنًا غيرًا من كل بلدٍ. فورب هذه البنية، لو كان لي مالٌ يحمل ذلك لكُفيتُموه. ألا وإني مخرج من طيب مالي وحلاله، ما لم يُقطع فيه رحم ولم يُؤخذ بظلم ولم يدخل فيه حرامٌ فواضعه. فمن شاء أن يفعل منكم مثل ذلك فعل. وأسألکم بحُرمة هذا البيت ألا يُخرج رجلٌ منكم من ماله لكرامة زوّار بيت الله ومعونتهم إلا طيبًا لم يُؤخذ ظلمًا ولم يُقطع فيه رحمٌ ولم يُغتصب.

ب/ أكثم بن صيفي

هو أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية التميمي، عم حنظلة بن الربيع بن صيفي؛ الصحابي المشهور. أحد أطباء العرب في الجاهلية، سيّدٌ وحكيم من أبلغ حكماء العرب في الجاهلية ومن أعرّف الناس بأنسابها وأكثرهم ضرب الأمثال في الخطابة وإصابة الرأي في القول وقوة الحجّة. وكان الرجال يقصدونه ويلتمسون عنده

الحكمة والرأي السديد. وقلّ من جاوره من خطباء طبقته في معرفة الأنساب وضرب الأمثال والاهتداء لحلّ المشكلات والسداد في الرأي. وأخباره في كتب التراث كثيرة. يعد من المعمرين؛ يقال إنه عاش مائة وتسعين سنة أو أزيد، أدرك مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي إسلامه روايات متضاربة، يقال إنه أراد الخروج إلى المدينة فمنعه قومه ثم أرسل وفدا لتقصي أخبار الإسلام، فكان بعدُ يبحث قومه على المبادرة إلى اقتناع الدين الجديد. وكان في خطبه قليل المجاز حسن الإيجاز حلو الألفاظ دقيق المعاني ومولعاً بالأمثال. ويكفي دليلاً على فضله أنه كان زعيم كتبية الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى، ولقد بلغ من إعجاب كسرى به أن قال له: "لو لم يكن للعرب غيرك لكفى". وكان من المعمرين، مات سنة ٦٣٠م. ومن خطبته التي ألقاها أمام كسرى ما يلي:

إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكهم، وأفضل الملوك أعمهم نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها. وأفضل الخطباء أصدقهم، الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر حاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطئ، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر وحسن ورطة، وسوء الظن عصمة، إصلاح فساد الرعية خيرٌ من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاص في الماء. شرُّ البلاد بلاد لا أمير بها، وشرُّ الملوك من خافه البريء. المرء يعجز لا محالة. أفضل الأولاد البررة، وخير الأعوان من لا يرئى بالنصيحة. أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلّغك الخل. حسبك من الشرِّ سماعه. الصمت حكمةٌ وقليلٌ فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدّد نفر ومن تراخى تألّف.

ج / قس بن ساعدة

هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك الإيادي، أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها. كان من المتحنفين في الجاهلية ومن المعمرين. يقال إنه أول عربي خطب متوكناً على سيف أو عصا وأول من قال في كلامه "أما بعد". فكان يخطب في عكاظ، فيقف على الشرفة، فيعظ الناس ويدعوهم إلى الخير والفضيلة على ضوء النصرانية. وكان

يفد على قيصر من حين لآخر فيكرمه، ثم صرف عن الدنيا، وعاش على الكفاف متنسِّكًا إلى أن توفي سنة ٦٠٠م. وكان شديد الدقة في اختيار الألفاظ، قصير الفواصل، ومطبوغًا على السجع. ومن أشهر خطبه النص الآتي:

أيها الناس! اسمعوا وعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليلٌ داخٌ، ونهارٌ ساجٌ، وسماء ذات أبراجٍ، ونجومٌ تزهر، وبحارٌ تزخر، وجبالٌ مرساة، وأرضٌ مدحاة، وأتھارٌ مجرأة، إن في السماء خبيرًا، وإن في الأرض لعبرًا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ يا معشر أياد! أين الآباء والأجداد؟ وأين الفراعنة الشداد؟

في الداهيين الأولي	من من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليّ	ولا من الباقين غابر
أيقنت أنني لا محا	لة حيث صار القوم صائر

■ نماذج من الأمثال.

/أ/ سبق السيف العذل

يضرب لما فات ولا يمكن استدراكه. وأصله أن رجلاً وثب على رجلٍ يظنه قاتل ابنه، فقتله، ثم اتضح له أن القاتل بريءٌ من دم ابنه. فندم، ولمّا لامه الناس قال: "سبق السيف العذل" فمضى على ألسنة الناس وصار مثلاً.

ب/ جزاء سيمار

يضرب للمحسن الذي يلقي على إحسانه شرًا. وأصله أن بناءً روميًا يسمى سيمار بنى للملك النعمان بن امرئ القيس (ت ٤٣١م) قصرًا فخامًا يسمى قصر الخورنق بالقرب من الكوفة، فلما أنجز بناءه قال للملك وهو يريد ابتزازه: "إني لأعرف من القصر لبنةً لو زالت لسقط القصر كله". فقال له النعمان: "وهل يعرفها أحد سواك؟" فقال

سنّمار: "لا" فقال النعمان: "إذاً لن يعرفها أحدٌ بعد اليوم". فأمر بسنّمار فُقْدِفَ به من فوق القصر فمات. فصار مثلاً.

ج/ لأمر ما، جدع قصير أنفه

يضرب لمن أسرَّ غرضه الحقيقي في أمرٍ وأظهر خلافه. وأصله أن رجلاً اسمه قصير خان قومًا ودخل فيهم جادعًا أنفه والدم ينزف من الأنف، فقال لهم إن ملك قبيلته ظالمٌ قد جدع أنفه بغير حقٍ. فأووّه ومكث فيهم مدةً يتجسس عليهم حتى تعرّف على نقاط ضعفهم وهم لا يشعرون. ثم رجع إلى قومه وزوّدهم بمعلوماته. وساعد ذلك قومه على عدوّهم فشاع ذلك على ألسنة العرب.

د/ زوجٌ من عودٍ خيرٌ من قعودٍ

يضرب للإشارة إلى أن الحصول على اليسير الممكن خيرٌ من انتظار الكثير الذي لا يقين على إمكانيته. وأصله أن فتيات ذوات الخدر كنَّ يتبادلن الحديث، فطفقت كل واحدة منهن تذكر صفات الزوج الذي ترغب أن يتزوج بها. وبينهن مراهقة صامته لم تشاركهن الحديث، فسألنها عن زوجها الأحملي فقالت: "زوجٌ من عودٍ خيرٌ من قعودٍ" فسار في الألسنة كمثل.

هـ/ على يديّ عدلٍ

هو مثل كانت العرب تستعمله منذ زمنٍ قديمٍ. وعدل هو ابن سعد العشيرة، كان على شرطة تُبْع، وكان عنيقًا، شديد البطش على المتهمين والمجرمين. وكانت تُبْعُ إذا أرادت هلاك رجلٍ دفعت به إلى عدل. فيقولون "هو على يديّ عدل" كناية عن هلاكه. فصار مثلاً يذكر في الميؤوس منه.

و/ الصيفُ ضيعت اللبّن

يضرب للرجل يضيّع الأمر ثم يريد استدراكه. وأصله أن عمرو بن عدس بن زيد تزوج دَخْتَنُوسُ بنت لقيط بن زُرارة الدارمية (ت ٥٩٤م) وكان شيخا كبير السن ففركته وسألته الطلاق ففعل، وتزوّجت ابن عمها عمرو بن معبد بن زرارة، وكان شابا فقيرا، فلما

جاء الشتاء أرسلت إلى عمرو بن عدس تستسقيه لبنا فقال لها: "الصيف ضيعت اللبن"،
فقلت: "هذا ومذقة خير" فذهبت العبارتان مثلاً.

ز / قطعت جهيزة قول كل خطيب

يضرب عند فوات الأمر، وأصله أن قوما اجتمعوا يخطبون في صلح وقبول دية
بين حيين كان بينهما دم قتيل. فبيناهم في ذلك إذ جاءت أمة يقال لها جهيزة، فقلت: إن
القاتل قد ظفر به بعض أولياء المقتول فقتله، فقالوا عند ذلك: "قطعت جهيزة قول كل
خطيب". أي استغني الآن عن الخطب في الصلح.

ح / أن نسمع بالمعديني خير من أن نراه

يُضْرَبُ مَنْ لَهُ ذِكْرٌ فِي النَّاسِ كَبِيرٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ جِسْمٌ يَمْلَأُ عَيْنَ النَّاطِرِ إِلَيْهِ. قَالَه
العمان بن المنذر في رجل سمع بذكره ينتهي نسبه إلى معدّ وتصغيره معيد فلما رآه ازدردته
عينه، فقال كلمته: فذهبت مثلاً.

ط / رمتني بدائها وانسلت

يضرب فيمن يعير خصمه بعيب هو في الأول. وأصله أن سعد بن زيد كان قد
تزوج امرأة اسمها رهم بنت الخزرج. وكانت لها ضرائر يغرن عليها ويعيرنها ويقلن لها يا
عفلاء فشكت ذلك إلى أمها فقلت "إذا عبرتك أحداهن فابدئيها بذلك" ثم إنهما سابتهما
واحدة من ضرائرها يوماً بعد ذلك فقلت لها رهم: "يا عفلاء!" كما وصتها أمها. فقلت
الضرة حينئذ: "رمتني بدائها وانسلت!" فذهب مثلاً.

ي / رجّع بحفي حنين

يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخبية، وأصله أن أعرابياً ساوم إسكافاً من
الحيرة أهل يقال له حنين بحفين فاختلفا حتى أغضبه فأراد غيظ الأعرابي فلما ارتحل
الأعرابي أخذ حنين أحد خفيه وطرحه في الطريق ثم ألقى الآخر في موضع آخر فلما مرَّ
الأعرابي بأحدهما قال: "ما أشبه هذا الحف بحف حنين ولو كان معه الآخر لأخذته" ومضى
فلما انتهى إلى الآخر ندّم على تركه الأول وقد كمن له حنين فلما مضى الأعرابي في طلب
الأول عمد حنين إلى راحلته وما عليها فذهب بها وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الحفان

فقال له قومه: "ماذا جئت به من سفرك؟" فقال: "جئتكم بِحَقِّي حُنَيْنٍ" فذهبت العبارة
مثلاً.

KKKKKKKKKK

الفصل الثاني الأدب العربي في صدر الإسلام

■ المدخل

كان ظهور الإسلام من أعظم الحوادث التي تركت أثراً عميقاً ليس في حياة العرب فقط، بل في حياة جميع الأمم الإنسانية على وجه العموم. وذلك بإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، وهداية الإنسان إلى عبادة الله وترك الشرك، واقتتاح الباب لعهد جديد في حياة العرب خاصة وسائر الأمم عامة، وغير ذلك من الفضائل التي جاء بها الإسلام.

فقد انكشف ظلام العصر الجاهلي وأشرق صبح الإسلام ببعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بشيراً ونذيراً ورحمةً للعالمين. وقد كان العرب متخلفين ثقافياً فجعلهم الإسلام علماءً تنتفع جميع الأمم بعلومهم. وكان مجتمعهم متفرقاً وقبلياً؛ تسوده العصبية والفرقة، فجعلهم الإسلام أمة واحدة وتحت قيادة رجل واحد لأول مرة في تاريخهم. ولم يكن لهم دستور غير العادات والتقاليد، فصار القرآن دستورهم بما فيه من الأحكام والشرائع. كما أصبحت علومه بنية تحتية لتكوين حضارة جديدة مبنية على أسس دينية. وكانت دياناتهم شتى فوحدهم الإسلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

■ القرآن الكريم

هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصدور، المعجز بلفظه، المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام منجماً في ثلاثة وعشرين سنة تقريباً، تيسيراً على العباد وتدرجاً لهم في كمال الدين وليناسب الأحداث والتطورات، وليكون دستوراً للآدميين في كل زمان ومكان.

وأول ما نزل من القرآن: ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ إلى قوله سبحانه

وتعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾. وأول ما نزل بالمدينة المنورة: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

﴿١﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦﴾. وآخر ما نزل في أحد الأقوال المشهورة قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، نزلت في حجة الوداع. وقيل بل قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨١﴾ والله أعلم.

■ موضوعات سُور القرآن

تناولت سُور القرآن قضايا كثيرة وموضوعات متعددة منها:

أ/ العقائد

تحدثت آيات متعددة عن توحيد الله وعبادته دون شريك، وعن أسماء الله تعالى وصفاته، وعن القضاء والقدر. وتناولت بعض الآيات الحديث عن الإيمان بجميع الرسل والكتب السماوية والملائكة وغير ذلك.

ب/ التشريع

أنزل الله تعالى آيات كثيرة في القرآن فيها بيان حول شؤون الحياة والمعاملة والعلاقات الاجتماعية مثل نظام العبادة والأسرة ونظام السياسة التجارة وسائر المعاملات.

ج/ القصص

يضم القرآن أخباراً طريفة وحساسة، كقصص الأنبياء وبعض الأمم السابقة. وتمثل هذه القصص جزءاً هاماً من مادة القرآن لما فيها من عظة وعبرة إلى جانب كونها حقائق تاريخية صحيحة.

د/ الأخلاق والآداب

ورد في القرآن الحديث عن الأخلاق والآداب والفضائل، كالصدق والأمانة والوفاء والتحية والاستئذان والملابس وآداب الحديث وغير ذلك.

هـ/ أخبار الآخرة

أنزل الله تعالى في القرآن المجيد أخباراً كثيرةً حول يوم القيامة وأحداثه وما فيه من المواقف والأهوال والحساب ووالنعيم والعذاب وغير ذلك.

و/ الأمثال

تفنن القرآن في ضرب أمثال حكيمة وتشبيهات حسية تتضمنت المعاني الحسنة والبراهين الواضحة والتعبيرات البديعة. والقرآن يعقد هذه الأمثال لتقريب الأشياء إلى الأفهام وللتذكير والاعتاظ ولتوضيح الغامض وشرح المشكل ولتكون أصولاً يعتمد عليها في فهم أسرار مخلوقاته وحكم العلوم المعارف.

أسلوب القرآن

لقد أنزل الله القرآن على أسلوبٍ لا يضارعه أسلوبٌ قبله ولا بعده من كلام الثقلين. فهو بذلك أسلوبٌ فريدٌ بين الأساليب الأدبية والأنظمة الكلامية. فهو لم يأت شعراً، وليس نثراً مرسلًا إرسال الحديث العادي، ولا هو سجعٌ ملتزمٌ ولا هو بخطبة. وإنما هو كلام عربي بصورة فوق عاطفة البشر وطاقته التعبيرية. فالقرآن يُمثل المرحلة العليا في التعبير والبراعة الفائقة في البلاغة. وقد كان القرآن يتكلم في كل مناسبة بما يلائم المقام، حيث وردت ألفاظه عنيفة في خطاب الكفار ورقيقة لينة في خطاب المؤمنين. كما بلغ القرآن القمة في الروعة بحيث لا يزال أبدًا منبعًا عذبًا وصافيًا لكل راغبٍ في السموّ بخياله إلى الدرجة العالية من البلاغة.

■ أثر القرآن في اللغة والأدب

كما كان للقرآن أثر عظيم في حياة العرب والعجم وكذلك في اللغة العربية وآدابها.

أ/ في اللغة

وحد القرآن لهجات العرب في لهجة قريش وزاد الثروة اللغوية بالتوسّع في استعمال بعض الألفاظ بإحداث معان جديدة لها، وهذب ألفاظ اللغة العربية بالبعد عن

الغربة. كما ساعد على انتشار اللغة العربية في البلاد التي أسلمت. وحفظ اللغة العربية من الانقراض كغيرها من اللغات القديمة. كما كان سبباً في نشأة العلوم اللغوية والدينية.

ب/ في الأدب

فقد دفع القرآن الناس إلى جمع مادة الأدب العربي ونصوصه شعراً ونثراً للاستعانة بها على فهم القرآن وتفسيره. وساعد القرآن على ترقية الأساليب الأدبية بمحاكات الأدباء لأساليب القرآن والافتباس منه وتوليد المعاني منه. كما دفع الناس إلى دراسة تاريخ العرب وسائر الأمم القديمة لاسيما التي وردت أخبارها في القرآن لفهم ما جاء به القرآن من القصص وغير ذلك.

■ فصاحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفصح العرب لهجة، وأبلغهم حجة، وأعذبهم كلاماً، وأصدقهم حديثاً، وقد أُوتِيَ جوامع الكلم. وتدور أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم حول القرآن الكريم مفصلة لما أجمله وموضحة لأهدافه وشارحة لمقاصده. وتمتاز أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم بكثرة أنواعها، وتنوع أغراضها، وشرف مقاصدها، وتعبيرها باللفظ القليل المعنى الكثير. كما اتصفت بجمال الألفاظ وسلامة العبارة وقوة التأثير والإقناع.

وتعتبر أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم بمثابة المصدر الثاني للأدب العربي في صدر الإسلام والدين الإسلامي بعد القرآن. وذلك على الرغم من أنها لم تدون في فجر الإسلام إلا القليل، فهي مع ذلك تُثبت أثرها في اللغة العربية وأدبها من شتى الفنون.

■ الشعر في صدر الإسلام

كان للشعر والشعراء في العصر الجاهلي منزلة رفيعة. ولما ظهر الإسلام انصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وممارسة شعائر الدين الجديد، وتركوا الشعر جانباً. ومما زاد الطين بلة بالنسبة لتقهقر منزلة الشعر عند الصحابة ما ورد في الكتاب والسنة عن الشعر والشعراء في أول الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ

الْعَاوُنَ ﴿٢٢٤﴾ . وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٦٩﴾ . وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث: "لأن يمتلى جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلى شعرا".

ولما اشتدت الخصومة بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين كفار قريش وآذوه هو وأتباعه بقرائض من الهجاء، هاج ذلك من شاعرية الشعراء من المسلمين وتمنوا لو يأذن لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يردوا على الكفار بالشعر. فما هو إلا أن قال لهم: "ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟" وبذلك رخص لهم في الرد عليهم. فنهض نفر من الصحابة منهم حسان بن ثابت الأنصاري وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين إلى الدفاع عن الإسلام بالشعر. وبذلك أخط الشعر العربي خطوة جديدة صادقة، حتى قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: "إن من البيان لسحر وإن من الشعر لحكمة".

■ أغراض الشعر في صدر الإسلام

ابتدع صدر الإسلام أغراضاً جديدةً للشعر كما هاجر شعراؤه الأغراض الباطلة التي كانت سائدةً في ما قبل الإسلام، من مثل الغزل الفاحش والفخر الباطل ووصف الصيد والخمر وأمثالها. ومن أبرز أغراض الشعر الجديدة في صدر الإسلام ما يلي:

أ/ تأييد الدعوة الإسلامية.

ب/ الرثاء والفخر عند الانتصار بعد الجهاد.

ج/ الرد على أهاجي شعراء المشركين.

■ لفظ الشعر وأسلوبه ومعانيه في صدر الإسلام

وللقرآن هو وفصاحة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أثرٌ عميقٌ في ترفيق شعر المُخَضَّرِمين عامة وأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم خاصة. فقد كثر في شعرهم استعمال ألفاظ القرآن وتشبيهاته ومحاكات أساليبه وتوليد المعاني من العقائد

والتعاليم الإسلامية والاهتداء بالمنهج الديني في صدق القول والأمانة والموضوعية والوسطية.

■ رجال الشعر في صدر الإسلام

/أ حسان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المُنذر بن حرام الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه، شاعرٌ مُحَضَّرٌ وسيد شعراء المؤمنين. كان شاعر الخزرج في الجاهلية، ولما أسلم نافح عن الإسلام بشعره ولقب بشاعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. عاش مائة وعشرين عاما نصفها الأول في الجاهلية والثاني في الإسلام. اشتهرت مدائحه في الغسانيين، وملوك الحيرة قبل الإسلام. وقد طلب حسان من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يأذن له في الرد على هجاء قريش فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: "كيف تهجوهم وأنا منهم؟" فقال حسان: "أسلك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين" فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: "أهجهم وروح القدس معك". وقد توفي رضي الله عنه سنة ٥٤ هـ، وعمي قبيل وفاته رضي الله عنه.

ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة سمعت القبائل في أطراف الجزيرة العربية بهذه الأنباء الجديدة، فكانت الوفود تقدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للتعرف على مبادئ الإسلام. وكان الوفد يضمُّ خطيبًا وشاعرًا ليتحدث كل منهما بلسانه نيابةً عن قومه، فيقوم شعراء المسلمين وخطبائهم بالردّ على الوفود.

وذاًت يومٍ جاء وفد بني تميمٍ وألقى شاعرهم أبياتا في الفخر بقبيلته، فلما انتهى من إنشاد قصيدته أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حسان بالردّ فقال:

إن الذوائب من فھر وإخوتھم	قد بيّنوا سننا للناس تتبع
يرضى بما كل من كانت سريرته	تقوى الإله وبالامر الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم	أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك فيهم غير محدثةٍ	إن الخلائق فاعلم شرّها البدع

إن كان في الناس سباقون بعدهم
لا يفرحون إذا نالوا عدوهم
أكرم بقوم رسول الله قائدهم
إذا تفرقت الأهواء والشيع
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

ب/ كعب بن زهير

هو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي سلمى المُرِّي رضي الله عنه، وليد أسرة شاعرة. كان فصيحًا وشاعرًا منذ أن كان شابًا. ولما ظهر الإسلام خرجا هو وأخوه بُجَيْر إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن كعبًا غيّر رأيه في الطريق، فتقدّم بُجَيْر وأسلم لدى رسول الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم، فغضب كعب عن إسلام شقيقه، فهجاه وهجا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم معه وطفق يتشعب بنساء المؤمنين، فأهدر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دمه، وأرجف الناس بقتله، ولما ضاقت عليه الأرض بما رحبت، دخل المدينة المنورة متنكرًا وتوسّل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأخذ الإسلام ومدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فعفى عنه وأعطاه برده التي لم تزل مع أهله حتى اشتراها معاوية رضي الله عنه منهم بأربعين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت إلى العثمانيين. وتوفي كعب رضي الله عنه نحو سنة ٢٦هـ. ويقول في لامبته التي ذكّر أنه مدح بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فور إسلامه:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
وقال كلُّ خليلٍ كنت آمله
فقلت خلّوا سبيلي لا أبا لكم
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
نُبئت أن رسول الله أوعدني
فقد أتيت رسول الله معتذرًا
متيم إثرها لم يفد مكبول
لا أهينك إني عنك مشغول
فكلُّ ما قدّر الرحمن مفعول
يومًا على آله حدباء محمول
والعفو عند رسول الله مأمول
والعذر عند رسول الله مقبول

ج/ الحطيئة

هو أبو مُلَيْكَةَ جَزُول بن أوس الحطيئة العبسي، من بني قطيعة بن عبس. ونسبه إلى عبس غير صريح، فقد ولدته أمة لامرأة ذهلية متزوجة رجلاً عبسيًا قبل الإسلام بنحو عشرين سنة، فكان إذا غضب الحطيئة على عبس رحل إلى ذهل وانتسب إليهم. بل كان كلما رضي عن قبيلة انتسب إليها. وما كانت القبائل لترفض الاعتراف به خشية لسانه، ثم لا تسلم منه. فقد هجا كل من انتسب إليهم؛ هجا أباه وأمه وامراته وهجا نفسه! أسلم ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام في حروب أهل الردة. وقد روي عن الأصمعي أنه يقول: "كان الحطيئة جشعًا سؤولاً، مُحَلِّفًا دنيئ النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، دميمًا، قبيح المنظر، رث الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين...". وما تشاء أن تقول في شاعرٍ من عيبٍ إلا وجدته فيه، ولولا هذه الصفات الدنيئة لكان أشعر المُخَضَّرِمين قاطبة، ومدحه من أبلغ المديح وأجمعه لمكارم الأخلاق.

وقد أكثر الحطيئة من هجاء الزبيرقان بن بدر التميمي (ت ٤٥هـ)، فشكاه إلى الخليفة عمر الفاروق رضي الله عنه، فسجنه عمر فتاب واستعطف الخليفة بأبيات وعقد عهداً بأن لا يعود، فأطلق سراحه، ولكنّه نكث عهده وعاد إلى الهجاء بعد موت عمر رضي الله عنه. عاش أكثر من ثمانين سنة، فمات في عهد معاوية رضي الله عنه سنة ٥٩هـ. ومن شعره قوله في قصيدته التي استعطف بها عمر رضي الله عنه وهو في السجن:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ	زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في فقر مظلمة	فاغفر، عليك سلام الله يا عمر
أنت الأمين الذي من بعد صادقهم	ألقى إليك مقاليد النهي البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك له	لكن لأنفسهم كانت بك الخير
د / عمرو بن معد يكرب	

عمرو بن معد يكرب بن عبد الله بن عمرو اليزيدي من سعد العشيرة قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد مراد، لأنه كان

قد فارق قومه سعد العشيرة ونزل في مراد من أشرف اليمن
وساداتهم، وقد اشتهر وعرف بالشجاعة

شهد اليرموك وأبلى بلاءً حسناً يوم القادسية، وكان فارساً بطلاً
ضخماً عظيماً، أجش الصوت، إذا التفت التفت جميعاً، وهو
أحد الشجعان المذكورين، وارتد عند وفاة النبي صلى الله عليه
وسلم، ثم رجع وحسن إسلامه. وقيل: كان يأكل أكل جماعة،
أكل مرة عنزاً رباعياً وثلاثة أصوع ذرة ومما يستجاد من شعره قوله:
أعاذل، عدتي، بدني ورمحي ... وكل مقلص سلس القيادة
أعاذل، إنما أفنى شبابي ... إجابتي الصريخ إلى المنادي
مع الأبطال حتى سل جسمي ... وأقرح عاتقي حمل النجاد
ويبقى بعد حلم القوم حلمي ... ويفنى قبل زاد القوم زادي
تمنى أن يلاقيني قبيس ... وددت وأينما مني ودادي
فمن ذا عاذري من ذي سفاه ... يرود بنفسه شر المراد
أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مراد

الخطابة في صدر الإسلام
▪ تعريف الخطابة

هو خطاب يُلقيه فردٌ مباشرةً على جماعةٍ متمثلة بين يديه بقصد التأثير في نفوسهم وإقناعهم بأمر من الأمور.

■ دواعي الخطابة في صدر الإسلام

فمن الدواعي التي استوجبت الاستعانة بالخطابة في صدر الإسلام لتأييد الإسلام أو معارضته ما يلي:

أ/ ظهور الإسلام بين أمةٍ أمميةٍ وعلى يد أحدهم. فإن فُشئَ الأمية بين قومٍ كافٍ في اضطرارهم إلى أن تكون الخطابة فيهم وسيلةً أساسيةً من وسائل الإقناع. لذلك كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن خلفه من الخلفاء والأمراء والقواد وغيرهم يستعملونها في تأدية المعاني.

ب/ سُمُو منزلة الخطابة عند العرب والتباهي بالفصاحة والارتجال في تأدية الكلام قبيل الإسلام وفي مطلع ظهوره، والتكسب بالشعر، والفخر بذلاقة اللسان وفصاحة الكلام. فكان للخطابة مجال ملائم لتلعب أكبر دورٍ في إقناع العرب الفصحاء.

ج/ إمكانية تجمّع المسلمين أو المشركين في صدر الإسلام في صعيدٍ واحدٍ في طوائف أو جماعات مصلين أو في المشعر الحرام، أو اجتماعات قبلية أو عسكرية أو نحو ذلك مما يُتيح فرصة اجتماع الناس في صعيد واحد ولاستماع خطيب واحد. وحينئذ تكون الخطابة أبلغ الوسائل في الإقناع لمشاهدة الخطيب بشخصيته والتأثر بنبرات صوته.

■ موضوعات الخطابة في صدر الإسلام

أ/ الدعوة إلى الإسلام وتوحيد الله ونبذ الشرك وترك عبادة الأصنام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من الأمور الدينية.

ب/ تشجيع جيوش المسلمين وتوصيتهم بما ينبغي أن يعاملوا به المشركين، والتحريض على قتالهم، والتحذير من كيدهم والتبشير بنيل إحدى الحسنين.

ج/ حلّ المشاكل السياسية من شرح خطّة، أو تأييد بيعة، أو رد شبهةٍ على تصرفٍ أو حكمٍ، أو ردّ على خصمٍ أو إعلان عفوٍ ونحو ذلك.

■ أسلوب الخطابة في صدر الإسلام

ويمتاز أسلوب الخطابة في صدر الإسلام عن أسلوبها في الجاهلية بقوة عبارتها وسهولة ألفاظها، وتجنب الخطباء في صدر الإسلام السجع والتكلف، وقلة سرد الحكم القصيرة الدقيقة لمناسبة وغير مناسبة كما كان يفعله خطباء الجاهلية.

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفتح خُطْبَهُ دائماً بخطبة الحاجة، وكان يعلمها أصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن. فجرت السنة على ابتداء الخطب في صدر الإسلام بحمد الله والثناء عليه. وكان الخطباء يكثرون من محاكات أسلوب القرآن في الاستدلال على وحدانية الله تعالى وتنزيهه، والترغيب في العمل الصالح بضرب المثل، وقصّ القصص، وكثرة الاقتباس من آيات القرآن والاستشهاد بها.

■ مشاهير الخطباء في صدر الإسلام

أبو بكر الصديق /

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو القرشي التيمي رضي الله عنه. أحد العشرة المبشرين بالجنة وصديق أمة الإسلام، وأفضل الصحابة على الإطلاق، وأول من آمن بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الرجال، وصاحبه في الغار ومؤنسه، وصهره، ووزيره، وخليفته الأول وأحبُّ الناس إليه من الرجال. نشأ سيداً كريماً وسخيّاً، وكان غنياً من كبار موسري قريش، كما كان عالماً بأنساب القبائل وأخبارها وسياستها، وكانت العرب تلقبه بعالم قريش. حرم على نفسه الخمر في الجاهلية، فلم يشربها. ثم كانت له في عصر النبوة مواقف كبيرة، فشهد الحروب، واحتمل الشدائد، وبذل الاموال. وكان عالماً فقيهاً، ومرشدًا فطناً، وخطيباً حكيماً. تولى الخلافة لنحو سنتين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فحارب المرتدين ومانعي الزكاة وافتتحت في أيامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق.

ومن خطبه النص الآتي؛ وهو جزءٌ من أوّل خطبة ألقاها بعد مبايعة المسلمين له خليفةً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. صعد المنبر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد، فإني وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة. الضعيف فيكم قويّ عندي حتى أريح له حقه إن شاء الله، والقويّ منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحدٌ منكم الجهاد في سبيل الله، فإنه لا يدعه قومٌ إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ إلا عمّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

ب/ عمر بن الخطاب

هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي، الصحابي الجليل والخليفة الراشد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، صاحب الكرامات والأوليات والمواقفات، الشجاع الحازم وصاحب الفتوحات. وكان منذ الجاهلية من أبطال قريش وأشرفهم، وله السفارة فيهم، ينافر عنهم وينذر من أرادوا إنداره. وهو أحد الرجلين اللذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحدهما فيقول: "اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب". أسلم مبكرًا رضي الله عنه، وكان إسلامه نقطة تحوّل وعزة للمسلمين وشهد الوقائع. كان عادلاً، جريئاً، ناصراً للحق، عنيفاً على الظلم ووقافاً عند كتاب الله. وكان لا يخاف في الحق لومة لائم. تولى الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه وحكم لمدة عقدهٍ أوسع خلاله رقعة الدولة الإسلامية وشيّدتها. كما شهدت الأمة العدل وسادها الأُنسُ خلال فترة حكمه حتى ضرب بعدله المثل. مات شهيداً من طعنة أبي لؤلؤة الجوسي. وكان عمر رضي الله عنه خطيباً، حسن اللفظ والأسلوب، دقيق التصميم والتركيب. ومن خطبه قوله:

أيها الناس! إنه أتى عليّ حينّ وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده. ألا وإنه قد خُيّل إليّ أن أقوامًا يقرؤون القرآن يريدون ما عند الناس. ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم، فإنما كُنّا نعرفكم إذ الوحي ينزل، وإذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرنا، فقد رُفِعَ الوحي وذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرّفكم بما أقول لكم: ألا فمن أظهر لنا خيراً، ظننّا به خيراً وأثبنّا به عليه، ومن أظهر لنا شراً ظننّا به شراً وأبغضناه عليه. اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها، فإنها طُلعة. وإياكم ألا تقدعوها تنزع بكم إلى شرٍّ غايةٍ. إن هذا الحقّ ثقيلٌ مريءٌ، وإن الباطل خفيفٌ وبيءٌ، وترك الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة.

ج/ علي بن أبي طالب

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي رضي الله عنه. ابن عمّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومولى من كان النبي عليه السلام مولاه، وزوج ابنته فاطمة الزهراء؛ سيدة نساء أهل الجنة، رضي الله عنها، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الشجعان الأبطال. أسلم رضي الله عنه وهو حدثٌ.

تمّت بيعته بالخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبقي على عرش الخلافة قريباً من خمس سنوات، واجه خلالها فتناً ومعارك من الخوارج والأمويين، فصارع علي رضي الله عنه إلى أن سقط شهيداً سنة ٤٠ هـ حين اغتاله عبد الرحمن بن ملجم الثقفي الخوارجي. وكان رضي الله عنه حكيماً، بليغاً، كريماً، شجاعاً، فصيحاً، عالماً ورعاً، دقيق التفكير والتفقه. وكان صاحب كرامات وفضائل. ومن خطبه النص التالي، وهو من الخطب التي رُويت عنه بعد التحكيم:

أما بعد، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تُورث الحيرة وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، وتخلّيت لكم مخزون رأبي، لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيتم علي إباء المخالفين الجفاة والمنابذين العصاة، حتّى ارتاب الناصح بنصحه وضمّن الزند بقدمه. فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتهمو أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

KKKKKKKKKK

الفصل الثالث الأدب العربي في العصر الأموي

■ المدخل

يبدأ العصر الأموي بتولية معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما الخلافة سنة ٤٠هـ بعد أن وضعت الفتن والحوادث أوزارها. وينتهي سنة ١٣٢هـ بسقوط الدولة الأموية على يد المسودة من دعاة بني العباس. وبهذا يكون العصر الأموي قد امتد تسعين سنة وزيادة. وكان الخلفاء في مطلع الدولة أقوياء وبخاصة معاوية، ومروان بن الحكم، وابنه عبد الملك، والوليد وسليمان ابنا عبد الملك وثالث العمرين؛ عمر بن عبد العزيز. ثم صعد عرش الخلافة - بعد أن طال الأمد على الدولة - ملوكٌ اتصف بعضهم بالضعف، فكان ذلك سبباً من أسباب سقوط الدولة الأموية.

■ الحياة الاجتماعية في العصر الأموي

لم يكن للعرب قبل العصر الأموي معرفةٌ بحياة الترف الحضارية. وبحلول هذا العصر بدأ العرب يعيشون في القصور، ويخططون مدناً جديدةً، كمدينة واسط التي اختطها الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق، ومدينة الرصافة التي بناها الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وغيرهما. وقد أمل الله الأرزاق على المسلمين في عصر بني أمية حتى بلغ أن الرجل كان يطوف بركاته في أيام خلافة عمر بن عبد العزيز فلا يجد من يأخذها!

وكذلك نشأت العصبية القبلية بين الشعوب، وبخاصة بين الذين يناصرون آل بيت

علي رضي الله عنه والذين يعاونون الأمويين وسياستهم.

■ الحياة السياسية في العصر الأموي

يتميّز العصر الأموي بظهور الشيع والأحزاب السياسية والدينية من مثل العلويين والخواج والزبيريين والمرجئة وغيرها من الطوائف الدينية والسياسية التي شكلت مصدر الاضطرابات السياسية والأزمات التي حدثت حيناً بعد آخر طوال حياة هذه الدولة ولوثت صفاء الإدارة وسياسة الدولة الأموية.

■ الحياة الثقافية في العصر الأموي

لم تكن نفوس العرب في عصر بني أمية مهيةً للعلم، وإنما توزعتهم العواطف الدينية والفتوحات العسكرية، والشواغل السياسية، والنزعات الأدبية. فاكتفوا من العلم بما تكون الحاجة إليه ماسة. فنبغ علماء في النحو وفنون اللغة وفقه العبادات والحديث والتفسير وعلم الكلام، وكذلك الطب. ولكن العلوم الثقافية لم تسر شوطاً بعيداً، ولعل من أسباب ذلك عدم اختلاط العرب في العصر الأموي بالأمم الأخرى ذات الحضارات العريقة. وظل الإنتاج العلمي في العصر الأموي قاصراً على الثقافة العربية.

وقد تبنت الأحزاب السياسية المختلفة لأنفسها أفكاراً دينيةً متباينةً، ونشأ جراء ذلك بين الفرق جدالٌ ومحاوراتٌ عقدت لها مجالس خاصة، وحاول خلالها كلٌّ من أهل السنة والشيعية والخواج إثبات صحة مبدئه وفلسفة حزيه.

■ أغراض الشعر في العصر الأموي.

أ/ المدح

كان المدح من أغراض الشعر العربي منذ الجاهلية، واستعمل في فجر الإسلام لتأييد الحق. ولما كان عصر بني أمية رخص الخلفاء الأمويون استعماله لتأييد سياستهم، وشجعوا الشعراء على ذلك بالعطايا الخيالية المغرية. فتسابق الشعراء إلى اختراع المعاني التي تعجب أولياء الأمر في حقِّ وغيره. ومثاله قول حيص بيص في مدح خالد القسري:

قد كان آدم قبل حين وفاته أوصاك وهو يجود بالجوباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم وكفيت آدم عيلة الأبناء

ب/ الهجاء

كان الهجاء من الأغراض المعروفة السائدة منذ الجاهلية أيضاً. ولما جاء الإسلام رخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لشعراء المسلمين هجاء المشركين، وذلك لما اشتدت وقعة شعراء المشركين على المسلمين، كما أقام الحدّ على كل من هجا الإسلام أو حاول أن يمس من كرامة الدين الحنيف. وأما خلفاء بني أمية فقد شجعوا شعراءهم على هجاء من خالف سياستهم. ومثاله قول الطرماح بن الحكيم في هجاء بني تميم:

لو حان ورد تميم ثم قيل لها حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
أو أنزل الله وحيا أن يعذبها إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
لا عزّ نصر امرئ أضحى له فرس على تميم يريد النصر من أحد
لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد

ج/ الفخر

كان الفخر من أبرز أغراض الشعر في العصر الجاهلي. وأما في صدر الإسلام فقد أصبح الفخر مقتصرًا على ذكر نعمة الله والانتصار على المشركين بعد المعارك الجهادية. وتغيّر الحال في عصر بني أمية، حيث جعل الشعراء يتفاخرون فيما بينهم ويحتفلون على انتصار بعضهم على بعض. وأدى ذلك إلى إحياء العصبية القبلية الجاهلية التي نهي عنها الإسلام. كما نتج عن ذلك غير قليل من التراث الشعري الممزوج من الفخر والهجاء. ومثاله قول أبي محجن الثقفي يفتخر بقومه:

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا

د/ الشعر السياسي

لم يكن الشعر السياسي موجودًا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، وإنما تم اختراعه في العصر الأموي لما تعددت الأحزاب السياسية والدينية، واتخذت الطوائف الشعر وسيلة للإشادة بآراءها. ومن أشهر شعراء بلاط دولة بني أمية الأخطل وجريبر والفرزدق. ومن الخوارج عمران بن حطان وقطري بن الفجاءة، ومن الشيعة الكُميت. وهو القائل:

ألا إن الأئمة من قريشٍ
عليّ والثلاثة من بنيهِ
ولاة الحق أربعة سواء
هم الأسباط ليس بهم خفاء

هـ / الغزل

وهو من الأغراض التقليدية أيضاً. ولكنه انخفض بعد ظهور الإسلام بحكم منهج الحياة الجديد الذي ينفر من التشبيب ويدعو إلى العفاف. ثم عاد الغزل إلى ساحة الأدب العربي بعد حلول الدولة الأموية، ولكنه انقسم إلى قسمين:

١. الغزل الصريح

وهو الحديث عن النساء على منهج المتعنتين من الشعراء الجاهليين، يكشف فيه الشاعر عورات النساء ويقصُّ قصصاً له معهن أكثرها كذب وافتراء. وزعيم هذا النوع هو عمر بن أبي ربيعة، وهو القائل:

ألا ليت أني يوم تقضي منيتي
وليت طهوري كان ريقك كله
لثمت الذي ما بين عينيك والفم
وليت حنوطي من مشاشك والدم

٢. الغزل العفيف

وهو غزلٌ يتسم بالكناية والعفة، وفيه تقديس للمرأة وذكر محاسنها، وإعلان ما يعانيه الشاعر من آلام الحب ولوعة الشوق. واشتهر به شعراء قبيلة بني عذرة في اليمن، حتى انتسب إليهم. ومن أبرز شعراء هذا النوع عبيد الله بن قيس الرقيات وجميل بُثينة وكثير عزة وغيرهم. ومثاله قول كثير:

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها
ولا موجعات القلب حتى تولت
كناذرة نذرت فأوفت وحلت

و / الرثاء

كان الرثاء في الجاهلية تلهُفاً بالفقيد، وفي الإسلام عزاءً للشهداء. ولكنه أصبح في عصر بني أمية بمثابة النعي والبكاء على الميت. ومثاله قول جرير حين مات ابن له:

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم
كيف العزاء وقد فارقت أشبالي

فارقنتني حين كفّ الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمة البالي

ز/ الوصف

كان الشعراء في العصر الجاهلي يقومون بوصف المطية أو الفرس في مقدمة قصائدهم، واستمر الأمر على هذا الشكل بعد ظهور الإسلام. فلم يتعرض الوصف لتغير جذري. ومثاله قول حندج المُري يصف ليل صول:

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليلة بالليل موصول
لا فارق الصبح كفي إن ظفرت به وإن بدت غرة منه وتحجبل
لساهرٍ طال في صول تمللمه كأنه حية بالسوط مقتول

ح/ الحماسة

كان الشعراء في الجاهلية يصفون الوقائع والمعارك التي دارت بين العشائر والقبائل ويشيدون بفرسان قبائلهم مفتخرين بانتصارهم على أعدائهم. وعلى النمط نفسه ظل الشعراء في صدر الإسلام يصفون المعارك الجهادية. ولما كانت الدولة الأموية حدثت فتن الخوارج والشيعة وغيرهما من المتمردين الذين شكلوا مصدر الفتن والاضطرابات خلال حياة الدولة الأموية. وكان الخوارج على سبيل المثال يكثر شعراؤهم من وصف المعارك التي خاضوها. ومن ذلك قول أحد شعرائهم بعد أن هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد:

أألفا مؤمنٍ منكم زعمتم ويقتلكم بأسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكنَّ الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

■ أسلوب الشعر في العصر الأموي

بات الشعر العربي في العصر الأموي يميل إلى الحياة الإسلامية الخاضعة لسلطان الإسلام شأنه في ذلك شأن سائر ميادين الحياة التي غيرها منهج الحياة الجديد. ولكن قد جعل الشعر يتنوع فناً وأسلوباً بفضل الأحزاب السياسية، وعودة العصبية القبلية وحياة الترف التي عاشها المجتمع الأموي من دون أن يخرج عن صورته الجوهرية من حيث الأوزان

والقوافي وطريقة قرضه عمّا كان عليه في الجاهلية وصدر الإسلام. وعُني الشعراء بالأراجيز عناية جعلتها تقترب من سائر القصائد في أكثر خصائصها. وجملة القول ما اختلف الشعر الأموي عمّا قبله من حيث بناء القصيدة ومن حيث سهولة العبارة وصعوبتها ورقة الألفاظ وعذوبتها.

■ مشاهير الشعراء في العصر الأموي

أ/ جرير

هو أبو حذرة جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر التميمي البصري. وُلد جرير في اليمامة أيام خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونشأ فقيراً يرعى الغنم. ولكنّه كان موهباً في الشعر الذي ورثه عن آبائه. ولمّا آنس من نفسه القدرة على قرص الشعر الجيّد ورد البصرة، وهي يومئذ مسرح الصراع في السياسة والأدب والمدنية. فترعرعت عبقريته وصار في الصفوف الأولى من شعراء ذلك العصر. اتصل بالحجاج بن يوسف الثقفي ومدح خلفاء بني أمية. وتوفي سنة ١٤٠هـ. وقد كانت العداوة بينه وبين بعض شعراء دولة بني أمية من مثل الفرزدق عنيفة. وفي الرد على الفرزدق يقول جرير:

أعددت للشعراء سمّاً ناقعا	فسقيت آخريهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسي	وضعا البعيث جدعت أنف الأخطل
حسب الفرزدق أن يسبّ مجاشع	ويعد شعر مرقش ومهلهل
أخزى الذي سمك السماء مجاشعا	وبنا بناءك في الحضيض الأسفل
ولقد بنيت أخصّ بيت بيتني	فهدمت بيتكم بمثلي يذبل
إني انصبت من السماء عليكم	حتّى اختطفتك يا فرزدق من عل
أحلامنا تزن الجبال رزانة	ويفوق جاهلنا فعال الجهل
كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله	مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
وقضت لنا مضرّ عليك بفضلنا	وقضت ربيعة بالقضاء الفيصل
إن الذي سمك السماء بنا لنا	عزّاً علاك فما له من منقل
أبلغ بني وقبان أن حلومهم	خفت فلا يزنون حبة خردل

ب / الفرزدق

هو أبو فراسٍ هَمَّام بن غالب الدارمي التميمي. ولُقِّب بالفرزدق لغيظ وجهه وشبهه بالرغيف. نشأ في البصرة، ولقَّنه أبوه الشعر والفصاحة وهو حدث. وقضى جزءاً من حياته في البادية، فظهر أثر البداوة على شعره. كان متشيعاً للعلويين، ولكنه اتصل بخلفاء دولة بني أمية وأمرائها تكسباً، وجعل يمدحهم وينال عطاياهم. وله في مدح العلويين وشيعتهم قصائد رائعة. وتوفي سنة ١١٠ هـ.

وكان الفرزدق خليعاً، فاحش النطق، خبيث الهجاء، ضعيف الدين وقاذف المحصنات. وقد عاش الفرزدق على العصبية القبلية القائمة على التفاخر بالأجداد والأنساب، فدارت معارك هجائية بينه وبين جرير. وكان أصلها عداءً نشأ بين جرير وشاعرٍ يقال له البعيث، فأزر الفرزدق البعيث وانضم إليهما الأخطل وجمع كثيرٌ من الشعراء، واستمرت هذه المعركة الهجائية نحو أربعين سنة نتجت عنها قصائد كثيرة، جمعت بين الفخر والهجاء، وسميت بالثقائض لأن الشاعر كان ينقض ما قاله خصمه بقصيدة من نفس الوزن والقافية. ومن هذا النوع يقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا	بيتاً دعائمه أعزَّ وأطول
بيتاً بناه لنا المليك وما بنا	حكم السماء فإنه لا ينقل
بيتا ذرارةٍ مختبٍ بفناءه	ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا يختبي بفناء بيتك مثلهم	أبدًا إذا عُددَ الفعال الأفضل
ضربت عليك العنكبوت بنسجها	وقضى عليك به الكتاب المنزل
وإذا برزت فرايتي يمشي بها	سفيان أو عدس الفعال وجيدل
الأكثرون إذا يُعدَّ حصاهم	والأكرمون إذا يُعدَّ الأول
أحلامنا تزن الجبال رزانة	وتخالنا جنًّا إذا ما نجهل
فادفع بكفك إن أردت بناءنا	تهلان ذو الهضبات هل يتحلحل
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم	وإليه كان حباء جفنة ينقل
إننا لنضرب رأس كل قبيلة	وأبوك خلف أتانه يتقمّل

ج / الأخطل

أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو التغلبي النصراني. كان ميلاده في أوائل خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونشأ بالحيرة بين قومه على النصرانية يقول الشعر مغرماً بالهجاء، ويشرب الخمر. ولُقِّب بالأخطل لطوله واحتياله في مشيته. اتصل ببني أمية بهجائه للأنصار، وعُدَّ من شعراء بلاط الدولة، فاشتهر وذاع اسمه. وكان شاعراً مصقول الألفاظ، حسن الדיباجة، في شعره إبداع. وكان معجباً بأدبه، تياها، كثير العناية بشعره، فكان ينظم القصيدة ويعمل على تهذيبها ويسقط ثلثها ثم يظهر مختارها. وكان ممن شايع الفرزدق في المعركة الهجائية ضدَّ جرير. وتوفي سنة ٩٥ هـ. وكان الأخطل سليط اللسان، خليعاً، خبيث النية وفخوراً بنفسه. وكان يجيد المدح ووصف الخمر. ويُعدُّ من أبرز الشعراء الذين وقفوا إلى جانب بني أمية؛ يؤيدهم بشعره ويهاجم منافسيهم. ومن مدحه لعبد الملك بن مروان وذمه لخصوم الخليفة الأموي قوله:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا	وأزعجتهم نوى في صرفها غير
في نبعة من قريش يعصبون بها	ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر
حُشدٌ على الحق عيافو الخنا أنف	إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شمس العداوة حتى يستقاد لهم	وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا
هم الذين يبارون الرياح إذا	قلّ الطعام على العافين أو قتروا
بنوا أمية نعماكم مجللة	تمت فلامنة فيها ولا كدر
أعطاهم الله جدا يُنصرون به	لا جدَّ إلا صغيراً بعد مختصر
بني أمية إنني ناصح لكم	فلا يبيتن منكم آمنة زُفر
فإن مشهده كفر وغائلة	وما يُغيَّب من أخلاقه وعر
إن العداوة تلقاها وإن كنت	كالغر يكمن حيناً ثم ينتشر

د / عمر بن أبي ربيعة

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي. ولد ليلة موت عمر بن الخطاب رضي الله عنه. نشأ غنياً يتقلب في أعطاف النعيم، ويرتع في رياض الترف، فمال إلى المجون. ونطق بالشعر وهو صغير. وسلك في شعره طريقاً غير مألوف، فكان يقصر شعره على النساء، يصفهن ويحكي قصصهن، ويتشبه بالأميرات، ويقذف المحصنات، وينال من عرض السيدات. وقد نفاه الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى دَهْلِكَ لسبب دعارته في الشعر حتى تاب وتنسك. وتوفي سنة ٩٣ هـ.

وكان عمر رشيق الأسلوب، سهل اللفظ، يحسن الوصف، وكان أرق شعراء عصره، ولم يكن في قريش أشعر منه. وكان يفد على عبد الملك بن مروان أيام خلافته فيكرمه ويقربه. وقد أولع به المغنون والطفاء، وشُغِفَ به الفتیان والندماء. ومن غزلياته ما يلي:

فلمّا تقضى الليل إلا أقله	وكادت توالى نجمة تنغور
أشارت لأختيها أعينا على فتى	أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
فأقبلنا فارتاعتنا ثم قالتا	أقلى عليك اللوم فالخطب أيسر
يقوم فيمشي بيننا متنكراً	فلا سرُّنا يفسو ولا هو يظهر
فكان مجتبيّ دون من كنت أتقي	ثلاث شخوص كاعبان ومعصر
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي	ألم تتقي الأعداء والليل مقمر
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا	لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

هـ / جميل بثينة

هو أبو عمرو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي. ولد سنة ٤٠ هـ بوادي القرى، ونشأ هناك يتقلب في البوادي. وكان مغرماً في أول أمره بابتة عم له تدعى أم الجسير. ثم افتتن ببثينة تعلق بما فخطبها إلى أبيها فرُدَّ طلبه، فجعل يقول فيها الشعر حتى شكاه أهلها إلى الخليفة الأموي مروان بن الحكم فتوَعَّده إن هو زار بثينة من جديد أو تعرَّض لها في شعره، فهرب جميل إلى اليمن. ولما عاد وجدها قد تزوجت من غيره،

ولكنه استأنف يقول فيها الشعر فأهدر عامر بن ربيعي دمه، ففرّ إلى مصر ووافد على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه وأمر له بمنزل فأقام قليلا ومات سنة ٨٠ هـ بعد مرضٍ يسير. وكان جميل شاعراً فصيحاً، يقدّمه النقاد على جميع شعراء طبقتة من الغزليين. يعد من عشاق العرب. وشعره رقيق اللفظ، سهل التراكيب، واضح المعنى ومتأجج العاطفة. وكان جميع شعره في النسب سوى قطعتين. ومن غزله ما يلي:

أبثين إنك قد ملكت فأسجحي	وخذي بحظك من كريم واصل
لو أن في قلبي كقدر قلامه	فضلا وصلتك أو أتتك رسائلي
ويقلن إنك يا بثن بخيلة	نفسي فداؤك من ضنين باجل

ويقول أيضا:

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي	وهمّو بقتلي يا بثن لقوي
إذا ما رأوني طالعا من ثنية	يقولون من هذا؟ وقد عرفوني
يقولون لي أهلا وسهلا ومرحبا	ولو ظفروا بي ساعة قتلوني
وقال أيضا حينما كان في اليمن:	
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة	بواد القرى إني إذن لسعيد
وقد تلتقي الأهواء من بعد يأسه	وقد تطلب الحاجات وهي بعيد
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها	ويحيا إذا فارقتها فيعود
يقولون جاهد يا جميل بغزوة	وأئيّ جهادٍ غيرهن أريد

و/ الأحوص

عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم الأنصاري، من بني ضبيعة. ولقب بالأحوص لضيق في مؤخر عينيه. شاعر هجاء، صافي الديباجة، من طبقة جميل بن معمر. وكان معاصرا لجرير والفرزدق. وهو من سكان المدينة. وفد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه الوليد، ثم بلغه عنه ما ساءه من سيرته، فردّه إلى المدينة وأمر بجلده، فجلد، ونفي إلى دهلك؛ وهي جزيرة بين اليمن والحبشة، كان بنو أمية ينفون إليها من يسخطون عليه.

فبقي بها إلى ما بعد وفاة عمر بن عبد العزيز. وأطلقه يزيد بن عبد الملك. فقدم دمشق فمات فيها. وكان حماد الراوية يقدمه في النسب على شعراء زمنه.

ومن شعره:

مَا عَالَجَ النَّاسُ مِثْلَ الْحَبِّ مِنْ سَقَمٍ وَلَا بَرَى مِثْلَهُ عِظْمًا وَلَا جِسْدًا
مَا يَلْبِثُ الْحَبُّ أَنْ تَبْدُو شَوَاهِدُهُ مِنَ الْمُحِبِّ، وَإِنْ لَمْ يُبْدِهِ أَبَدًا
شَتَانٌ حِينَ يَنْتُ النَّاسُ فَعَلَهُمَا مَا بَيْنَ ذِي الدَّمِّ وَالْحَمُودِ إِنْ حَمَدَا
أَقْوَتَ رُوَاؤُهُ مِنْ أَسْمَاءٍ فَالَسَّنَدُ فَالَسَّهْبُ فَالْقَاعُ مِنْ عَيْرَيْنِ فَالْجُمْدُ
فَعَرِشُ خَاخٍ قَفَارٌ غَيْرَ أَنْ بِهِ رُبْعًا أَقَامَ بِهِ نُؤْيٍ وَمُنْتَصِدُ
وَقَدْ أَرَاهَا حَدِيثًا وَهِيَ آهَلَةٌ بِهَا تَوَاصَلَ ذَاكَ الْجَزْعُ فَالْعَقْدُ
إِذِ الْهَوَى لَمْ يُعَيِّرْ شَعْبَ نَيْتِهِ شَكْسُ الْخَلِيقَةِ ذُو قَاذُورَةٍ وَحَدُ
فِيهَا خَلَةٌ لَوْ أَنَّهَا بَهْوَى مِنْهَا تُثْبِتُكَ بِالْوَجْدِ الَّذِي نَجْدُ
قَامَتْ تُرْبِكَ شَتِيتَ النَّبْتِ ذَا أُشْرِ كَأَنَّهُ مِنْ سَوَارِي صَيْفٍ بَرْدُ
الخطابة في العصر الأموي

■ المدخل

على الرغم مما حدث من الفتن والتغيرات في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أيام إمارة بني أمية، فقد بقيت الخطابة من أبرز وسائل الإقناع في العرب الذين لم يزالوا يقدرون قيمة اللسان وفصاحة المتكلم.

■ موضوعات الخطابة في العصر الأموي

كانت الخطابة في صدر الإسلام تستعمل غالباً في الشعائر الدينية. ولكن ازدادت موضوعاتها في العصر الأموي بسبب أمورٍ مستحدثة في الدين والسياسة والاجتماع. ومن أبرز موضوعاتها الجديدة ما يلي:

أ/ استعمل الخطابة الفرق الدينية كالخوارج وغيرهم لتأييد نحلتهم.

ب/ واستعملتها الفرق السياسية كالعلوين والزبيريين وغيرهما في الدعاية السياسية.

ج/ وقد استعملت في المفارحات والمناقضات بين العجم والعرب على سبيل المثال.

د/ كما استعملها خلفاء بني أمية كآلة للعقوبة والتوبيخ والإعلانات، وهلمَّ جرًّا.

■ أسلوب الخطابة في العصر الأموي

كانت الخطب في العصر الأموي تفتتح دائمًا بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه، حتى نعتوا ما خالف ذلك من الخطب بالبتراء. وبعد الحمد يباشر الخطيب موضوع كلامه، ويختتم الخطبة غالبًا بقوله "أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم" وكان بعض الخلفاء والأمراء الأمويين يُكثرون من كلمات الزجر والتهديد، لاسيما إذا خطبوا في بلادٍ يكثر فيها المعارضون لسياستهم كالحجاز والعراق.

وفي الجملة، فقد بلغت الخطابة في العصر الأموي قمةً عظيمة من حيث الأسلوب والمعاني وغير ذلك من النواحي. وحُقَّ لها أن تبلغ هذه الغاية إذ كانت اللغة العربية لا تزال تولد نبلاء من الخطباء.

■ مشاهير الخطباء في العصر الأموي

أ/ معاوية بن أبي سفيان

هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب الأموي القرشي رضي الله عنهما. ولد قبيل البعثة وتوفي سنة ٦٠ هـ. وقد ورث عن أهله الشرف والفصاحة، أعلن إسلامه أوان فتح مكة المكرمة.

وكان واليا على الشام أيام خلافة عثمان رضي الله عنه، ولما قُتِل عثمان رضي الله عنه في فتن ابن سبأ اتهم معاوية عليًّا رضي الله عنهما بدم عثمان، فما بايعه. وحدثت بينهما فتن وحوادث، ولما قُتِل علي رضي الله عنه كان من نصيب معاوية أن يستخلص الملك لنفسه بعد أن تنازل له عن الخلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما، فأسس معاوية رضي الله عنه دولة بني أمية ابتداءً من سنة ٤٠ هـ وتوارث عرش الخلافة سلالته من الأمويين إلى سقوط دولتهم سنة ١٣٢ هـ.

كان معاوية رضي الله عنه من كُتّاب الوحي، وكان حليماً، وقوراً، عاقلاً، داهيةً
وبعيد الفكر. وعُرف بالبلاغة في النطق والدقة في تدبير أمور السياسة والحياة. وله خطب
كثيرة، ويُروى أن الخطبة الآتية هي آخر خطبة ألقاها كخليفة، صعد المنبر فحمد الله وأثنى
عليه ثم قبض على لحيته فقال:

أيها الناس! إني من زرعٍ قد استحصد، وقد طالت عليكم إمرتي حتى مللتكم
ومللتموني، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي، وإنه لا يأتيكم من بعدي إلا من هو شرُّ مني
كما لم يأتيكم قبلي إلا من هو خير مني. وإنه من أحب لقاء الله أحب لقاءه، اللهم إني
أحببت لقائك فأحبب لقائي.

ب/ عبد الله بن الزبير

هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي رضي الله عنهما. سبط أبي بكر الصديق
رضي الله عنه من قبل ابنته أسماء رضي الله عنها، وُلد عبد الله بعد الهجرة بقليل، بل هو
أول من ولدته مهاجرةً في المدينة، فحنَّكه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له بالخير
وسمَّاه باسم جدِّه أبي بكرٍ وكنَّاه بكنيته. وقد نشأ بالمدينة وشهد الرسول صلى الله عليه
وآله وسلم وروى عنه وحفظ القرآن. وكان من بين الصحابة الذين كلَّفهم عثمان رضي الله
عنه كتابة مصاحف الأمصار.

وكان عبد الله رضي الله عنه شجاعاً وعابداً. خرج على بني أمية وطلب لنفسه
الخلافة، واستمر على دعوته حوالي تسع سنين استولى خلالها على الحجاز والعراق واليمن
ومصر. وهكذا استمر يصارع ضدَّ جيوش الدولة الأموية حتى قتله جيوش الأمويين بقيادة
حجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٤هـ في مكة المكرمة.

وكان أخوه مصعبٌ والياً على العراق من قبله. فقتله جيوش عبد الملك سنة
٧٣هـ تقريباً، فخطب عبد الله في قومه قائلاً:

الحمد لله الذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.
ألا والله لا يدلُّ الله من كان معه وإن كان فرداً، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وحزبه وإن

كان معه الأثام طرًا. ألا إنه أتانا خبرٌ من العراق بلد الغدر والشقاق فساءنا وسرّنا. أتانا أن مصعبًا قُتل رحمة الله عليه ومغفرته. فأما الذي أحزننا من ذلك فإن العراق الحميم لدغة، يحدها حميةٌ عند المعصية ثم يروع من بعد ذوو الرأي والدين إلى جميل الصبر. وأما الذي سرّنا منه فإنه قد علمنا أن قتله شهادةٌ له وأنه عزّ وجلّ جاعلٌ ذلك لنا وله ذخيرة إن شاء الله تعالى.

ج / قطريّ بن الفجاءة

هو أبو نعامة قطريّ بن جعونة بن مازن بن يزيد بن زياد التيمي المازني الخوارجي. رأس فرقة الأزارقة من الخوارج، وأحد أبطالهم وخطيبهم وشاعرهم المشهور. خرج زمن مصعب بن الزبير لما ولي العراق نيابة عن أخيه عبد الله بن الزبير وبقي قطريّ عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يسير إليه جيشا بعد جيش وهو يستظهر عليهم.

ثم تمّت بيعته خليفةً لنافع بن الأزرق بعد موته. فقاتل الأمويين إلى أن تفكّكت الأزارقة فرقًا. واستغل الأمويون فرصة فشل فرقته فقتلوه سنة ٧٩هـ. وأخبار بطولة تطول. وكان رجلا متنسكًا وزاهدًا. كما كان شجاعا مقداما كثير الحروب والوقائع، قوي النفس لا يهاب الموت، وفي ذلك يقول مخاطبا لنفسه:

أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك لا تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبرا في مجال الموت صبيرا	فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب الحياة بثوب عز	فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي	وداعية لأهل الأرض داعي
ومن لا يغبط يسأم ويهرم	وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة	إذا ما عد من سقط المتاع

يُعدّ من أخطب العرب في طبقته، وأخطب الخوارج على الإطلاق. وكان فارسًا، شجاعًا، وآراؤه الدينية كانت على مذهب شيخه نافع بن الأزرق في اعتقاد أن كلَّ من خالفهم مشركٌ، حلال الدم والمال يجب قتله وأسر زوجته واغتنام ماله. ومن خطبه قوله:

أما بعد فإني أحذركم من الدنيا، فإنها حلوة خضرة، جُفَّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا يدوم خيرها، ولا يُؤمن فجعته، عزاوة ضرارة، خوانة غدارة، حائلة زائلة وأكالة عوالة. وإذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال تعالى: ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ٤٥ ﴾ مع أن أمرًا لم يكن فيها خبرة إلا أعقبته بعدها عبرة.

د / عبد الحميد الكاتب

هو أبو غالب عبد الحميد بن يحيى الكاتب، فارسي الأصل. نشأ بالأنبار، وبدأ حياته معلّمًا بالكوفة. ثم انتقل إلى الشام واتصل بمروان بن محمد؛ آخر خلفاء بني أمية في الشرق، وذلك منذ أن كان مروان واليًا على أرمينية. فقربه، واتخذ كاتبًا له، فلازمه الكاتب إلى نهاية دولة الأمويين. فلما بدأت الأزمة هرب الكاتب هو وسيدته ابن محمد إلى مصر من وجع العباسيين، وظلا ينتقلان بين القرى والبوادي حتى تم اغتيال سيده في قرية بومصر بمصر. ثم لجأ إلى صديقه ابن المقفع في البحرين، حيث تبعته جنود العباسيين وقتلوه. وكان صادق اللسان، وفاءً للعهد، وافر الحكمة، عذب المورد وصافي الديباجة، فقد كان يسبي المشاعر بكلامه ويفعل بالألباب فعل السحر. ومن آثاره النص التالي؛ وهو جزءٌ من رسالة كتبها إلى أهله أيام انهما هو ومولاه، ويقول فيها:

أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفةً بالمكاره والشرور، فمن ساعده الحظُّ فيها سكن إليها، ومن عصته بناجها ذمها ساخطا عليها، وشكاها مستزبدًا لها، وقد كانت أذقتنا أفويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا مولية، فملح عذبها، وخشن لينها، فأبعدتنا

عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان. وقد كانت الأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم وجداً؛ فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا. وإن يلحقنا ظفرٌ جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شرٌّ جار. نسأل الله تعالى الذي يُعزُّ من يشاء ويُذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعةً، في دار آمنةٍ، تجتمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

هـ / زياد بن أبيه

هو زياد بن سمية، أحد دهاة العرب، والقادة الفاتحين، أصله من الطائف، ولد حوالي السنة الأولى للهجرة. وكان منذ صغره شديد الرأي ماضي الهمة. اختلفوا في اسم أبيه، فقيل عبيد الثقفي وقيل أبو سفيان. ولدته أمه سمية (جارية الحارث بن كلدة الثقفي) في الطائف، وتبناه عبيد الثقفي (مولى الحارث بن كلدة) وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وأسلم في عهد أبي بكر. وكان كاتباً للمغيرة بن شعبة، ثم لأبي موسى الأشعري أيام إمرته على البصرة. ثم ولاه علي بن أبي طالب إمرة فارس. ولما توفي علي امتنع زياد على معاوية، وتحصن في قلاع فارس. استلحقة معاوية بنسبه بعد أن شهد أناس أنه ابن أبي سفيان، وولاه البصرة والكوفة وغيرهما. فساس بالصرامة وقضى على كل شغب وفساد. فقد كان زياد سياسياً داهية، وكانت سياسته كما قال "لين في غير ضعف وشدة في غير عنف". وتوفي سنة ٥٣هـ.

وكان زياد يعني بتأليف خطبه وبتخير ألفاظها ويعتمد على الإيهام ويلزم التسلسل المنطقي في خطبه في عبارات طويلة وقصيرة وصور شديدة الصلة بالواقع. ولذلك غدا حسن اللفظ وجيد المعاني في خطبه، حتى لكأنما أوتي فصل الخطاب، وفيه يقول الشعبي: "ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسيء إلا زيادا، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً". أخباره كثيرة، وله أقوال سائرة. وأوليات ماضية. واشتهر بخطبته التي اصطلح على تسميتها بـ 'البتراء' لأنه بدأها من دون تحميد أو تسليم أو ما في شكل ذلك من المعهود. ومنها قوله:

أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغي الموفى بأهله إلى النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة في النعار المبصر والعدد غير قليل ألم يكن منكم نمة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ قريتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضبون على الختلس كل امرئ منكم يذنب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا، ما أنتم بالحلماة ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرام الإسلام، ثم أرقوا وراءكم، كنوسا في مكانس الريب، حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماء وإحراقا.

و / الشعبي

هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري، رأس التابعين بالكوفة، راوية، من الثقات المشهورين، ومن يضرب المثل بحفظه. ولد توءما ضئيلا بالكوفة سنة ١٩هـ. وكانت أمه من سبي جلولاء وأقام بالمدينة ثمانية أشهر هاربا من المختار، فسمع من ابن عمر وتعلم الحساب من الحارث الأعور، وكان حافظا وما كتب شيئا قط. وسئل عما بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته. وكان فقيها، شاعرا. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم. استقضاه عمر بن عبد العزيز. واختلفوا في اسم أبيه فقيل: شراحيل وقيل: عبد الله. نسبته إلى شعب وهو بطن من همدان، توفي فجأة بالكوفة سنة ١٠٣هـ. وقال الزهري: "العلماء أربعة: ابن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام". ويقال إنه أدرك خمسمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان الشعبي من جملة من صار إلى مسلم بن قتيبة فذكره الحجاج يوما ف قيل له: إنه سار إلى مسلم بن قتيبة، فكتب إلى مسلم: أن ابعث لي بالشعبي، قال الشعبي: فلما دخلت عليه سلمت عليه بالإمرة ثم قلت: أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق، وأيم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق كائنا في ذلك ما كان، قد والله تمردنا عليك، وخرجنا وجهدنا كل الجهد فما ألونا، فما كنا بالاقوياء الفجرة، ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إليك أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد، فلك الحجة علينا.

فقال الحجاج: "أنت والله يا شعبي أحب إلي ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، قد أمنت عندنا يا شعبي".

KKKKKKKKKK

الفصل الرابع الأدب العربي في العصر العباسي

■ المدخل

مع أن الأمويين قد نجحوا في استحواد الخلافة واحتكارها في عشيرتهم، إلا أن كثيرا من عوام المسلمين ظلوا يميلون إلى أهل البيت ويكتون لهم حبا عميقا، ويحترمونهم، ويتمنون عودة الخلافة إليهم. وذلك منذ بداية العصر الأموي. ولذلك كان لأهل البيت نظام الإمامة يوصي بها الإمام منهم من يليه من العلويين سرا.

ثم وصلت الإمامة إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، من سلالة علي رضي الله عنه، وظل على الإمامة زمنا طويلا، وانتشرت خلال فترة إمامته دعوتهم في كثير من الأقاليم. ولما أراد أن يعين وصيه لم يجد كفوفا من العلويين، فأوصى بالإمامة من بعده لمحمد بن علي من بني العباس، ومن بعده لابنه إبراهيم. وحين أدرك إبراهيم هذا أنه مقتول على أيدي الأمويين أوصى بالخلافة إلى أخيه أبي العباس عبد الله المعروف بالسفاح وهو الذي خطط دعوة سرية واكتسب لها أنصارا ثم أعلن أتباعه الثورة من خراسان. واستطاع بفضل الجيش أن ينتزع الخلافة من يد الأمويين بمعونة من الفرس بعد معارك عنيفة قادها كل من أبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال وقحطبة بن شبيب وغيرهم من القواد، حتى انتهى الأمر بقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في الشرق سنة ١٣٢هـ، وأسفر عن إعلان السفاح نفسه خليفة لله على الأرض. ولكنه لم تطل مدة خلافته، فأسرعه المنية. وخلفه أخوه أبو جعفر المنصور، وهو الذي يعتبره التاريخ بمثابة المؤسس الحقيقي للدولة العباسية.

وقد امتد حكم العباسيين ما يقرب من خمسة قرون وربع، وتبوأ عرش الخلافة سبعة وثلاثون خليفة خلال هذه الحقبة التي تعرف بالعصر الذهبي في تاريخ الثقافة الإسلامية والأدب العربي. فقد تطورت الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية، لتأثر هذه الدولة بالحضارات الأجنبية كالفارسية واليونانية. ثم طال الأمد على الدولة وانتزع بعض

أراضيها وتضائل سلطان الخلافة ونفوذها حتى أصبحت وما بقي لها إلا اسمها ورسمها. ثم جاءت الكارثة النهائية على يد هولاءكو التتري الذي أطاح بعرش الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ بعد إبادة جماعية وحشية أوقعها على سكان بغداد وتراثهم.

■ الحياة السياسية في العصر العباسي

استولى العباسيون على الخلافة معتمدين على الفرس في مختلف المجالات والفنون. وقد أطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة، حتى استقلوا بشؤونها واستبدوا بأمورها. كما تمّ ترجمة كتبٍ غير قليلةٍ في الأنظمة الإدارية لبعض الأمم القديمة وممارسة بعض تعاليمها ونظرياتها في إدارة الدولة. غير أن الحياة لم تستكن للخلفاء العباسيين حيث أخذ العلويون يدعون أن العباسيين اغتصبوا الخلافة منهم فيقاوموهم مرّة بالحرب ومرّة أخرى باللسان.

■ الحياة الاجتماعية في العصر العباسي

عاشت طبقات المجتمع العباسي حياة حضارةٍ وثراءٍ وترفٍ. وتمّ الاحتكاك الاجتماعي بين مختلف الشعوب والأجناس، كما ركضت العصبية العربية وعلا صوت الشعوبية الإسلامية. ومن مميزات الحياة الاجتماعية في العصر العباسي حرّية الفكر والاعتقاد وشيوع الخلاعة والجون والإلحاد والبطالة. وكذلك التأنق في الطعام واللباس، والتنافس في البناء والرياش. وأصبح الخلفاء مع وزرائهم وقوادهم يشاركون العامة في شؤون الحياة. كما أفرطوا في إكرام النبلاء من الشعراء والعلماء والمفكرين وسائر أرباب الصناعات والفنون. ولا ريب أن لهذه المميزات كلها أثرًا بيّنًا على طبيعة الأدب العربي وإنتاجاته في هذا العصر.

■ الحياة العلمية في العصر العباسي

شهد العصر العباسي نضوج العلوم العربية والإسلامية التي نشأت في أواخر العصر الأموي وتأصيل فنون أخرى من جديد. وكذلك اصطبغت الدولة العباسية بالحضارة الفارسية كما أخذت أيضا تقتبس من تراث اليونان في الحضارة والعلوم، كعلم

الطب والفلسفة والمنطق والفلك والجغرافية وغير ذلك. واستعان الخلفاء بالخبراء من العرب والأجانب في نقل غير قليلٍ من كتب هذه العلوم من اليونانية إلى العربية تحت إشراف دار الحكمة التي أنشأها الخليفة العباسي المأمون في بغداد واستوظف فيها نخبة من المترجمين واللغويين والمفكرين وغيرهم. وقد سجّل التاريخ ما لهذا النشاط من الأثر الكبير للإسلام والمسلمين سلبيًا وإيجابًا.

■ أغراض الشعر في العصر العباسي

لم يقف الشعراء العباسيون عند تقليد أغراض القدماء من الشعراء فحسب. فقد كانت الحضارة الجديدة التي اكتسبوها والإزدهار العلمي والرقىّ الفكري وحياة الترف والحرية المطلقة مما أدّى إلى كثرة الجون في شعرهم ودفعهم إلى العلوّ في موضوعات الشعر القديمة كالمدح والرثاء والغزل والوصف وغيرها. وكذلك ابتكر الشعراء الزهد والشعر التعليمي وغيرهما من الموضوعات الجديدة في الشعر. ومن أبرز أغراض الشعر في العصر العباسي ما يلي:

أ/ الفخر

كان الفخر من أغراض الشعر العربي منذ الجاهلية، ودأبه الفخر بالآباء والقبائل وبالفضائل. ثم أصبح يستعمل في صدر الإسلام للاعتراف بنعمة الإسلام والانتصار على العدو. كما مثل جزءًا من نقائض العصر الأموي. أما في هذا العصر فقد سُجّلت فيه العصبية بين العرب والعجم، وبين أرباب العلوم كنحاة الكوفة ونحاة البصرة، وبين مختلف المذاهب الفقهية وهكذا. ومثاله قول بشر بن برد يفتخر بالعجم فيقول:

نُبِّت قوما بهم جنة	يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهد	ليعرفني أنا أنف الكرم
وبيضاء يضحك ماء الشبا	ب في وجهها لك إذ تبتسم
نمت في الكرام بني عامرٍ	فروعِي، وأصلي قريش العجم

ب/ المدح

هذا الغرض قديم منذ الجاهلية، ولكن الجاهليين لا يمدحون الرجل إلا بما يستحقه. والأمر ليس كذلك في العصر العباسي، حيث اتخذ الخلفاء وغيرهم المدح وسيلة للإشادة بسياستهم، وجعلوا يجزلون العطايا المغربية للشعراء. كما تفنن بعض الشعراء في إبداع المعاني الجديدة في المديح حتى بلغ بعضهم إلى ما يؤدي إلى الشرك بالله! كقول علي بن حبة في مدح أبي دلف العجلي:

أنت الذي تُنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرفٍ إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وأجمال

ج/ الوصف

وقد تنوع الوصف وتشكل بأشكال شتى من وصف القصور والطبيعة والخمر وغير ذلك. وكانت هذه المميزات موجودة في العصور الماضية، ولكنها ازدهرت وتطورت في هذا العصر إلى حد الاستقلال بفضل ما فيه من الحضارة والتطور الاجتماعي. ومثاله قول أبي نواس في وصف الخمر:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجرٌ مسته سراء
دارت على فتية دان الزمان بهم فما تصيبهم إلا بما شاؤوا
لتلك أبكي ولا أبكي لمنزلة كانت تحلّ بها هند وأسماء

د/ الغزل

جرت عادة شعراء العرب على ذكر المرأة في مقدمة القصيدة منذ الجاهلية. وكان الغزل في العصر الأموي إما الصريح وإما العفيف. ولكنه تطور في العصر العباسي وأصبح الشعراء يتغزلون بالمدكر! وهذا نوعٌ لم تعرفه العرب من قبل، وإنما صدر في العصر العباسي من بعض أبناء الموالي وغيرهم. وأشدّ من أذاعه أبو نواس، ومن غلامياته قوله:

غزالٌ به فترٌ وفيه تانت وأحسن مخلوقٍ وأجمل من مشا
أرى لك وجهها فتت القلب حسنه له ينجلي كربى وقد ينجلي الغشا

أتقتلني إن قلت إنني أحبه ولا ذنب لي إن كان في الناس قد فشى
هـ / الرثاء

الرثاء غرض من الأغراض التقليدية في الشعر العربي منذ الجاهلية، إلا أن الشعراء
العباسيين أعمقوا فيه وأدخلوا في رثائهم أشياء تخالف الشرع. كقول ابن الرومي وهو يرثي
ولده:

وما سرّني أن بعثته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد
وما بعته طوعاً ولكن غصبتُهُ وليس علي ظلم الحوادث من معد
و / الهجاء

استرسل الشعراء العباسيون في الهجاء وعبثوا فيه. فأكثروا من السخرية بالناس
والازدراء بهم والنيل من أعراضهم. وقد كان منهم من يهجو الناس من غير دليل، كما كان
بشار بن برد يفعل هو ومسلم بن الوليد، وقد هجا الأخير دُعبل بن عليّ الحُداعي
الشاعر فقال:

أما الهجاء فدقّ عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرضٌ عززت به وأنت ذليل
ز / الزهد

تحوّلت حركة الوعظ التي انتشرت في مساجد الكوفة والبصرة وبغداد في العصر
العباسي إلى نوع جديد من الشعر يقال له الزهد، وهو كالرد على الزنادقة والخلعاء. وتضم
الزهديات الزجر عن الدنيا وما فيها من الشهوات والملذات والدعوة إلى التمسك بالدين
والفضائل. ومثاله قول أبي العتاهية:

فلا تعشق الدنيا أخي فإنه يرى عاشق الدنيا بجهد بلاء
حلاوتها ممزوجة بمرارة وراحتها ممزوجة بفناء

ح / الشعر التعليمي

ظهرت بداية الشعر التعليمي كنوعٍ من أنواع الشعر في العصر العباسي. وهو عبارة عن قصائد تضمُّ حقائق ومعلومات في فن أو علم معيّن، ليسهل حفظها واستحضارها. وقد اتُّخذ وسيلة من وسائل التدريس. ومثاله قول ابن أبان في أرجوزة له وهو يشرح فيها أحكام الصوم والصلاة:

هذا كتاب الصوم وهو جامعٌ لكل ما قامت به الشرائع
من ذلك المنزل في القرآن فضلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي من عهده المتبع المرضي

ط/ الحكم والأمثال

وقد شاع بين الشعراء العباسيين تقييد الحكم والأمثال في قصائدهم، وكان أكثر الشعراء يمارسون ذلك محاولة لإظهار عبقريته ومدى تجربته في الحياة. ومثاله قول ابن الرومي:

عدُّوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنّ من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يحول من الطعام أو الشراب

■ لفظ الشعر في العصر العباسي وأسلوبه ومعانيه

وقد نهض الشعر في العصر العباسي نهضة كبيرة وحصل الشعراء على رعاية فائقة من الخلفاء والعظماء ونالوا عطاياهم، وعقدت لهم مواسم وجلسات للاستماع إلى قصائدهم، وتقدير مواهبهم ومنحهم الجوائز حسب إجادتهم. وارتفعت قيمة الشعر ومرتبة الشعراء حتى شارك بعض الوزراء في الشعر. وبلغ الشعر في العصر العباسي ذروة نهضته في الكوفة والبصرة وقرى الجزيرة وشرق الشام، وظهر أثر الحضارة وسلامة الذوق في اختيار ألفاظ الشعر وأسلوبه وفي تأدية معانيه.

وقد هجر الشعراء العباسيون الألفاظ الغريبة الصعبة إلى الألفاظ المألوفة والسهلة، وجنحوا إلى عدوثة التركيب، والابتداء بذكر القصور والخمور مكان البكاء بالأطلال. كما

أدخلوا بعض الألفاظ الأعجمية في الشعر. واستعمل الشعراء الأساليب الكلامية وبعض التشبيهات المحاكاة من القرآن والحديث والشعر القديم مما سمّوه بديعا.

أما من حيث المعنى فقد راعوا دقة التصوير، والتخيالات البديعية، والتشبيهات والاستعارات. وامتازت المعاني بالروح الفلسفي والقياس المنطقي. واهتموا بالزينة اللفظية وغالى بعضهم في ذلك كأبي تمام، واخترع من المعاني ما لم تنطق به العرب من قبل. وكذلك اخترع الشعراء أساليب جديدة من الشعر كالشعر الخطابي والشعر الرمزي وغير ذلك.

■ أوزان الشعر وقوافيه في العصر العباسي

وبالنسبة للأوزان فقد لجأ كثير من الشعراء في العصر العباسي إلى الأوزان الخفيفة القصيرة لنظم قصائدهم، وذلك لشيوع الغناء والمغنين وتطوّر الأساليب الموسيقية. وكذلك استحدثوا الأوزان الجديدة كالمستطيل والممتد والمتوافر والموليا وغيرها. أما في مجال القوافي فقد ظهرت أنواع جديدة من القوافي كالمُسَمِّط والمزدوجات إلى جانب القافية التقليدية.

■ مشاهير الشعراء في العصر العباسي

أ/ أبو نواس

هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي مولاهم. يكنى بأبي نواس. ولد بقرية من قرى الأهواز، ونُقِلَ إلى البصرة وهو صبيٌّ فنشأ بها، ثم خرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، ثم بغداد وبها استقر. وكان أبوه من جنود مروان الحمار؛ آخر خلفاء بني أمية في الشرق. ولما توفي لم يجد أبو نواس من يعوله، فالتجأ إلى عطارٍ ومكث عنده يشتغل زمناً طويلاً. وكان أبو نواسٍ مولعا بالعلم مشغوفا بالأشعار والأخبار، وكان كثيراً ما يغشى أندية العلماء، ويحضر حوار الشعراء. وقد التقى وابلة بن الحباب، واستفاد منه. ولما استوطن بغداد، صحب الشعراء ولازم مجالسهم، ودرس عند العلماء حتى أصبح من أشهر أهل عصره شعراً وأنبغهم علماً.

اتصل أبو نواس بالخليفة العباسي هارون الرشيد، فمدحه ووجد عنده مكانة. ثم انقطع بعد ذلك إلى محمد الأمين، فنادمه ومدحه. ثم استجرم له فسجنه مدة طويلة. وتوفي

في بغداد سنة ١٩٩٩هـ. وكان أبو نواس جميل الصورة، حلو الحديث، فصيح اللسان، عالماً بلسان العرب وأسرار بلاغته، كثير الهزل والمجون، متهمًا بالزندقة وجامعاً لصفات النديم المرح. وكان شاعراً مكثراً، سهل التركيب، متين الأسلوب وبارعاً في وصف الخمر. يعد أول من نَجح للشعر طريقتَه الحضريَّة وأخرجه من اللهجة البدوية. وله مع معاصريه من الشعراء مناقضات. ومن شعره الأبيات الآتية في التوبة في أواخر حياته:

أيا من ليس لي منه مجير بعفوك من عذابك أستجير
أنا العبد المُقرَّر بكلِّ ذنب وأنت السيد المولى الغفور
فإن عذبتني فبسوء فعلي وإن تغفر فأنت به جدير
أفرَّ إليك منك وأين إلا إليك يفرّ منك المستجير

وله في الفخر ما يلي:

ومستعبد إخوانه بثرائه لبست له كبرا أبر على الكبر
إذا ضمني يوما وإياه محفل رأى جانبي وعرا يزيد على الوعر
أخالفه في شكله وأجره على المنطق المنزور والنظر الشزر
وقد زادني تيبها على الناس أني أرايَ أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدي لساني لجابة إلى أحد حتى أغيب في قبري
فلا يطمعن في ذاك مني طامع ولا صاحب التاج المحجب في القصر
فلو لم أرث فخرا لكانت صيانتني فمي عن سؤال الناس حسبي من الفخر
ومن خمرياته ما يلي:

ودار ندامي عطَّلوها وأدلجوا بها أثرٌ منهم جديد ودارس
مساحب من جرّ الزقاق على الثرى وأضغاث ربحان جنِّيَّ ويابس
حبست بها صحي فجدد عهدهم وإني على أمثال تلك لحابس
تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بألوان التصاوير فارس

قوارثها كسرى، وفي جنباتها
مهأ تدرّبها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها
وللماء ما دارت عليه القلانس

ب / البحتري

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد الطائي، الشاعر المطبوع. ولد سنة ٢٠٦ هـ بمنبج، وهي قرية بين حلب والفرات، فغلبت عليه فصاحة الأعراب. وخرج إلى العراق، فلزم - وهو فتى - أبا تمام، وعليه تخرّج، واقتبس طريقتة في البديع بغير إفراط. وأقام في العراق في خدمة المتوكل والفتح بن حاقان محترماً عندهما إلى أن قُتلا في مجلسٍ حضره. فرجع إلى منبج، ومات بها سنة ٢٨٤ هـ.

وكان على فضله وفصاحته من أبخل خلق الله وأبغضهم، وأوسخهم ثوباً، وأكثرهم فخراً بشعره حتى كان إذا أعجبه شعره يقول: "أحسنت والله!" ويقول للمستمعين: "ويحكم! ما لكم لا تقولون أحسنت؟" ولنشأته البدوية ابتعد شعره عن مذاهب الحضريين وتعمّقهم وفلسفتهم. وكان شاعراً مكثراً، حلو اللفظ، حسن المديح والعتاب وكان شعره كسلاسل الذهب. وكان متكسباً بشعره إلى درجة الاحتراف. ويعد البحتري ثالث الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: (المتنبي، وأبو تمام، والبحتري). قيل لأبي العلاء المعري: "أي الثلاثة أشعر؟" فقال: "المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري". ومن شعره ما مدح به المتوكل:

خليفة يرتجى ويخشى
كلتا يديه تفيض سحا
فليس يأتي اليمين شيئاً
فالمملك فيه وفي بنيه
كأنه جنة ونار
كأنه ضرة تغار
إلا أت مثله اليسار
ما اختلف الليل والنهار

وقال يصف الربيع:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً
وقد نبّه النيروز في غسق الدجى
من الحسن حتى كاد أن يتكلّم
أوائل وردٍ كنّ بالأمس نُوماً

يُثُّ حَدِيثًا كَانَ قَبْلَ مَكْتَمًا
عَلَيْهِ كَمَا نَشَرْتُ وَشَيْئًا مُنَمَّمًا
وَكَانَ قَدَى لِّلْعَيْنِ إِذْ كَانَ مُحْرَمًا
يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الْأَحْبَةِ نَعْمًا

يُفْتَقِّهَا بَرْدَ النَّدَى فَكَأَنَّهُ
فَمَنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبِيعَ لِبَاسِهِ
أَحْلَ فَأَبْدَى لِلْعَيُونِ بِشَاشَةٍ
وَرَقَّ نَسِيمَ الرِّيحِ حَتَّى حَسِبْتَهُ

ج/ ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد العباسي. الشاعر المبدع وخليفة يوم وليلة! أشعر بني هاشم، وأبرع الناس في الأوصاف والتشبيهات. ولد سنة ٢٤٨هـ في بيت الملك ومأوى الخلافة. وترى تربية النعم والجلالة. وأخذ عن نبلاء عصره جميعهم تقريباً في اللغة والأدب وكل علم يعرفه أئمة عصره وفلاسفة دهره. وشبَّ نبيل النفس، دقيق الحس وقوي الشعور. فأحبه وزراء الدولة وشيوخ كتّابها.

ولما كان عهد المقتدر حدثت اضطرابات سياسية يطول شرحها، وهي التي أسفرت بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز بالخلافة بعد أن اجتمعت كلمة الأمراء والقضاة والوجهاء على ذلك. ولكنه لم يمكث خليفة إلا يوماً أو بعض يوم حيث هجم عليه أنصار المقتدر فخلعوه وقتلوا غالب من خرج على مولاهم. ثم عاد المقتدر فقبض على الخليفة الجديد وحبسه ثم أخرج فيما بعد ميتاً، وذلك سنة ٢٩٦هـ.

وكان ابن المعتز سهل العبارة في شعره، كثير الاهتمام بالبديع في قوله، وكان أديباً بليغاً مطبوعاً مقتدراً قليل التكلف وصافي الأسلوب. وكان يقول الشعر إرضاءً لنفسه، فسلم من كذب المدح ولؤم الهجاء. وله مؤلفات في فنون الأدب، منها كتاب البديع وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب أشعار الملوك. ومن شعره في وصف الربيع قوله:

حبذا أذار شهراً
ينقص الليل إذا حل
وعلى الأرض اصفرار
وحبذا أذار شهراً
فيه للنور انتشار
ويمتد النهار
واحضرار واحمرار

فكأن الروض وشي
نقشه آس ونسيرين
بالغت فيه التجار
وورد وبهار

د / أبو العتاهية

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي، أطبع أهل زمانه شعراً، وأكثرهم قولاً، وأسهلهم لفظاً، من مقدمي المولدين. وهو أول من فتح للشعراء العباسيين باب الوعظ والتزهيد عن الدنيا بالشعر. ولد بعين التمر سنة ١٣٠هـ، ونشأ بالكوفة. ثم قدم بغداد. ومدح الخليفة المهدي العباسي ونال عنده الشرف. وكان قد أغرم بحب جارية للمهدي اسمها عتبة، فلم يجد إلى رضاها سبيلاً فكان يكثر التغزل فيها.

وكان أبو العتاهية لبق اللسان، مذبذب الرأي وبخيلاً. نطق بالشعر منذ الصغر وترعرع فيه. وقد كان شاعراً غزير البحر، يقول الشعر على سجيته، حتى قال هو عن نفسه: "لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت". وكان شعره لطيف المعنى، سهل اللفظ وقليل التكلف. وكأين من مرة كان ينظم فيها الشعر فيختلق لشعره أوزاناً جديدة، ولما اعترض عليه بمخالفة العروض ادعى أنه أكبر من العروض!

وقد درس كثيراً من مذاهب الشيعة والمتكلمين والجبرية والزهاد فاخترع من بينها مذهبه الجديد الذي أفضى به إلى العبادة والزهد قولاً ومعيشة. ثم قصر قوله في الزهد نائياً عن الغزل. وقد سجّنه المهدي ليرغمه على قول الشعر. ثم أطلق سراحه بعد أن أجاب طلبه وعاد إلى قول الشعر على عادته الأولى. وبقي في بلاط الملوك إلى أن توفي في عهد المأمون وذلك سنة ٢١١هـ ببغداد وأوصى أن يكتب على قبره:

إن عيشا يكون آخره المو
ت لعيش معجل التنغيص

ومن شعره في الزهد قوله:

ألا إننا كلنا باعد
ومبدؤهم كان من ربهم
وأبي بني آدم خالد
وكل إلى ربه عائد
فيا عجباً كيف يعصى الإله
أم كيف يجهده الجاهد

وفي كل تسكينة شاهد
تدل على أنه واحد

ولله في كل تحريكة
وفي كل شيء له آية

ومن غزلياته قوله في عتبة:

لأن خالقها بالحسن حلاها
ذاك التراب الذي مسته رجلاها

حسنا لا تبتغي حلياً إذا برزت
قامت تمشي فليت الله صبرني

وقال أيضاً:

الله، والقائم المهدي يكفيها
فيها اختياريك للعالم وما فيها

نفسى بشيء من الدنيا معلقة
إني لأياس منها ثم يطمعني

هـ / ابن الرومي

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريح الرومي، الشاعر المشهور وصاحب
النظم العجيب والتوليد الغريب. كان جده من موالي بني العباس. ولد سنة ٢٢١هـ.
وينتمي من ناحية أبيه إلى الروم ومن ناحية أمه إلى الفرس، أما ثقافته فغربية إسلامية. وقد
أضاف إليها كثيراً من الثقافات الأجنبية التي تُظهر أثرها في أدبه. وكان معتكفاً على طلب
العلم والمذاكرة، حتى استقامت له ثقافة واسعة النطاق من نحوٍ ولغةٍ وأدبٍ وطرفٍ من
علوم الطبيعة.

وقد اشتهر ابن الرومي بالنشأوم والغرور والقلق النفسي والشك في الناس. ولم
يكف الناس يلاحظون منه ذلك حتى نغموه، فضاق بهم وأكثر من هجائهم في شعره، وبرع
في تصوير عيوبهم والكشف عن عوراتهم. وقد توفي سنة ٢٨٣هـ من سَمٍ وضعه له أبو
فراس الكاتب بأمر القاسم بن عبيد الله؛ وزير المعتضد لما ضاقت نفسه من هجاء ابن
الرومي له. ويمتاز شعره بالسهولة والوضوح وروعة التصوير والميل إلى وصف الحياة
الاجتماعية والشعبية. ومن شعره قوله:

وأطال فيه فقد أراد هجاءه
عند الورود لما أطال رشاه

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله
لو لم يُقدّر فيه بعد المستقى

وقال في الفخر:

فمتى ما أردت قصار شعر
ومتى ما خطبت مني خطبة
ومتى جاول الرسائل رسلي
كنت ممن يساجل الشعراء
جلّ الخطيب ففاق بي الخطباء
بلّغني بلاغي البلغاء

و/ المتنبي

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي الملقب بالمتنبي الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب العربي. ولد سنة ٣٠٣ هـ بقريّة من ضواحي الكوفة تدعى محلّة كِنْدَة لأبوين فقيرين. اهتم والده بتربيته منذ الصغر، فطاف به على القبائل في البوادي ليتلقى عنها الفصاحة. وأدخله مدرسة بالكوفة، تعلّم فيها مبادئ علوم اللغة العربية والأدب ومذهب الشيعة وشيئاً ما من فنون الفلسفة.

أثمه لؤلؤ والي حمص بادعاء النبوة وسجّنه، ثم أطلق سراحه وأمره بهجران أرضه، ففعل. ومن ثمّ جال في القرى والأمصار يتكسب بشعره. وقد ذاق طعم مشقة الحياة وبؤسها خلال هذه الحقبة من حياته. ثم اتصل بأبي العشائر؛ والي أنطاكية، فقدمه إلى سيف الدولة، فعرف قدره، وقرّبه سيف الدولة. فظلّ ينادمه ولا يفارقه، وأصبح من أجلّ الشعراء الإستقراطيين في بلاط سيف الدولة.

ثم كانت بينه وبين سيف الدولة جفوة، فغضب عليه. فقصد المتنبي كافورا الإخشيدي أمير مصر، راغباً أن ينال عنده ما نال عند سيف الدولة فما نجح، فهجاه. ورحل إلى عضد الدولة بفارس فمدحه، ونال عنده العطايا. وفي أثناء عودته إلى العراق خرج عليه بعض الأعراب، وكان قد هجا بعضهم، فحاول أن يبرء نفسه، ولكن غلامه صاح به قائلاً: "يا سيدي ألسنت قائل":

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قُتِل هو وولده وغلامه وذلك سنة ٣٥٤ هـ.

كان المتنبي شاعراً مطبوعاً، حكيماً، من شعراء المعاني ووفق بين الشعر والفلسفة. ويُعدّ ثالث الثلاثة في الارتفاع والنبوغ في الشعر بعد أبي نواس والبحتري. وتصدّر ترتيب المتكسبين بالشعر في طبقتة. وكان من المكثريين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيتها، ولا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر. وقد نطق بالشعر دون قيدٍ أو تقليدٍ. ويُعدُّ إمام طريقتة في ابتداء الشعر بالحكم والأمثال. وجدّ تعبيره حتى كان شعره مددًا للكتاب والخطاب في العصور اللاحقة. وكان كبير النفس، عالي الهمة، طموحاً إلى المجد وشجاعاً. ومن شعره في الرثاء قوله:

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى	رضوى على أيدي الرجال تسير
خرجوا به ولكل باكٍ حوله	صعقات موسى يوم ذكّ الطور
حتى أتوا جدثا كأن ضريحه	في كل قلب موجد محفور
كفل الثناء له برد حياته	لما انطوى فكأنه منشور
وقال يشكو الزمان:	

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي	شيئاً تُتيمه عين ولا جيد
يا ساقبيّ أحمّر في كؤوسكما	أم في كؤوسكما همّ وتسهيد
أصخرة أنا؟ ما لي لا تحركني	هذي المدام ولا تلك الأغاريد
إذا أردت كُमित اللون صافية	وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبها	أني بما أنا باكٍ منه محسود

ز / أبو العلاء المعري

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان محمد بن سليمان التنوخي القحطاني. شاعرٌ حكيمٌ وفيلسوفٌ قديرٌ. ولد سنة ٣٦٣ هـ بالمعرة. وكان أبوه من الأفاضل، وأديباً ينظم الشعر. أصيب الجدري في صباه ففقد بصره، فأخذ أبوه يلقنه النحو واللغة إلى جانب الدروس التي كان يتلقاها من علماء بلدته. وحاضر حلب أيام ازدهار صناعة العلم بها، ودرس هنالك اللغة والأدب وحفظ كثيراً من أشعار العرب وأخبارهم.

ولما عاد إلى المعرة اشتغل بالتدريس في الشعر وفنون اللغة والأدب، فبرع في ذلك. ثم رحل إلى بغداد أيام أن كانت سوق العلم والثقافة، وقلب الحضارة والإمارة. فعرف قدره، ورفع ذكره وبرع شأنه. وأخذ يؤلف في فنون الفلسفة. وكان نادرة عصره في جودة الحفظ. وكان رقيق القلب سخيًّا. وكان سيِّء الظن بالناس، شاكًّا. كما كان متشائمًا يبغض الدنيا وما في حياتها مما يراه همومًا وآلامًا حتى امتنع عن الزواج، وبقي كذلك خمسًا وأربعين سنة لا يأكل اللحم. وكان قنوعًا متعففًا، له وقف يقوم بأمره، ولا يقبل من أحد شيئًا، ولو تكسب بالمديح، لحصل مالا ودنيا. ومات سنة ٤٤٩ هـ وأوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

وقد دوّن آثاره من الشعر والنثر بنفسه في سقط الزند واللزوميات. ومن كتبه كتاب الأيدي والفصول ورسالة الغفران والفصول والغايات. كما شرح ديوان البحري. ومن شعره ما يلي:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل	عفاف وإقدام وحزم ونائل
أعندي وقد مارست كل خفية	يصدق واشٍ أو يخيب سائل
تعدُّ ذنوبي عند قوم كثيرة	ولا ذنب لي إلا العلى والفوصل
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم	ياخفاء شمسٍ ضوءها متكامل
وإني وإن كنت الأخير زمانه	لأتِ بما لم تستطعه الأوائل
ولي منطلق لم يرض لي كنه منزلي	على أنني بين السماكين نازل
وأغدو ولو أن الصباح صوارم	وأسري ولو أن الظلام جحافل
وإني جوادٌ لم يحل لجامه	ونضري يمانٌ أغفلته الصياقل
وإن كان في لبس الفتى شرفاً له	فما السيف إلا غمدة والحمايل
ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً	تجاهلت حتى ظننتي الناس جاهل
فيا عجباً كم يدعي الفضل ناقصٌ	ووا أسفاً كم يظهر النقص فاضل
ينافس يومي فيّ أمس تشرفاً	وتحسد أسحاري على الأصائل

وطال اعترافي بالزمان وصرفه فلست أبالي من تغول الغوائل

ح / أبو الفراس الحمداني

هو أبو الفراس الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي. رأس الفروسية وابن عم سيف الدولة. ولد بمنج سنة ٣٢٠هـ، ونشأ في بلاط الملوك، وأخذ العلم عن علماء القصر كابن خالويه. كان شجاعاً، أيّ النفس، شاعراً، أديباً وفارساً. وقد أعجب به سيف الدولة، فاصطنعه لنفسه، واصطحبه في غزواته. وكان النصر حليفه في أغلب غزواته. وقد وقع أسيراً في أيدي الروم خلال إحدى الغارات، فسجنوه في القُسطنطينية لمدة أربع سنين، وكان يكتب إلى سيف الدولة قصائد من منفاه عُرفت بالروميّات، وكانت شديدة الرقة وكثيرة الشكوى. وقُتل في ثورة قومية سنة ٣٥٧هـ فور عودته من القُسطنطينية بعد أن تمّ إطلاق سراحه. ويغلب على شعره الشكوى من الأقارب والعتاب. وكان متين الأسلوب في شعره، كثير الفخر بقومه وأصله. وقال في قصيدة أرسلها إلى سيف الدولة يستعطفه:

بمن يثق الإنسان فيمن ينوبه	ومن أين للمرء الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم	ذئابا على أجسادهن ثياب
ولو عرفوني بعض معرفتي بهم	إذا علموا أنني شهدت وغابوا
وما كل فعّال يُجازى بفعله	ولا كل قوّال لدي يُجاب
أنا الجار لا زادي بطيء عليهم	ولا دون مالي في الحوادث باب
ولا أطلب العوراء منهم أصيبتها	ولا عورتي للطالين تصاب
إذا صح ودّ منك فالكل هيّن	وكل الذي فوق التراب تراب

وقال حين سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه في القُسطنطينية:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي	ولا خطرت منك الهموم ببال
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى	تعالّي أقاسمك الهموم تعالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا	تردد في جسم يعدّب بالي
تعالّي تريّ روحاً لديّ ضعيفة	ويسكت محزون ويندب سالي
أيضحك محسوراً وتبكي طليقة	ولكنّ دمعي في الحوادث غالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة	

ط/ بشار بن برد

هو أبو معاذ بشار بن برد بن يرجوخ العُقَيْلي ولاءً. ولد بالبصرة سنة ٩٥هـ مكفوف العينين. ونشأ في بني عُقَيْل متردداً إلى الأعراب المقيمين في بوادي العراق، فشب فصيح اللسان صحيح البيان من اللكنة والخطأ. وبدأ يقول الشعر وهو لا يزال حدثاً. ولما بلغ أشده قصد الحُكَّام يمدحهم، وأطلق لسانه في الهجاء والتعرض للمحصنات وتضلع في المجون. فشكى مرة إلى المهدي، فهدده الخليفة العباسي بالقتل إذا تشبب بمحصنة من جديد. ثم هجا المهدي يقوله:

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
صاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

فأمر به المهدي فضرب بالسوط في البصرة حتى مات، وذلك سنة ١٦٧هـ. وكان بشار ضخماً الجسم، مفرط الطول، من أفبح الناس عمى وأفظعهم منظرًا. وكان متوقفاً الذكاء، حاضر الجواب، بذيء اللسان، كثير المجون، مغموز الدين ومتهماً بالزندقة. وكان جبرياً، شعوبياً. وكان - مع فسقه - مرحاً خفيف الروح وحلو الحديث. وقد أولع به شبان البصرة وخلعاؤها، وافتتن به نساؤها؛ فكن يذهبن إليه وينعمن بحديثه، ويتغنين بشعره. ويُعدُّ بشار رأس المُحدِّثين من الشعراء العباسيين، وأسبقهم إلى المجون البذيء الخارج عن الحد المألوف والغزل الرقيق. وكان شاعراً كثيراً، فقد تناول في شعره جميع الأغراض التقليدية وزاد عليها. وجمع في شعره بين جزالة البدو ورقة الحضرة. ومن شعره في الغزل قوله:

ألا يا ليتني أدري ومن شرّ المنى ليت
أتوفي بالذي قالت كما قلت فأوفيت
فقد أشفى به الحب على الحتف فأشفيت
ولو قد يئست نفسي من البذل لأوديت
وقومٌ زعموا أنّي من الشك تخلّيت

فأقسمت لهم ألا ولكني تجافيت
ولو يتركني الحب لقد صمت وصليت

▪ الكتابة في العصر العباسي

▪ المدخل

كانت ظاهرة الأمية قد فشت بين العرب منذ الجاهلية. ثم احتاجوا إلى تعلّم الكتابة ابتداءً من عصر صدر الإسلام لكتابة القرآن والحديث وغير ذلك من الكتابات. وهكذا ازدادت نسبة أهمية الكتابة بازدياد الحاجة إليها. فاستعملت في العصر الأموي لكتابة الدواوين الحكومية، وإنشاء الرسائل، ورواية الشعر، والتدوين، والتأليف وغير ذلك.

ولما كانت الدولة العباسية باتت الكتابة من فنون الأدب العربي التي ازدهرت في العصر العباسي بحكم استبحار العمران وتوفّر أسباب الثقافة. وتعدّت الكتابة أغراضها التقليدية إلى أعراضٍ جديدةٍ، كالتصنيف والترجمة والمقامات والعهد والشكر والعتاب والتعازي والوصف والإهداء وغير ذلك. وحلّت الكتابة محلّ الخطابة في الإعلام، واستعملت كذلك في تدوين شؤون الإدارة من النفقات والخراج والقضاء والمظالم وغير ذلك.

وهكذا ازدهرت الكتابة تدريجًا وبلغت الغاية في العصر العباسي وقويت لأسبابٍ متعددةٍ، منها كثرة المجيدين للقراءة والكتابة. وكذلك الحاجة إلى كتابة الأشياء المتباينة والترجمة، ودخول الأجانب في الإسلام مع ثقافتهم. كما أن الثقافة الأجنبية ساعدت على نبوغ الكتابة وشدة الحاجة إلى حفظ الحقائق والأنظمة.

▪ موضوعات الكتابة في العصر العباسي

وقد خاضت الكتابة الأدبية في العصر العباسي موضوعاتٍ شتى منها:

أ/ الأعمال الديوانية من مثل المنشورات السياسية وكتابة ولاية العهد وغيرها.

ب/ تأييد بعض المذاهب السياسية والدينية.

- ج/ الحثُّ على التمسُّك بالآداب الشريفة والأخلاق الفاضلة.
- د/ القصص الخيالية والحكايات على ألسنة الدواب وغير ذلك.
- هـ/ تفضيل بعض الطوائف على بعض.
- و/ النصيحة أو الإرشاد من أستاذ صناعةٍ لتلاميذه أو من أبٍ لابنه.
- ز/ الردُّ على مقالة أو تأييد حجة.
- مميزات الكتابة في العصر العباسي
- ومن أبرز مميزات الكتابة في هذا العصر ما يلي:
- أ/ اختراع المقدمات في أوائل الرسائل.
- ب/ تنوع أسلوب المقدمات بعضها عن بعض.
- ج/ سهولة العبارة وجودة وضعها.
- د/ الغلوُّ في طرقي الإيجاز والإطناب على حسب مقتضى المقامات.
- هـ/ دقة المعاني واستخدام العلم والفلسفة والمنطق لاستخراج البراهين والنتائج في سبيل الإقناع.

■ طائفة من كُتَّاب العصر العباسي

أ/ ابن المُقَفَّع

هو أبو محمد عبد الله المعروف بابن المقفع الفارسي. أحد فحول البلاغة وثاني الاثنيين في صناعة الإنشاء. ولد سنة ١٠٦ هـ لأب مجوسي اسمه دازَوِيَه، فسَمَّاه رُوْزْبَةَ. وكان لتأديب أبيه له أعظم أثرٍ في تربيته وتَهْنِئته لأن يصير من أكبر كتاب العرب في عصره. وقد نشأ بالبصرة وهي يومئذ من أوسع ميادين العلم في العصر العباسي؛ تزدهر فيها الثقافة من جميع الفنون، كما كانت مليئة بالتراث الأدبي والأدباء والشعراء وغيرهم من أرباب الفنون. فخالط العرب واغتتم الفصاحة والبيان حتى عُدَّ من نضاج العقل.

اتصل بالأمويين شيئاً قليلاً. ثم لازم عيسى بن علي؛ عمَّ الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور كاتباً له أيام ولايته على كَرْمَانَ، ولديه أسلم، ثم تسمَّى عبد الله. وجالس أخوي

عيسى بعده وترجم لأبي جعفر المنصور كُتِبَ من الفارسية واليونانية إلى العربية. وظلّ ابن المقفع مع أعمام الخليفة أبي جعفر المنصور إلى أن أحرقه بالنار سفيان بن معاوية المهلبى والى البصرة لاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام بترجمة كتب الزنادقة إلى العربية. وذلك سنة ١٤٢هـ.

ومما يُذكر أنه لم يكن أسلم إلا ابتغاء عرض الدنيا، وليتقرب إلى مواليه العباسيين، وأنه كان على المجوسية عقيدة وعلى العلوية سياسة، متظاهراً صداقته لبني العباس. ومع أنه قُتِل في مقتبل العمر فقد ترك تراثاً جماً في العلم والفلسفة والتاريخ، مما ترجمه من الفارسية واليونانية زيادة على ثمرته العقلية. فله في التاريخ التاج وغيره. وفي الفلسفة أنالوطيقا وغيره. وألف في فلسفة الأخلاق الأدب الصغير والأدب الكبير. وألف في الأدب كليلة ودمنة.

وكان له ذكاء غير عاديّ. وله فضل نقل كثيرٍ من أدب الفرس إلى اللغة العربية. كما مهّد للناس طرق التراسل، ورفع لهم معالم صناعة الإنشاء. وكان حكيماً، فصيح المنطق، مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة. وكان قليل الاختلاط إلا بمن هو على شاكلته، كثير الوفاء لأصحابه. ومن أقواله في رسالة الدرّة اليتيمة ما يلي:

١. منازل الناس

أبذل لصديقك دمك ومالك. ولمعرفتك رفدك وحفرك. وللعامة بشرك وتحنّك ولعدوك عدلك. واضنن بدينك وعرضك عن كل واحد.

٢. مخالطة الصديق للعدوّ

إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك. فإنّما هو أحد الرجلين: إن كان رجلاً من الإخوان الثقة فانفع موطنه لك أقربها من عدوك، لشّرّ يكفّه عنك، وعورة يسترها منك، وغائبه يطلع إليها. وإن كان من غير خاصة إخوانك فبأيّ حقّ تقطعه عن الناس وتكلفه الا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى؟.

٣. أعظم الأصدقاء

إني مخبرك عن صاحبٍ كان أعظم الناس في عيني. وكان رأس ما أعظمه عندي صغر الدنيا في عينيه. كان خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكتر إذا وجد. وكان خارجاً عن سلطان لسانه، فلا يتكلم فيما لا يعلم، ولا يماري فيما يعلم. وكان خارجاً عن سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقةٍ بمنفعة. وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بدُّ القائلين. وكان ضعيفاً مستضعفاً فإذا جدَّ الجدُّ فهو الليث عاديّاً، وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مرأى، ولا يُدلي بحجةٍ حتى يجد قاضياً فهمّاً، وشهوداً عدولاً. وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم عذره. وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير إلا من يرجو عنده النصيحة. وكان لا يتبرّم ولا يسخط ولا يشتهي. ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي، ولا يخصُّ نفسه دون إخوانه بشيءٍ من اهتمامه وحيلته وقوته. فعليك بهذه الأخلاق إن أظقت ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خيرٌ من ترك الجميع.

٤. جوابٌ على رسالة صديق

أما بعد، فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك، وصلاح من قبلك. وفي الذي ذكرت من ذلك نعمةٌ مجللةٌ عظيمةٌ، يُحمد عليها المنعم المتفضل الحمود. ونسأله أن يلهيها. وإياك من شكره وذكره بما فيه مزيدها وتأدية حَقِّها. وسألت أن أكتب إليك بخبرنا، ونحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حالٍ لو أظنبت في ذكرها لم يكن في ذلك أحصاءٌ للنعمة، ولا اعترافٌ بكنهه الحق. فنرغب للذي تزداد نعمه علينا في كل يومٍ وليلةٍ تظاهراً أن لا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً. وأن يرزقنا من كل نعمةٍ كفاءها من المعرفة بفضله فيها والعمل في أداء حَقِّها إنه ولي قدير.

ب/ ابن العميد

هو أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد. كاتب المشرق ووزير دولة البويهيين وصدر وزرائهم. فارسي الأصل، ولد سنة ٢٩٧هـ لأبٍ مترسِّل يتولَّى الكتابة لنوح بن نصر الساماني؛ ملك بخارى. فأنشأ نجله على الأدب ودربه على الكتابة، وغذاه بالعلوم

العقلية واللسانية. فبرع في الحكمة والنجوم، ونبغ في الأدب وترعرع في الكتابة. ولما بلغ أشده واستوى غادر بخارى إلى بلاد الجبال، وتولّى وزارة ركن دولة آل بويه. فساس دولته أجدد سياسة، واضطلع بأعباء الوزارة. وقد انتعجه الشعراء وقصده العلماء لكرمه. وظلّ على ذلك إلى وفاته سنة ٣٦٠هـ من داءٍ عيائٍ عانى منه زمنًا طويلاً.

يُعدُّ ابن العميد أول من فتح باب تلبيس الرسائل بالبديعيات والسجع. وقد استحدث أسلوبًا جديدًا متناسب الفقر، أنيق الديباجة ومقتبسًا من القرآن نورًا. وبذلك حمل لواء عصره في الكتابة. وكان أقلّ كتاب عصره التزامًا للمسجوع، وأقربهم للمطبوع. وأكثرهم تضمينًا للشعر، وتلميحًا للأمثال في كتاباته. وله رسائل ومقالات عديدة. ومنها ما يلي:

كتابي إليك وأنا بحال لو لم ينقصها الشوق إليك، ولم يرتق صفوها النزوع نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة، وأعددت خطي فيها من النعم الجليلة. فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ونعمة تامة. وحظيت منها في جسمي بصلاح، وفي سعيي بنجاح. لكن ما بقي أن يصفو لي عيشي، مع بعدي عنك، وخلوّ ذراعي خلوي منك. ولا يسوغ لي مطعمٌ ومشربٌ مع انفرادي عنك، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزءٌ من نفسي وناظمٌ لشملي أنسي وقد حُرمت رؤيتك وعُدمت مشاهدتك؟ وهل تسكن نفسٌ معيشة ذاك الانقسام؟ وهل ينفع إنس بيت بلا نظام؟ وقد قرأت كتابك جعلني الله فداءك. فامتألت سرورًا بملاحظة خطك، وتأملت تصرفك في لفظك. وما أقرظهما! فكل خصالك مقرظ عندي. وما أمدحهما! فكل أمرك ممدوحٌ في ضميري وعقدي. وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقدير فيك. فإن كان ذلك كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري.

ج/ الجاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ. ولد سنة ١٥٩هـ بالبصرة في عائلة فقيرة. وأكب على التحصيل، فأخذ عن الجهابذة من أهل البصرة كالأصمعي وأبي عبيد. وتخرّج على النظام في عقائد المعتزلة. وأغرّم بالمطالعة إغرامًا شديدًا، فلم يقع في يده

كتاب إلا استتم قراءته، واستوعب مادته. وكان يستأجر حانات الورّاقين، فبييت فيها ويعتكف على قراءة ما فيها من الكتب. قضى الجاحظ أكثر حياته في البصرة يؤلف، ثم كان يزور بغداد في عهد الخليفين المأمون والمعتصم. أصيب بالفالج النصفي في آخر حياته، وظلت به العلة حتى مات سنة ٢٥٥هـ.

وكان أبو عثمان دميمًا. وكانت به دُعاة ومجانة واستخفاف بالعادات، كما كان حكيمًا وحريصًا على اغتنام الوقت. وكان قوي الحجة وبعيد النظر. وكان دائرة معارف حية. وكان معتزليًا. وكان كثير التأليف، له من المؤلفات كتاب البيان والتبيين وكتاب البخلاء وكتاب الحيوان وغيرها من المؤلفات التي تشهد على نبوغه وبراعته في فنون مختلفة. وقال يعاتب صديقًا:

والله يا قُليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة وروحي بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة، وماددتك حبل المصارمة، وأرجو الله أن يدل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنف القلي راغم. فقد طال العهد بالاجتماع، حتى كدنا نتناكر عند اللقاء.

د / أحمد بن يوسف

هو أحمد بن يوسف، وزير المأمون و كاتب الدولة العباسية. ويقال إن أصل آبائه من قبط مصر، وكانوا كتابًا لبني العباس، فنشأ أحمد في بيت العلم والأدب. وشبَّ على الكتابة. وكان من أبلغ الكتاب وأشهر الشعراء في زمن الخليفة المأمون العباسي. وقد أعدَّ له كتبًا بليغة، وجمعًا غفيرًا من الرسائل الديوانية والإخوانية. وكانت طريقتة في الكتابة تميل إلى التوسع في المعاني، والأساليب، والعبارات، وجزالة الألفاظ، وتطويل الرسائل السلطانية. وكان يتولى ديوان الرسائل للخليفة المأمون العباسي أكثر أيامه. ومات سنة ٢١٣هـ. وقال يهنئ بمولود:

أما بعد، فليس من أمرٍ يجعل الله لك فيه السرور إلا كنت به بهجًا، اعتدُّ فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليَّ من حَقِّك، وعرَّفني من جميع رأيك، فزادك الله خيرًا، وأدام إحسانه إليك. وقد بلغني أن الله وهب لك غلامًا سرّيًا، أجمل صورته، وأتمَّ خلقه،

وأحسن فيه البلاء عندك. فاشتد سروري بذلك. وأكثر حمد الله عليه. فبارك الله فيه،
وجعله باراً تقيّاً، يسد عضدك، ويكثر عددك، ويقر عينك.

KKKKKKKKKK

الفصل الخامس الأدب الأندلسي

■ البيئة الطبيعية في الأندلس

تقع الأندلس في الجنوب الغربي من قارة أوروبا. وتمثل الآن دولتي إسبانيا
والبرتغال الأروبيتين الواقعتين في غرب القارة العجوز. ويفصلها عن القارة الأفريقية
مضيق جبل طارق. وأطلق العرب عليها اسم الجزيرة لإحاطة الماء بها من أكثر جهاتها؛ فقد

كانت تجري في غصونها أنهار كثيرة يصب بعضها غربا إلى المحيط الأطلنطي، وبعضها يصب شرقاً إلى بحر الروم.

وتتمتع بلاد الأندلس بجو معتدل. كما أن تربتها خصبة، لا يوجد فيها فقر ولا صحارى، بل معظمها حقول خضراء ورياضٌ باسمّة، وأنهارٌ جارئة. فهي خضراء، تتخللها الأنهار وتزيئها المياه. وقد كانت الأندلس ولا تزال من أجمل بقاع الأرض وأنضرها، مما تشجّع روعته الخيال ويبعث على تذوق الجمال. ومما يصدّق هذه الأوصاف الجميلة قول أحد شعرائها ابن خفاجة حين يقول في وصفها:

يا أهل أندلسٍ لله دُرُكُم ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجار
ما جنة الخلد إلا في بلادكم ولو تُخَيَّرت هذي كنت أختار

■ الفتح العربي للأندلس

يبدو من المصادر التاريخية أن العرب المسلمين بدؤوا يفكّرون في فتح بلاد الأندلس منذ أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، حيث توجه إليها عقبة بن نافع رضي الله عنه من القيروان. وبقي جيوش العرب المسلمين يقاتلون البربر بعد موت عقبة إلى أن ولي موسى بن نصير على أفريقيا، فأرسل مولاه طارق بن زياد لفتح بلاد الأندلس. وفي سنة ٩٢ هـ سار طارق بجيش يحتوي على خمسة آلاف رجل من العرب وسبعة آلاف من البربر نحو الأندلس ونزل بصخرة سميت فيما بعد بجبل طارق، ثم اجتاز بحر الزقاق الضيق بمساعدة جادة من يولييان؛ حاكم سبتة، ودخل شبه جزيرة إيبيريا، وما زال يقاتلهم حتى هزمهم وقتل ملكهم لُزريق. ثم واصل السير، فإذا به على نهر وادي بكة حيث واجه جيوش القوط بقيادة رُودريك وهزمهم، ثم استولى على غرناطة. ولما قدم موسى بن نصير واصل الفتوحات، ففتح ما بقي من الأقاليم، على رأسها كاستيل وبرشلونة وغيرهما. ومنذ ذلك الحين دانت بلاد الأندلس للمسلمين واستولوا عليها شيئاً بعد آخر.

وما لبث جيوش المسلمين أن واصلوا فتوحاتهم محاولين فتح بواقي أقاليم أوروبا، فعبروا جبال البرانس الفاصلة بين فرنسَا وإسبانيا جنوبًا، ولكن النصر لم يكن حليفهم هذه المرة فاضطروا إلى الانسحاب من فرنسَا والعودة إلى الأندلس.

ولما استقر الحكم للمسلمين هاجر إلى الأندلس كثير من العرب والبربر واختلطوا بسكان البلاد الأصليين كما أسلم جمع غفير من مسيحي البلاد وبهودها واندمج بعضهم إلى بعض بالمصاهرة وغيرها. وتولّى الحكم في الأندلس بعد الفتح ولايةٌ تابعون لحكم بني أمية حتى سقطت دولتهم في الشرق عام ١٣٢هـ. وفرّ إلى الأندلس عبد الرحمن الداخل فأسس دولة جديدة لبني أمية عام ١٣٨هـ، وجعل مدينة قرطبة عاصمة حكمه، فأصبحت من أزهى قصور الحضارة الإسلامية في ذلك العهد. وتعاقد على عرش الحكم من ذريته تسعة عشر خليفة خلال قرنين وأربع وثمانين سنة قبل أن يصيب حكمهم داء الأمم. ثم انقسمت البلاد إلى إمارات ودويلات وسمّي حكامها ملوك الطوائف. ثم تسرّب إلى الأمة فساد وبغي في الأرض وحب الدنيا وكرهية الموت والمادية وغير ذلك من أسباب الضعف، فتم استغلال ذلك من قبل العدو. وفي أواخر المطاف تغلب الفرنجة المسيحيون على العرب بعد إبادة جماعية وسلسلة من الهجمات الوحشية وأخرجوهم من البلاد سنة ٨٩٧هـ.

وبعد أن أصبحت الأندلس في يد المسيحيين اضطهدوا من بقي من المسلمين اضطهادًا كبيرًا، وطردوهم من إسبانيا. ثم جمعوا معظم كتب العرب المسلمين التي تحمل ذخائر ثقافة العالم الإسلامي وحضارته الإسبانية في ذلك الحين وأحرقوها في احتفالات جماعية. وبذلك انتهى حكم العرب المسلمين في الأندلس وطويت الثقافة الإسلامية الإسبانية في سجل التاريخ الهالك بعد أن كانت شمسًا أضاءت أوروبا لنحو ثمانية قرون.

■ الحياة الاجتماعية في الأندلس

لما أسلم أهل الأندلس وجدوا في الإسلام من الحرية ومكارم الأخلاق والسكينة والدين ونظام الحياة الشامل والفضائل ما فاتهم أثناء حكم زعمائهم السابقين. فتمّ

الاندماج بينهم وبين العرب المسلمين عن طريق الزواج والمصاهرة والتجارة وغيرها من العلاقات الاجتماعية. وبذلك نشأ جيلٌ جديدٌ متكوّن من الجيل العربي والأوروبي والبربري. وكوّن شعباً واحداً ممتازاً. فهو جيلٌ عربيٌّ في الغرب، يجري عليه عروق الدم العربي ويتصّف بصفات العرب من غيرة وكرامة. كما اكتسب صفات الجيل الأندلسي من دقّة الإدراك، وسعة الخيال، وقوة الفكر. وأخذ كل طرفٍ يحاكي عادات الطرف الآخر فحدث التمازج والتأثر والتأثير نتيجة هذا الاحتكاك. وبهذا كان هذا الشعب الجديد لا شرقياً صرفاً ولا غربياً بحتاً. وامتاز في كثير من صفاته وأخلاقه عن أهل الشرق من المسلمين.

■ الحياة الثقافية في الأندلس

كانت الثقافة اللاتينية هي السائدة في بلاد الأندلس قبل الفتح العربي، ثم بدأت الثقافة العربية تتسرب على البلاد بعد دخول الإسلام. فأصبحت الثقافة في الأندلس نسخة كارثونية لثقافة المشرق العربي في بغداد في العلم والأدب والدين وسائر فنون الثقافة. وذاعت هذه الثقافة حتى سيطرت على جميع أفراد سكان الأندلس. وبذلك أصبحت أوروبا مدينة للعرب بنهضة الإسلام الزاهية التي وصل إليها عن طريقي البحث والتنقيب في العلم والثقافة.

وعلى الرغم من تأثر أدباء الأندلس بأدب المشرق العربي واقتباسهم الكثير من وسائل تفكير المشاركة، إلا أن أدبهم يتميز بملامح خاصة لطبيعة البيئة المحيطة بهم. ولذا كثر في أدبهم تصوير حياة الأندلس وطبيعتها على نمطٍ لم يكن معروفاً في المشرق.

■ الأدب العربي في الأندلس

■ مظاهر نهضة الأدب الأندلسي

عندما استقرت الأمور للعرب في الأندلس وجّهوا عنايتهم لنشر العلوم والأدب، وكانت الأندلس مورداً يغشاها أبناء أوروبا. كما كانت معبراً للحضارة الإسلامية. ومن

الطبيعي أن تأثر هذه العناصر على نهضة الأدب الأندلسي. فتمّ تقدير مقام الأدب وجماله، وكادت الأندلس تنافس المشرق العربي في الأدب والثقافة.

وكذلك تسابق أهل الأندلس في مختلف مجالات التقدم، علمية وأدبية وفنية. فأصبحت قُرطبة منارة للحضارة العربية والإسلامية، بمثابة بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها من مدن المشرق التي تعتبر من أسواق الحضارة والمدنية. وكان الأدب العربي من أظهر مميزات الثقافة العقلية في الأندلس.

■ عوامل نهضة الشعر في الأندلس

لقد وجد الشعراء العرب في أوروبا ما لم يجده في آسيا من أسباب الحياة المتنوعة، والأجواء المتغيرة، والمناظر المختلفة، والأمطار المتصلة وغير ذلك من المناظر الطبيعية الجذابة التي تحرك العاطفة وتروج الخيال. فصفت أذهانهم، وسما وجدانهم، وتوسعت دائرة أدبهم. فازدهر الشعر وتطورت فنونه التقليدية، كالمدح والغزل والرثاء والزهد وغيرها. كما طفق الشعراء الأندلسيون يتفنون في إبداع الفنون الجديدة، فنظموا في حوادث التاريخ، ووصفوا القصور والأهوار والأودية، ورثوا المدن في حلاوة لفظٍ ورقة أسلوبٍ ودقة صنعةٍ.

وكذلك جعل الشعراء يتفنون في اختراع أساليب جديدة في الشعر العربي، كالموشح والزجل، وتنوع القافية بأساليب جديدة لم يكن للعرب عهدٌ بها من قبل. وبذلك نبغ الشعر العربي في الأندلس وأصبحت السنة الشعراء ركناً مهماً من أركان الحياة في الأندلس. فكانوا بمثابة الصحافة أو غيرها من وسائل الإعلام في التوعية ومعاونة الدولة ومنافسة من عاها. ومن هذا القبيل جعلوا ينافسون العباسيين ومقرّ خلافتهم في بغداد.

■ خصائص الشعر العربي في الأندلس

أ/ من حيث الأغراض

نظم الشعراء الأندلسيون في كل غرضٍ عُرف في المشرق العربي. ولكنهم عُنوا عناية خاصة بفنونٍ تنبعث من لوازم الحياة التي كانوا يعيشونها بمميزات الجديدة. فالوصف على سبيل المثال اتسعت دائرته حتى جعلوه فناً مستقلاً بنفسه وبارزاً فوق سائر الفنون،

وبات بمثابة تاجٍ لسائر أغراض الشعر. فقد وصفوا الأبنية والتمائيل والقصور والبرك والحدائق والمروج والأودية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح وكل ما له صلة بمناخ بلادهم وطبيعته. وكذلك أصبح رثاء الملوك نوعاً فرعياً من الرثاء العام.

ومما لا يخفى على الدارس اللبيب أن الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والصالحين من المظاهر الجديدة التي ظهرت كغرض من أغراض شعر الأندلس. وكذلك نظموا في العلوم والفنون، على أن هذا النوع كان قد نشأ في المشرق خلال حياة الدولة العباسية، إلا أن أهل الأندلس طوّروه وتفنّنوا فيه وأكثروا منه.

ب/ من حيث الأفكار والمعاني والتصوير

يتميّز الشعر العربي الأندلسي في معانيه وأفكاره بالوضوح والبساطة، والبعد عن التعقيد، وعن الأفكار الفلسفية. كما أكثر شعراء الأندلس من التلميح إلى الوقائع التاريخية المشهورة ولاسيما في الرثاء. واجتهدوا في تصوير مظاهر جمال الطبيعة والصناعة مع تراحم الصور الخيالية تراحمًا ظاهرًا.

ج/ من حيث الألفاظ والعبارات

كانت ألفاظ الشعر العربي الأندلسي وعباراته سهلةً، جزلةً، رقيقةً، عذبةً وذات وضوح. وخاصة في الغزل والاستعطاف. وكذلك تجنّب الشعراء الأندلسيون الغريب من الألفاظ ومشكله. واهتموا كل الاهتمام بالصنعة الكلامية والمحسنات البديعية.

د/ من حيث الأوزان والقوافي

كان شعراء الأندلس في أول أمرهم يقلّدون زملاءهم في المشرق العربي في استخدام الأوزان والقوافي الخليلية التقليدية. ولما انتشرت الثقافة وشاع الغناء في مجالسهم ابتدعوا أوزاناً جديدةً للشعر، وتنوّعوا في القوافي، واستلعبوا بأساليب اللغة العربية وبالغوا في الإبداع والحدائث إلى أن اخترعوا أساليب جديدة وغير معهودة عند العرب في الأوزان والقوافي وصياغة الشعر.

■ النثر الأندلسي

أ/ تطور النثر الأندلسي

كان النثر الأندلسي في بداية الأمر صورةً وصفيّةً للنثر الأموي في المشرق، لا يجاوز زمرة الخطب الدينية والرسائل القصيرة. ولكن بعد ممرّ فترة من الزمن ازدهر النثر وتطوّرت حركته، وتعدّدت فنونه بسبب انتشار الثقافة وتنافس الأمراء. ثم تكرّس في عصر ملوك المغرب بغلبة الصنعة اللفظية عليه وكثرة الحروب القومية والخارجية.

ب/ فنون النثر الأندلسي

تعددت فنون النثر في الأندلس بعد انتشار الثقافة وازدياد عدد المواقف والمناسبات المحتاجة إلى النثر. ومن أهم فنونه ما يلي:

١/ الخطابة

كانت وليدة الفتح والعصبيّة القبليّة. وما لبثت أن تعددت أغراضها، وتسرب إليها التسميع اللفظي. وضعفت قيمتها أخيراً حتّى كادت تنحصر في المواعظ الدينية والمشاهد التعبدية.

٢/ الرسالة

تطورت الرسالة في الأندلس، فكان منها الديوانية والأدبية. وتناولت موضوعات كثيرة. وشاعت فيها الصنعة اللفظية إلى أن خنقت معانيها أخيراً.

٣/ التصنيف

لقد هاجر إلى الأندلس بعد أن وضعت الحرب أوزارها أرباب الفنون ورجالها مع علومهم ومؤلفاتهم. فاطلع الأندلسيون على مؤلفات المشاركة، وجاوروهم في كل فن وعلم. فألفوا الكتب في شتى الفنون. واصطبغ أمر التصنيف أخيراً بالتكلف والتعنت وغيرهما من العيوب.

■ مشاهير الأدباء في الأندلس

أ/ ابن هانئ الأندلسي

هو أبو القاسم محمد بن هانيء بن محمد الأزدي الأندلسي. يُعدُّ من شعراء الطبقة الأولى في الأندلس. ولد في إشبيلية سنة ٣٢٦هـ. ونشأ في أحضان طبيعتها الجميلة. كما تزوّد بثقافتها الغزيرة. وظهر ميله إلى الأدب مبكراً، فحفظ كثيراً من شعر العرب في المشرق والمغرب.

اتصل ابن هانيء بحاكم إشبيلية ومدحه وبالغ في ذلك حتى اتهمه الناس بالكفر، وحاولوا قتله، ففرَّ إلى شمال أفريقيا، واتصل بمعز الدين الفاطمي. فاتخذه شاعراً له وبقي عنده إلى أن قتله جماعة من أهل برقة سنة ٣٦٢هـ.

وكان أكثر شعره في المديح، وكان شعره مليئاً بالألفاظ الطنانة. ولُقِّب بمتنبي الغرب لأنه كان ينظم شعره على غرار شعر المتنبي في الخصائص اللفظية والمعنوية ويأتم بهديه في ذلك. وكان ملماً بعدد من العلوم وذكي الفؤاد. وكان ابن هانيء ماجناً، خليعاً، صاحب لهوٍ وخمرٍ. وقد مدح ابن هانيء معزَّ الدين بقصيدة دالية، وقال فيها وهو يصف أسطول معزَّ الدين، وكان يومئذٍ أقوى أسطولٍ في البحر الأبيض المتوسط:

لك البر والبحر العظيم عبابه	فسيان أغمار تخاص وييد
وأما الجواري المنشآت التي سرت	لقد ظاهرتها عدّة وعديد
قِباب كما تُزجى القباب على المها	ولكنّ من ضمّت عليه أسود
ولله مما لا يرون كتائب	مسومة تحدو بها وجنود
أطاع لها أن الملائك خلفها	كما وقفت خلف الصفوف ردود
وأن الرياح الذاريات كتائب	وأن النجوم الطالعات سعود
وما راع ملك الروم إلا اطلاعها	تُنشّر أعلامٌ لها وبنود
عليها غمامٌ مُكفّهٌ صيره	له بارقاتٌ جمّةٌ ورعود
مواخر في طامي العباب كأنها	لعزمك بأسٌ أو لكفك جود
ألا في سبيل الله تبذل كُنه ما	تضنّ به الأنواء وهي جمود
فلا غرو إن أعزرت دين محمدٍ	فأنت له دون الملوك عقيد

ب / ابن زيدون

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي. أحد شعراء الأندلس وكتّابها المشهورين ووزارتها الأدباء العارفين بفنون الشعر والكتابة. ولد بقرطبة سنة ٣٩٤هـ. وكان سليل أسرة شريفة. كما كان أبوه من وجوه الفقهاء وعيون الفصحاء خلال أيامه. فلُقّن ابنه العلم والثقافة. وفتح له باب الدراسة والبحث في شتى فنون العلم. فاستسقى ابن زيدون ثقافة واسعة من علماء العصر الذي عاش فيه، مُلمّاً بطرف من كل العلوم وبارعاً في الأدب شعراً ونثراً.

وقد سمت به مكانته العلمية إلى أن قرّبه بنو جهور واتخذوه وزيراً. فساس بالحكمة والكياسة. وكان سفيراً لبني جهور، فكان يحسن السفارة ويُجَلُّ المشاكل. ثم دبّت بينهما عقارب السعاية، فنقم عليه ابن جهور وسجنه، وفرّ من السجن. ثم لجأ إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية، وصار وزيراً له وبقي عنده إلى أن مات سنة ٤٤١هـ.

وقد ابتلي بحب ولادة بنت المستكفي، وكانت فتاةً فاتنةً متعرجةً متغطسة، كما كانت بالغة الجمال وشاعرة سافرة. فذاق معها لذة الحب ومرارته.

وكان ابن زيدون سديد الرأي، حسن التدبير، خفيف الروح وبارع الأدب. وقد حفظ كثيراً من الشعر والأخبار والسير والحكم والأمثال ومسائل اللغة ومباحثها. ومن مميزات شعره التقليد في المدح والهجاء وسائر الأغراض الكلاسيكية. وكان شعره مغموراً بعاطفة قوية، وخيالٍ وافٍ. وكان كثير التغني بمشاعره والتعبير عن نزعاته وحسّه. كما كان يكثر من وصف طبيعة بلاد الأندلس ومناظرها. وقد أكثر من تقليد البحري حتى لُقّب به النقاد ببحتري الغرب. فقد نُحا نحوه في حسن النظم ودقة التعبير والتصوير. وكان أنيق الوشي في نثره، دقيق النسخ، قليل التكلف والسجع، شديد التشبه بطريقة الجاحظ. كما كان يورد الأمثال والأشعار في نثره حتى تكاد رسائله تكون منسوجة من أقوال الشعراء وأمثال العرب والآيات القرآنية. وجمع من تراثه ديوان حافل بالأشعار وكمية عريضة من الرسائل. ومن شعره قوله وهو يتشوق إلى ولادة أيام أن كان في إشبيلية:

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسي لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألّفنا ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
ليُسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيرنا إذ طالما غيرّ النأي المحبيننا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساري البرق غاد القصر فاسق به من كان صِرف الهوى والودّ يسقيننا
ويا نسيم الصبّا بلّغ تحيتنا من لو على البعد حيّاً كان يميننا
دومي على العهد ما دمنا محافظة فالحرُّ من دان إنصافاً كما ديننا
إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي مواقف الحشر نلتقاكم ويكفيننا
أوفي وفاءً وإن لم تبذلي صلة فالذكر يقنعنا والطيف يكفيننا
ومن أقوال ابن زيدون النثرية قوله في الرسالة الجديدة:

وأعود فأقول ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه
حلمك؟ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك؟ والتحامل الذي لم يف به احتمالك؟ ولا
أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟
إلا يكن ذنب فعذلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
ومنها أيضاً قوله في التفاؤل والثناء:

هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة
صيفٍ عما قريب تقشع، ولن يرييني من سيدي إن أبطأ سببه أو تأخر غير ضنين غناؤه،
فأبطأ الدلاء فينا أملؤها، وأثقل السحائب مشيا أجفلها، وأنفع الحيا ما صادف جدبا،
وألذ الشراب ما أصاب غليلاً، ومع اليوم الغدو، لكل أجل كتاب، له الحمد على ابتهاله،
ولا عتب عليه في إغفاله، فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن ألوف.

ج / ابن خفاجة

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الشقري. ولد سنة ٤٥٠هـ ببلدة شَقْر. وبدأ حياته العلمية في مسقط رأسه، ثم تردّد بين مُرْسِيَّة وشَاطِبَة، حيث سمع من بعض العلماء وأحاط بعددٍ من الفنون، منها الحديث والفقهِ وعلوم اللغة والنحو وغلب عليه الشعر. وقضى معظم حياته منفردًا في ضيعةٍ له قرب بلدته، يعيش حياة الفنانين، خليع العذار، طليق الإسار، ينظم شعره في أغراض نفسه. ولم يقصد أحدًا من ملوك الطوائف، ولما استولى المرابطون على الحكم، مدحهم فأكرموه. وظفر عندهم بنصيبه من حياة الترف والرخاء مع الميل إلى اللهو والمجون. وكان وافر الخطّ في وصف مناخات الطبيعة، فقد أخلى ذرعَه من مشاغل الحياة، ووهب نفسه لجمال الطبيعة، وفكره للخيال، وتفنّن في وصف الطبيعة وتصوير ألوانها الزاهية، وإبداع التشبيهات حتّى لُقّب بشاعر الطبيعة. وكان كثير التأمل بالمشاهدات في شعره. كما حمّله دقّة النظر على دقّة التعبير. ومن فنون شعره المديح والعتاب والثناء والشكوى والغزل وغيرها. وله أقوالٌ نثرية سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف والخيال، وكانت دون شعره رتبةً، لأنّها بدت سخيفةً ومتكلّفةً. وتوفي ابن خفاجة سنة ٥٣٣هـ بشقر. ومن شعره ما يلي في وصف جبل:

وأرعن طمّاح الذوّابة باذخ	يطاول أعنان السماء بغارب
يسدّ مهب الريح من كل وجهةٍ	ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقورٌ على ظهر الفلاة كأنّه	طوال الليالي مُفكّرٌ في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم	لها من وميض البرق حمر ذوائب
أضحت إليه وهو أخرس صامت	فحدّثني ليل السُرى بالعجائب
وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل	وموطن أوّاهٍ تبتل تائب
وكم مرّ بي من مُدلج ومؤوّب	وقال بظليّ من مطيّ وراكب
ولاطم من نُكب الرياح معاطفي	وزاحم من خضر البحار غواري

فما كان إلا أن طوَّهم يد الردى
فما كنت أبكي غير رجفة أضلع
وما غيَّض السلوان دمعي، وإنما
فحتي متى أبقى ويظعن صاحب
وحتي متى أرعى الكواكب ساهراً
فرحماك يا مولاي دعوة ضارع
فقلت وقد نكبت عنه لطية

وطاحت بهم ريح النوى والنواب
ولا نوح ورقي غير صرخة نادب
نزفت دموعي في فراق الصواحب
أودع منه راحلاً غير آيب
فمن طالع أخرى الليالي وغارب
يمدُّ إلى نِعماك راحة راغب
سلام! فإننا من مقيمٍ وذاهب

ويقول ابن خفاجة في وصف صفاء الجوِّ بعد وقوف نزول المطر:

أذن الله تعالى للصحوان أن يطلع صفحته، وينشر صحيفته، فقشعت الريح
السحاب، كما طوى السجل الكتاب. وطفقت السماء تخلع جلبابها، والشمس تميط
نقابها، وطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس نجلت وقد تجلت.

ويقول في مقالة بعنوان نزهة ومرح:

فذهبت في لمة الإخوان نستبق إلى الراحة ركضاً، ونطوي للفرج أرضاً، وترددنا
بتلك الأباطح نتهادى تهادي أغصانها ومتضاحك أقحوانها.

ومن أقواله في رقة النسيم ما يلي:

وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم، ترسل مشي على بساط وشي، فإذا مرَّ بغديرٍ
نسجه درعاً وأحكمه صنعاً، وإن عثر بجدولٍ شطب منه نصلاً، وأخلصه صقلاً، فلا ترى
إلا بطاحاً، مملوءة سلاحاً، كأنما انهزمت هنالك كتائب، فألقت بما لبسته من درعٍ مصقولٍ
وسيفٍ مسلولٍ.

د / ابن شهيد

هو أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك الشهير بابن شهيد القرطبي. ولد
سنة ٣٩٣هـ بقُرطبة، وتلقَّى بها علوم الدين. وتولَّى الوزارة للحاجب المنصور بن أبي عامر
ونال عنده الشرف، كما بقي متصلاً ببلاط سائر الملوك الذين أفاضوا عليه المال والجاه.

وكان ابن شهيدٍ شاعراً ظريفاً، من فحول شعراء طبقته في الأندلس، وكاتباً مبتكراً من كتابها، وأديباً نبيلاً من أدبائها. وكان خفيف الروح، باسم الوجه، سديد الرأي وعارفاً بفنون الأدب. وتدل قصائده على سعة خياله ورجاحة فكرته وعقله. وكثر قوله في المديح والغزل والخمريات، كما تغلب على أسلوبه سلامة العبارة وبلاغة التركيب. وله نثر نظمه بأسلوب دقيق وزينه بقصص خيالية لطيفة. ومن شعره ما يلي في وصف الطبيعة:

تردّد فيها البرق حتّى حسبته	يشير إلى نجم الرُّبا بالأنامل
ربا نسجت أيدي الغمام للبسها	غلائل صُفراً فوق بيض غلائل
سهرت بها أرعى السماء وأنجما	طوالع للراعين غير أوافل
وقد فغرت فاها بها كل زهرة	إلى كل ضرعٍ للغمامة حافل
ومرت جيوش المزن رهواً كأنها	عساكر زيغ مذهبات المناصل
تخال بما زهر الكواكب نرجسا	على شط وادٍ للمجرة سائل
وتلمح من جوزائها في غروبها	تساقط عرش واهن الدعم مائل

هـ / ابن الخطيب

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن الخطيب. ولد بغرناطة سنة ٧١٣هـ في مهد السؤدد والعلم والرياسة. وقد تخرّج على علماء غرناطة في علوم اللسان والشريعة والفلسفة والطب والتاريخ وغيرها من الفنون التي بدّ فيها معاصريه. كما اتصل بأمرء غرناطة، فاستكتبوه واستوزروه، وأطلق يده في شؤون الحكم، فاتسع نفوذه وبما أمره. ثم تنكّر له السلطان محمد الخامس بعد أن سعى بينهما الوشاة، ففرّ إلى أفريقيا. ثم توالى عليه الخطوب فتمّ تسليمه إلى الحكام، فاتّمم بالإلحاد، فسجّن. ثم تسوّر عليه السجن بعض الأوشاب فقتلوه خنقاً سنة ٧٧٦هـ.

كان ابن الخطيب شاعراً مقتدرًا، وكاتبًا مترسلاً. وكان متعدد نواحي الشخصية، واسع الثقافة، محيطاً بوجوه كثيرة من فنون المعرفة وبارع التعبير في كل ما يتناوله من العلم.

وكان شعره رقيق اللفظ، رائق المعنى ومقبول الصنعة. وأما نثره فكثير السجع والصنعة.

وألف في التاريخ كتابا سماه الإحاطة في تاريخ غرناطة. ومن موشحاته ما يلي:

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل في الأندلس
لم يكن وصلك إلا حلمًا
في الكرى أو خلسة المختلس

* * * * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى
تنقل الخطو فيما يرسم
زُمرًا بين فرادى وثنى
مثلما يدعوا الوفود الموسم
والحيا قد جَلَل الروض سنا
فتغور الزهر منه تبسم

* * * * *

وروى النعمان عن ماء السما
كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما
يزدهي منه بأبهى ملبس

* * * * *

في ليالٍ كتمت سرّ الهوى
بالدجى لولا شمس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهوى
مستقيم السير سعد الأثر
وطرّ ما فيه من عيب سوى
أنه مرّ كلمح البصر

* * * * *

حين لُدّ الأنس شيئا أو كما
هجم الصبح هجوم الحرس
غارَت الشهب بنا أو ربّما
أثّرت فينا عيون النرجس

و/ ابن حزم

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري. من الفلاسفة المعروفين والمفكرين المشهورين. ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ. واشتغل بتعلم العلوم الدينية منذ أن كان

حدثاً حتى صار من كبار العلماء في زمنه. وله مؤلفات في الفقه والحديث والأصول والملل وغير ذلك. كما ألف رسائل في الطب والأدب. فكان عالماً وفقهياً، وشاعراً متفهنًا، وعاملاً بعلمه.

وكان ابن حزم جريئاً، متعنّياً في النقد، عظيم الهمة والرأي، لا يخاف في الحق لومة لائم. وعُدَّ من أجمع أهل الأندلس قاطبة في معرفة العلوم الإسلامية، ومن أوسعهم معرفة بعلوم اللسان. كما يُعدُّ مجدِّداً لمذهب داود الظاهري، فقد درس مذهب الظاهرية وأتقن أصوله، ثم رَوَّجه وأشاد به ودان بمقتضاه. فدرات بينه وبين أقرانه من العلماء مناظرات ومجادلات حملت أعداءه على التشنيع به. وحُوكِمَ مرة فأقضته المحكمة عن بلاده وتوفي سنة ٤٥٦هـ.

ويُعدُّ كتابه المسمى بالفصل في الملل والأهواء والنحل من أجلِّ آثاره العلمية، وقد أفاد فيه الحديث عن مذاهب الفلاسفة ومعتقداتهم وفصل الكلام عن الفرق الإسلامية. وله المحلى في فقه الحديث. وكذا ألف في أصول الفقه الإحكام في أصول الأحكام وهو مصدرٌ نفيسٌ وفريدٌ في بابه. ومن أقواله الأدبية النص الآتي حول آداب مجالس العلم:

إذا حضرت مجلس علمٍ فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيدٍ علماً وأجرًا. لا حضور مستغنٍ بما عندك، طالبٍ عشرةٍ تشنعها، أو غريبةٍ تشيعها. فهذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون في العلم أبداً.

فإذا حضرت فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها. وهي: إما أن تسكت سكوت الجهال، وإما تسأل سؤال المتعلم، وصفة سؤال المتعلم أن يسأل عما لا يدري، لا عما يدري، فإن السؤال عما تدريه سخفٌ، وقلة عقلٍ، وشغلٍ لكلامك، وقطعٍ لزمانك بما لا فائدة فيه. فإن أجابك الذي سألت بما فيه كفاية أو أجابك بما لم تفهم، فقل له لم أفهم، واسترده. فإن لم يزدك بياناً وسكت، أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد، فأمسك عنه، وإلا حصلت على الشر والعداوة، ولم تحصل على ما تريد من الزيادة. والوجه الثالث أن تراجع مراجعة العالم. وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضاً بيناً، فإن لم يكن ذلك

عندك إلا تكرار قولك، أو المعارضة بما لا يراه خصمك معارضة، فأمسك، لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجرٍ زائدٍ ولا تعلم.

وإذا رُدَّ عليك خطابٌ بلسانٍ، أو هُجِّمَتْ على كلامٍ في كتابٍ، فإياك أن تقابله بمقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة، قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع. وأيضا فلا تقبل عليه إقبال المصدق به المستحسن إياه قبل علمك بصحته، فتظلم في كلا الحالتين نفسك، وتبعد عن إدراك الحقيقة. ولكن أقبل عليه إقبال سالم القلب عن النزاع عنه والنزوع إليه. فمضمونٌ لك إذا فعلت ذلك الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم.

KKKKKKKKKK

الفصل السادس عصر الأتراك والمماليك

■ المدخل

ركضت قوّة العباسيين بعد الخليفة المتوكل على الله وغلب الثوار على كثير من أملاكهم بحكم عديد من الأسباب. وقد أدّى ذلك إلى ذهاب هيبة الخلافة، وفُشِّو الفتن والتحارب والعداء والتنافس بين مختلف الطوائف الدينية والسياسية والجنسية. واستمرت الأمور على هذا النحو حتى ثلّ هولاكو التتري عرش الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ بعد إبادة جماعية وهجوم غير إنساني على المدنيين. وهكذا تضعض أمر العرب في الأندلس بتغلب الفرنجة على حكمهم سنة ٨٩٨هـ. وزالت دولة الفاطميين في مصر والشام بوقوع الأمر على أيدي الأيوبيين ثم المماليك سنة ٩٢٣هـ. ومنذ ذلك الحين عاش العالم الإسلامي أكثر من خمسة قرون تحت حكم الأجانب من المغول والترك والفرس والإسبان.

وهكذا وضع هؤلاء العجم الوحشيون الأميون أيديهم على تراث العرب، فخرّبوا الديار وفتكوا الحدود وأضاعوا كل شيء. وأشرفت اللغة العربية هي وتراثها على الفناء

لولا أن قيّد الله لها الأتراك والماليك الذين أصبحوا لها حُرَّاسًا، ولأبنائها وعلماؤها ترسًا من غارات المغول. فقد اعتنق الأتراك والماليك الإسلام وحسن إسلامهم وصاروا أكثر تعصُّبًا للدين ممن سبقهم من المسلمين. وقد بلغت شوكة الأتراك منذ أواخر العصر العباسي قمتها، حتّى أصبحت الخلافة بأيديهم أو كادت. وقد استغل الأتراك نفوذهم في بلاد المسلمين بعد سقوط بغداد، فما لبسوا أن أقاموا دولة إسلامية جديدة.

وقد سجل التاريخ ما قام به المماليك من الدور الإيجابي تجاه اللغة العربية وتراثها لَمَّا كان الأمر بأيديهم، حيث عمروا الإسلام، وعضدوا العلماء، وقرَّبوا الأدباء، وشجَّعَهم على التأليف. ولما أصبح الملك بأيدي العثمانيين، نقلوا عاصمة الملك من القاهرة إلى القُسْطَنْطِنيَّة، وجعلوا اللغة التركية لغةً رسميةً مكان العربية. وفشى في العرب أسباب الضعف والذل والهوان.

وفي الجملة، إن اللغة العربية وآدابها شهدتا أوضاعًا مختلفة وظلنا بين المطرقة والسندان طوال هذه القرون التي تعرف بعصور الانحطاط. ولم تنتعش اللغة العربية ولا أدبها إلا بعد حلول عصر النهضة الحديثة في عشرينيات القرن الثالث عشر الهجري.

■ حالة اللغة العربية في العواصم أ/ بغداد

كان سقوط بغداد كارثةً عظيمةً أصابت اللغة العربية والأدب العربي والمدنية العربية التي بناها وأشادها العباسيون. وذلك بتهديم كثير من معالم الثقافة العربية ومكاتبها العلمية، وإلقاء معظم تراثها العلمي والأدبي في نهر دِجْلَة، وقتل غير قليل من أبنائها. فشهدت اللغة العربية جمودًا في نشاط علومها وآدابها وعاصرت امتحانًا صعبًا جزاء هلاك تراثها، وضياع حماتها، واندراس معالم ثقافتها.

ب/ القرطبة

كانت الثقافة السائدة في بلاد الأندلس هي نفس الثقافة التي انتشرت في المشرق العربي في العلم والأدب والدين وشقَّتْ فروع الثقافة إلى جانب ما ابتدعه الأندلسيون من

الإنتاج العلمي. ثم شهدت الأندلس هجمات متتالية قام بها الفرنجة المسيحيون ضدّ المسلمين وأسفرت باسقاطهم حكم العرب والإسلام وثقافتها من الأندلس.

ج/ القاهرة

أصبحت القاهرة في أيام المماليك موئل العلماء والأدباء الذين هاجروا إليها من الشرق خوفاً من وجع التتار وظلمهم. وكانت كذلك مأوى المهاجرين من الغرب أو ان ضعف الدولة ومما تمها. ولسلاطين مصر من الأيوبيين وغيرهم فضلٌ في بقاء اللغة العربية على قيد الحياة مع فناء أهلها. فقد اعتنقوا الإسلام ديناً، وجعلوا العربية لغةً رسميةً، وعضدوا العلماء، وشجعوهم على القيام بالأنشطة العلمية، وقربوا الأدباء، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص والدراسة وغير ذلك من عناصر الثقافة. ونتجت من ذلك ثروة علمية ونهضة تأليفية بعيدة المدى في كافة علوم الدين وميادين الثقافة الإسلامية.

■ لغة التخاطب

كانت اللغة التي يستخدمها الناس في التخاطب العادي هي اللغة العربية الممزوجة بعديد من الكلمات المستعارة من اللغات التي اتصلت باللغة العربية. وكانت نسبة الدخيل تختلف من فرد إلى آخر، ومن مكان إلى آخر. وأما اللغة العربية الفصحى فاقترنت في المجالات الرسمية والشعائر الدينية والمكاتبات والتأليفات.

■ ديوان الإنشاء

كانت الكتابة في ديوان الإنشاء في عصر المماليك تتميز بما ابتدعه الكتّاب من وضع ألقابٍ للسلاطين والملوك والوزراء وغيرهم من أهل الحلّ والعقد. وكذلك كثرت هيمنة الجانب اللفظي على المعاني، وفشوّ السجع هو وسائر البديعيات. ومن أشهر من تولّى ديوان الإنشاء في عصر المماليك محي الدين بن عبد الظاهر، وشهاب الدين بن فضل الله، وتاج الدين بن الأثير، وخلاتق غيرهم. وكان لديوان الإنشاء فضلٌ في إنحاض اللغة العربية وانتعاش آدابها بمصر والشام بفضل سموّ منزلة الكتّاب فيه، الأمر الذي سبّب

تنافسًا شديدًا بين النوابغ من العلماء والشعراء والكتاب في الإجادة في الكتابة، والبراعة في تنسيق الكلام، والدقة في تركيب المعاني سعيًا للتفوق على الخصم وبلوغ ذلك المنصب السامي.

■ التصنيف في العصر التركي

على الرغم من ركوض الحركة الأدبية وتعرض الأمة لغير قليل من الهجمات والفتن، فقد نشطت حركة التدوين والتصنيف في هذا العصر نشاطًا هائلًا. ومما ساعد على ذلك تشجيع السلاطين والوزراء الذين يرغبون في الكتب النادرة وينشؤون المساجد والمعاهد في شتات الأماكن، وعزمهم على جمع الكتب في الخزانات. وأول ما يستدعي الانتباه هو وفرة الكتب في مجلدات ضخمة وأجزاء كثيرة تجمع أنواعًا شتى من المعارف والعلوم.

ومن أشهر من ألف في ذلك ابن فضل الله العمري الذي صنف مسالك الأبصار والقلقشندي الذي ألف كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء والحاجي خليفة صاحب كشف الظنون عن أسامي كتب الفنون وابن حجة الحموي الذي ألف خزانة الأدب والنويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب.

وقد كثرت في عصر المماليك الكتب التي تتبع طريقة المتن والشروح والحواشي، ولاسيما في علوم اللسان وفنون الدين. فكان المؤلف يضع موجزًا يسميه متنًا، ثم يفصل مجمله في الشرح، ويأتي بعده من يعلق على الشرح بالحواشي. ومن الفنون التي شهدت تقدمًا في التأليف ما يلي:

أ/ العلوم اللسانية

كثرت التأليف في العلوم اللسانية على قلة الابتكار في ذلك. فجل الإنتاجات التي صدرت تدور حول اختصار المطولات، أو تطويل المختصرات، أو جمع المفترق. ومنها:

٢/ علوم اللغة

ظهرت في هذا العصر المعاجم الكبرى، ومن أشهر من صنّف في هذا المجال جمال الدين محمد بن المكرم المعروف بابن منظور الأفرريقي صاحب لسان العرب. وكذلك مجد الدين محمد الفيروزآبادي الذي وضع القاموس المحيط وهو من أنفس المعاجم اللغوية كسابقه. وقد شرحه مرتضى الزبيدي بما فيه كفاية وسمّاه تاج العروس بشرح القاموس. وظهرت في هذا العصر أيضا الدواوين الشعرية، لاسيما في الشعر التعليمي والمواعظ والمدائح النبوية.

٢ / علم النحو

برع فيه محمد بن عبد الله المعروف بابن مالك، وله فيه وفي غيره من فنون اللغة نيّف وثلاثون مؤلّفا ما بين منظوم ومنثور. ومنها الألفية التي لخصها من الكافية الشافية، وقد شرحت مرارا، ومن أشهر شروحها شرح ابن عقيل. وبرع في النحو أيضا ابن هشام، براعة جعلت بعضهم يزعم أنه أعلم به من سيويه!. وألف فيه كتاب قطر الندى وبلّ الصدى وشذور الذهب وغيرهما من الكتب القيمة. وكذا محمد الصنهاجي المعروف بابن آجروم، وهو مصنف المقدمة الآجرومية. ومن خلف هؤلاء الإمام السيوطي، وله في النحو الألفية وجمع الهوامع بشرح جمع الجوامع وغيرهما.

ب / علوم الدين

فقد أجاد في علوم الدين خلق، وأعظمهم قاطبة شيخ الإسلام ابن تيمية الحرايي الدمشقي. فقد ذكر تلميذه الذهبي أن مؤلفاته تزيد على ألف. ومنها الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح والرسالة التدمرية ودرع تعارض العقل والنقل والإيمان ومنهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة القدرية والعقيدة الواسطية واقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ورأس الحسين وشرح حديث النزول وغيرها. وقد تمّ جمع فتاويه ورسائله في أكثر من ثلاثين مجلّداً.

ثم تلميذه ابن قيم الجوزية، الذي صنّف - هو الآخر - في كثير من فنون العلم والثقافة الإسلامية. ومن مؤلفاته إغاثة اللهفان عن مصاييد الشيطان وإعلام الموقعين عن

رب العالمين وزاد المعاد من هدي خير العباد وتحفة الودود بأحكام المولود وهادي الأرواح إلى بلاد الأفراح والطب النبوي والنونية وغيرها.

ومن جاء بعد هذين الإمامين ابن حجر العسقلاني. وله فتح الباري بشرح صحيح البخاري وكفى له به جلالة في العلم والتحقيق. ومن بعده نبغ السيوطي فصنف في مختلف الفنون وأكثر. وله في التفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور وله مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة كما ألف الحاوي للفتاوي وغيرها.

وكذا النووي أبو زكرياء الدمشقي - وهو ممن سبق المذكورين - وهو صاحب المجموع شرح المهذب والأذكار النووية والمنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج ورياض الصالحين والمجموع شرح المهذب وغيرها من المؤلفات الحقة النافعة.

ولغير المذكورين هنا من العلماء وأئمة هذا العصر مؤلفات في شتى فنون الدين نافعة وكثيرة، كثرة لا يتسع هذا المجال لتفصيل الكلام حولها، ويستطيع من يريد الاطلاع على مزيد من أخبارهم مراجعة أمهات كتب التراجم ومعجم المؤلفين وما شابه ذلك.

ج / العلوم التاريخية والجغرافية

ومن أشهر من صنف في هذا المجال ابن خَلِّكان، فقد ألف وفيات الأعيان وأخبار أعيان الزمان. ومنهم زكرياء بن محمد القزويني مصنف عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. وكذلك ابن بطوطة الذي ألف تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار.

وصنف ابن خلدون كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عداهم من ذوي السلطان الأكبر. وصنف ابن كثير البداية والنهاية. ثم الذهبي الذي صنف تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام. كما ألف المقريزي كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. وألف ياقوت الحموي معجم البلدان غيرها كثير.

د / السير والتراجم

برع في علوم السير والتراجم الحافظ الذهبي فألف سير أعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ وميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيرها. وكذلك الحافظ المزي، وهو صاحب تهذيب الكمال وقد هذبه الحافظ ابن حجر ثم قرّبه. وله أيضا الفهرس الفهارسة والإصابة في تمييز الصحابة والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. ولابن كثير التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل. وألف ياقوت الحموي معجم الأدباء. ومن خلف هؤلاء السخاوي، فقد صنف الضوء الآمع في أعيان القرن التاسع. وللسيوطي طبقات المفسرين وذيل طبقات الشافعية وغيرها. ولغير هؤلاء من المؤلفين مصنفات في هذا المجال لا يمكن أن تحصى بهذه العجالة في هذا المقام.

■ حالة الشعر في عصر الأتراك

أصاب الشعر العربي في العهد التركي جموداً وتمنيعاً في اللفظ والمعنى. وأذهب ذلك ذوقه، وفكك أسلوبه، وأمات هيبته، وأفنى حلاوته، ومزّق نصرته. فتركه على فراش الموت وجناح الفناء ينتظر خروج نفسه الأخير بين كل عشية أو ضحاها. فقد كان جلّ ما يتميز به الشعر العربي في ذلك العصر تكرار المعاني، ومسارقة الألفاظ، وتكلف الأساليب. وكذلك تفتن الشعراء في استخدام البديعيات، فأكثروا من التورية والجناس وسائر المحسنات اللفظية والمعنوية، وابتدعوا أساليب شتى. كما شاعت في هذا العصر المدائح النبوية، حتى أصبحت فناً مستقلاً عن سائر شعر المديح. ومن رواه البوصيري الذي نظم البردة وغيرها من القصائد. وقد كثر ميل الشعراء إلى استخدام الأوزان القصيرة والمولدة وهجران الأوزان المعقدة، كما أكثروا من الفكاهيات في شعرهم.

■ مشاهير الأدباء في عصر الانحطاط

أ/ صفى الدين الحلبي

هو أبو البركات عبد العزيز بن سريان الحلبي، شاعر الجزيرة. ولد بالحلّة في العراق سنة ٦٧٧هـ ونشأ بها وتأدب وأجاد الشعر. وقد خدم الملوك وزار مصر ومدح السلطان الناصر بن قلاوون وتوفي ببغداد سنة ٧٥٠هـ. وقد طرق معظم فنون الشعر ونظم في

الأوزان المولدة كالتشريط والتخميس والموشحات. وهو أول من نظم القصائد في المدائح النبوية الجامعة لأنواع البديع. وكان شعره سهل اللفظ، جيد الأسلوب ورشيق المعنى. وقد اعتبره بعض النقاد كأشعر الشعراء في طبقته. ومن شعره الأبيات الآتية في الحماسة:

سل الرماح العوالي عن معالينا وسائل البيض هل خاب الرجا فينا
وسائل العرب والأترك ما فعلت في أرض قبر عبيد الله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد دنا الأعادي كما كانوا يدينونا
بضمر ما ربطناها مسومة إلا لنغزو بها من بات يغزونا
وفتية إن نقل أصغوا مسامهم لقولنا ودعوانا هم أجابونا
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنةً يومًا وإن حكموا كانوا موازيننا
تدرعوا العقل جلبابا فإن حميت نار الوغى خلتهم فيها مجانينا
إذا دعو جاءت الدنيا مصدقةً وإن دعو قالت الأيام آميننا
إنا لقومٌ أبت أخلاقنا شرفا أن نتبدي بالأذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا سودً وقائعنا خضر مرابعنا حمرٌ مراضينا
لا يظهر العجز منّا دون نيل منى ولو رأينا المنايا في أمانينا

ب/ عائشة الباعونية

هي أم عبد الوهاب عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني. السيدة الناسكة والعالمة الفاضلة. ولدت بالصالحية بدمشق في بيت له تقاليد العلم والورع. وكان أبوها عالما كما كان أخوها من نوابغ العلماء في التاريخ والأدب والحديث والتصوف. فتأدبت عائشة في بيئة علمية وبين العلماء، ثم تلقت الفقه والنحو والعروض على طائفة من شيوخ عصرها. وعاصرت مصر فتتلمذت على العلامة أبي العباس القسطلاني شارح البخاري حتى أجاز لها بالتدريس والفتيا. ثم عكفت على التأليف والتدريس بعد عودتها إلى دمشق وانتفع بعلمها خلائق لا يحصون. ومن آثارها كتاب الفتح المبين في مدح الأمين وفيض

الفضل ودر الغائص في بحر المعجزات والخصائص. ولها ديوان شعر في المدائح النبوية وغير ذلك من الأغراض. وتوفيت سنة ٩٢٢هـ. ومن قصائدها في المدح ما يلي:

في حسن مطلع أقمار بذي سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعلم
أقول والدمع جارٍ جارح مقلي والجار جار بعدل فيه متهم
يا سعد إن أبصرت عينك كاظمة وجئت سلماً فسل عن أهلها القدم
واستوطنوا السر مني فهو موضعهم ولا أبوح به يوماً لغيرهم
قالوا هو الغيث قلت الغيث آونة يهمني وغيث نداه لا يزال همي
مدحت مجدك والإخلاص ملتزمي فيه وحسن امتداحي فيك محتتمي

ج / الشاب الظريف

هو شمس الدين محمد بن سليمان بن علي التلمساني. ولد بالقاهرة سنة ٦٦١هـ ونشأ في دمشق حيث كان والده مشرفاً على استيفاء خزانة أموال الدولة. ولما كان الشاب الظريف بدمشق انصرف إلى اللهو والعبث. وكان شاعراً دقيقاً مجيداً، رقيق اللفظ، خفيف الروح وناصح الديقاجة. وفي شعره نفحات من العبقرية المصرية. وشعره يدل على نبوغ موروث. فقد كان أبوه عفيف الدين سليمان بن علي التلمساني شاعراً مجيداً. وكان مولعاً بالبديع كبقية شعراء عصره، وكان أكثر شعره في الغزل. وله نثر ومقامات. وتوفي في عنقوان شبابه، سنة ٦٨٨هـ. ومن شعره في الغزل ما يلي:

مثل الغزال نظرة ولفته من ذا رآه مقبلاً ولا افتتن
أعذب خلق الله ثغراً وفماً إن لم يكن أحق بالحسن فمن
في ثغره وخده وشكله الماء والخضرة والوجه الحسن
ومنه قوله أيضاً:

عفا الله عن قوم عفا الصبر عنهم فلو رُمت ذكرى غيرهم خانني الفم
تجنّو كأن لا ودّ بيني وبينهم قديماً وحتى ما كأنهم هم
وبالجزع أحباب إذا ما ذكرتهم شرقت بدمع في أواخره دم
أليم وما في الركب منا ميتم وعاد وما في الركب إلا متيم

وليس الهوى إلا التفاتة طامع
يروق لعينيه الجمال المنعم
خليلي ما للقلب هاجت شجونه
وعاوده داءً من الشوق مؤلم
أظن ديار الحي منا قريبة
وإلا فمنها نفخة تنسم

د / ابن نباتة المصري

هو جمال الدين محمد بن محمد بن أبي الحسن بن نباتة الفارقي المصري. ولد بالقاهرة سنة ٦٨٦هـ في بيت الأدب والشرف، وشبَّ في أسرة هادئة تتمتع بمرافق الترف الاقتصادي، وفي جوٍّ علميٍّ أدبي. فأتمَّ دراسته الأولى وواصل الدراسة والتحصيل، فدرس علم الحديث وسائر علوم الدين وفنون اللغة وكذا الأدب.

بدأ ابن نباتة نظم الشعر مبكرًا، وافتتح كُتابًا ليتكسب بالتعليم. ثم إنه غادر القاهرة وتوجه إلى الشام لما فشل في نيل الخطوة عند الأيوبيين. واتصل بالملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة، ونال عنده الشرف. ولحق كذلك بإسماعيل بن علي فنال عنده نيلًا وتم اتخاذه شاعرًا إستقرًا في بلاطه، فجعل له راتبًا سنويًا يبلغ ستمائة درهم. ثم اتصل بابنه الأفضل فالمنصور الأفضل. ثم عينه شهاب الدين بن فضل الله على ديوان الإنشاء بدمشق، وهكذا أقام في الشام مدة طويلة. ثم غادر الشام بعد أن هرم وجاوز السبعين ونكث في الخلق، فعاد إلى القاهرة بعد أن غاب عنها أكثر من خمسين سنة، فأكرمه السلطان الناصر، وأكثر الشاعر من مدحه. ثم اضطربت الحياة على ابن نباتة بعد مقتل السلطان الناصر سنة ٧٦٢هـ ولم تعد له بعد هذا التاريخ صولة ولا جولة.

كان ابن نباتة شاعرًا وشاحًا وناثرًا مترسلًا. ويمتاز شعره بالرقّة وحسن استخدام البديع. وقد أكثر القول في شعر المديح والثناء والخمرات والغزل. ولأنه عاش في عصر كثير الفتن والاضطرابات والأزمات جرّاء هجوم التتار المتتالية والحروب الصليبية، ظهر في أعماله الأدبية ما يدل على شدة تأثر نفسيته بتلك الأوضاع، ويتمثل ذلك في بروز غزيرة الخوف وحب السلام في إنتاجاته. ومات سنة ٧٦٧هـ. ومن أقواله في المفاخرة بين السيف والقلم:

أتفاخرنني وأنا للوصل وأنت للقطع؟ وأنا للعتاء وأنت للمنع؟ وأنا للصلح وأنت للضراب؟ وأن للعمارة وأنت للخراب؟ أعلى مثلي يشق القول ويرفع الصوت؟ وأنا ذو اللفظ المكين. وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن يُكْسِئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨) فقد تعديت حدك، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك، هيهات أنا القائم بمصالح الدول وأنت في الغمد طريح، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح، والساعي في تدبير حال القوم والملفتي بنفعهم العمر إذا كان نفعك يوماً أو بعض يوم، فاقطع عنك أسباب المفاخرة واستر ثيابك عند المكاخرة. فما يحسن بالصامت محاورة المفصح والله يعلم المفسد من المصلح.

هـ / محي الدين بن الطاهر

هو عبد الله بن الطاهر المصري الكاتب الشاعر. ولد سنة ٦٢٠هـ وتوفي سنة ٦٩٢هـ. وكان من المتعصبين لطريقة القاضي الفاضل في التزام السجع واتباع المحسنات البديعية. وقد تولى ديوان الإنشاء في زمن الظاهر بيبرس، فوضع كثيراً من اصطلاحات الإنشاء ونظم الديوان. وبقيت اصطلاحاته مستعملة في مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر. وله مؤلفات ورسائل سلطانية كثيرة. ومن رسائله ما كتبه على لسان الملك المنصور قلاوون يرد على صاحب اليمن عندما عزاه على موت ابنه، ويقول فيها: ولنا الشكر لله، صبرٌ جميل لا نأسف معه على فائتٍ ولا نأسي على مفقودٍ. وإذا علم الله سبحانه حسن الاستنابة إلى قضائه والاستكانة إلى عطائه، عوّض كل يومٍ ما يقول المبشر به هذا مولى مولود، وليست الإبل بأغلظ أكباداً ممن له قلب لا يبالي بالصدّات كشرت أو قلت، ولا بالتباريح حقرت أو جلت، ولا بالأزمات إن هي توالّت أو تولّت.

الفصل السابع
الأدب العربي في عصر النهضة الأدبية الحديثة

■ المدخل

ما زالت الفتن والحوادث الخطيرة تؤثر سلباً على العرب وتقلل أطراف رقعة نفوذ اللغة العربية حتى قصرتها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي على العراق والشام وبلاد المغرب، حيث بقي في تلك البلاد النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد في وناءٍ وضعفٍ. فقد حكم الأتراك العثمانيون بلاد العرب قرابة ثلاثة قرون ابتداء من سنة ٩٢٣هـ وانتهاء بسنة ١٢١٣هـ وقد أشاعوا خلال هذه الفترة الزمنية الجهل والعمى والظلم في الأمة العربية.

وكانت مصر تحت سلطان العثمانيين حكماً وسيطرة المماليك فعلاً. وكانت الأهواء المختلفة والقوى المتضاربة والأجناس المتباينة تنخر في هيكل هذه الأمة البائسة التي فشلت فيها الأمية واستولى عليها الجهل وألحت عليها الأوبئة والسنون.

وكانت أوروبا في ذلك الحين في تجديد غاراتها الاستعمارية على البلاد غير الأوروبية في العالم الثالث بشكل غير مباشر، بدعوى نشر متاجرها وبتّ علومها وآدابها بين أبناء العرب وغيرهم من الأفارقة والآسيويين. وكان الذي تولى كبره في هذه المهمة نحو مصر هو نابليون الفرنسي. وكان من الطبيعي أن يعمل الشعب على التخلص من تلك السيطرة الغاشمة التي دامت عليهم سنين عدداً. فلذلك استقبل المصريون نابليون وحملته لشعورهم بمهمته نحو مساعدتهم في عملية التخلص من ظلم الأتراك. فغزاها نابليون سنة ١٧٩٨م. ومع أنه غزا عين مصر فعلاً، فقد غزا جميع الأمة العربية فكراً وأدى ذلك إلى انفصال العرب من ظلم العثمانيين. فبدأت النهضة الحديثة منذ سنة ١٢٢٠هـ في غاية الفساد وانحطاط الحكومة وجمود اللغة العربية وعلومها وآدابها.

وتعتبر الجماعة العلمية التي صحبت حملة نابليون بمثابة الغرسة الأولى لبذور الحضارة الجديدة في مصر، فقد أنشؤوا مدرستين وجريدتين ومسرحًا للتمثيل ومجمعاً علمياً ومكتبة ومطبعة ومعامل كيميائية ومراصد فلكية وسهّلوا للناس النظر إليها والوقوف عليها. فكان صنيع هذه الجماعة أشبه بقبس وضء سطع على سماء مصر فبدّده.

وأما عبارة النهضة الأدبية الحديثة فهي تُشعر بأنه كان للأدب العربي وجود منذ الجاهلية إلى الزمن الحاضر، وأن الأدباء والشعراء والكتاب كانوا يسجلون جميع حوادث قومهم ويصورون الحياة والمشاهد الخلابة والمؤثرة فيها حسب ما اقتضته الأحوال. ولكن الآن أصبح العربي يتطوّر ويتقدّم، وكأنه ينتقل من حياته الجامدة إلى حياة راقية، وتوفّرت لديه الآن أسباب التقدّم، كما ظهرت نظم وأشياء لا عهد له بها في حياته في العصور الماضية. ولذلك لا بدّ للشعراء أن يواجهوا كل تقدّم، ويسجلوا كل تطوّر نالته العرب، ويصوّرُوا كل ما فرضته الحياة الجديدة على قومهم.

فقد مثّلت النهضة الأدبية تحديات شاقة أمام شعراء العرب وأدبائها الذين ورثوا عن أجدادهم وصف الخمر والحرب والخيل والنساء والآلات الحربية التقليدية والفخر بقبائلهم وشجاعتهم وما مائل ذلك. ومعنى ذلك أن ينتقل الشاعر من ذلك الطور الكلاسيكي إلى تصوير هذه الحياة الجديدة المليئة بالمخترعات التكنولوجية والأجهزة الجديدة العجيبة كآلات الكتابة المتطورة ووسائل الإعلام الحديثة والمركبات وأسلحة الدمار الشامل وغيرها من إنتاجات عصر المصانع والتكنولوجية.

فالخاص أن المقصود بالنهضة الأدبية أن ينتقل الأديب من منزلة إلى أخرى متطورة. وإن مما ينبغي التنبيه عليه هنا أن هذه التحديات ليست موجهة إلى الشعراء والأدباء فحسب، بل هي موجهة إلى اللغة العربية نفسها. والمعنى هل يمكن للغة العربية وصف ما ورد عليها من التطوّر وهل لديها من المفردات ما يمكنها القيام بهذا العمل الغامض؟.

بلى! إنها قادرة على ذلك. كيف لا وهي من أفصح اللغات الكونية وأجمعها
لسمات البلاغة ولحات الخيال؟ وقد نطقت بذلك على لسان أحد أفرادها، وهو حافظ
إبراهيم حين قال:

تنازعتني قومي عفا الله عنهم على لغة لم تتصل برواة
رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني عقت ولم أجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامن فهل سألوا الغوّاص عن صدفاي

■ أثر محمد علي باشا في تكوين النهضة

لما قعد محمد علي باشا على عرش الملك في مصر كانت أول قاعدة أراد أن يبني
عليها ملكه وسلطانه هي متابعة الأوروبيين في الإدارة والتربية وتنظيم الجيش. وذلك لما رآه
من آثار الفرنسيين بمصر، ولما شاهده من دورهم الإيجابي أثناء اشتراكهم في حروبهم مع
الترك والإنجليز، فاستعان بفرنسا وبعض دول أوروبا في إدخال المدينة الأوروبية في بلاده.
وأخذ في تعليم المصريين، فأنشأ مدارس متعددة، واستقدم طائفة من علماء فرنسا
للتدريس والتأليف. وأنشأ صحيفة الوقائع المصرية والمطبعة المصرية وغير ذلك من معالم
الثقافة والنهوض.

وأخذ محمد علي يرّي من أبناء الوطن والأجانب الساكنين في مصر من يكون خير
واسطة لنقل معارف الأوروبيين إلى مصر. فبعث ثلاثة بعثات علمية في أزمنة مختلفة إلى
أوروبا للتخصّص في مختلف ميادين العلم والثقافة، وهي التي كوّنت فيما بعد ثلاث طبقات
من المفكرين والعلماء والأطباء والمهندسين والضباط والصحافيين والإداريين وغيرهم من
أرباب فنون الثقافة وميادينها بمصر. وبذلك دبّ على اللغة العربية ديب الحياة، على أن
آدابها بقيت في أيدي العفاء لأن سياسة محمد علي كانت تصرف همّتها إلى العلوم الحربية

والطبيّة والصناعية والرياضية. وحاول محمد علي أن يجعل اللغة التركية أساسيةً أو شبه أساسيةً في التعليم والسياسة والإدارة فتعذر ذلك عليه.

■ أثر إسماعيل باشا في تكوين النهضة

لقد توقّف تيار مجهودات محمد علي مع موته. حيث رقدت ريجها في زمن عباس باشا الأول وزمن سعيد باشا لرغبة هذين الأميرين عن العلم والتعليم. ثم تحرّكت رياح الثقافة لما قعد إسماعيل باشا على العرش فأنشأ للعلوم والهندسة والطب والحرب مدارس خاصة بها. وأعاد إرسال البعثات إلى أوروبا، وأسّس وزارة المعارف. وكثرت المطابع والمدارس في أيامه إلى جانب غير قليلٍ من معالم الثروة الحضارية. فما لبثت مصر أن أصبحت رخاءً طيبةً. وقد أدرك إسماعيل أكثر رجال البعثات العلمية الذين رباهم جدّه على قيد الحياة، فاتخذ منهم المدرسين ورؤساء الإدارة والمستشارين. وظهرت ثمرة أعماله في حياته، حتّى أوشكت مصر أن تكون قطعة من أوروبا كما قال هو في بعض حديثه.

■ أثر السوريين في تكوين النهضة

وقد تزامنت حركة محمد علي باشا لإدخال المدنيّة الغربية في بلاد مصر مع امتداد نفوذ دعاة المسيحية من الأمريكيّين والفرنسيّين وغيرهم في الشرق الأوسط. فهاجر كثير ممن تنصّر من أهل سوريا إلى مصر وانتظموا في سلك الحكومة والمدارس المصرية. ودخل كثير منهم مدارس المبشرين، فدرسوا العلوم والفنون، وألقوا الكتب باللسان العربي وغلب عليهم الأدب من الشعر والكتابة وترجمة الروايات الأدبية. واتخذوا ذلك صناعة يتكسّبون بها في الشام ومصر، فعاد ذلك على القطرين بالتقدم في الفصاحة وسعة الخيال وحرية الفكر والإدارة.

■ أثر الأزهر في بث العلم

يعتبر الأزهر أول جامعة في العالم العربي لنشر الثقافة العربية والتراث الإسلامي. وسمّي بالأزهر إشارة إلى لقب فاطمة الزهراء رضي الله عنها وذلك ناشئ عن الروح الشيعي الذي كان يدافع عنه بعض حكام مصر في ذلك الحين. وكان أول أمره مسجدًا عاديًا، ثم

أقيمت فيه الحلقات الدراسية. ثم أدخل عليه التنظيمات والتطورات الإدارية والدراسية طورًا بعد آخر حتى أصبح جامعة عريقة بالوصف الحضاري المعاصر.

وكان في عهد محمد علي يغشى الأزهر عددٌ كبير من أبناء المصريين وغيرهم، وكذلك جاور الجامعة بعض من تمكّن في العلم من خريجها وبعض أعضاء البعثات العلمية للتدريس والبحث في مختلف ميادين الثقافة الإسلامية. فساهموا في تدريس علوم اللغة العربية والآداب القديمة والحديثة إلى جانب العلوم الدينية. وصارت لهم دولة علمية منتظمة ومتحضرة. وتُقْبَلُ منهم كلما يحسنونه من نتيجة كدهم وثمره أفكارهم بقبول حسن. فالتفوا حول الأزهر الذي صار دولة للكتاب والشعراء والفنانين والمفكرين والنقاد وغيرهم من أرباب فنون المعرفة وميادين الثقافة.

■ أثر الاحتلال البريطاني في التعليم

لقد دبت على مصر حملة الاستعمار البريطاني سنة ١٨٨٢م. وأخذ الإنجليز منذ أن اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب النهضة ويوجهون عنان التعليم إلى وجهة سلبية. فأغفلوا البعثات، وأغلقوا المدارس، وأبطلوا الأنظمة، وأهملوا اللغة العربية، وجعلوا اللغة الإنجليزية لغة التعليم في المدارس.

ولكن الأمة المصرية استطاعت أن تقف على رجليها، وتكافح من أجل حرية الشعب المصري. فهبَّ رجالها يطلبون سيادة لغتهم في بلادهم، وإحياء عوامل النهضة. وأنشؤوا الجمعيات للوعي القومي. وتابع ذلك جهاد الشعب في سبيل حرية بلاد مصر بأسلحة الوطنيين الكفاحيين وألسنتهم. كما طفق رواد الوعي القومي يكتبون المقالات وينظمون القصائد حول الاستقلال والحرية.

■ عوامل النهضة الأدبية الحديثة

كان من آثار الاحتلال الفرنسي في مصر ونزعة الاستقلال في عهد محمد علي أن أشرقت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة في آفاق مصر ولبنان وغيرهما من الدول العربية. وأدى ذلك إلى إحداث تعديلات حساسة في نظم الإدارة والتعليم والسياسة

وغيرها من ميادين الحياة. وساعدت عوامل متعددة في إيصال ركب هذه النهضة الحديثة إلى العالم العربي. فهي بمثابة الجسر الذي بات نقطة اتصال بين العالمين العربي والغربي ثقافياً. ومن أهم تلك العوامل وأكثرها ظهوراً ما يلي:

أ/ اتصال العرب بالغرب

اتصال المدينة الغربية بالمدينة الشرقية عن طريق حملة نابليون. وبتضافر عدد دعاة المسيحيين من الأمريكيين البروتستانت والكاثوليك وغيرهم إلى بلاد الشرق. فقد كان من أعمالهم تبنيهم اللغة العربية في أول أمرهم كاللغة الرسمية لنشر تعاليمهم وآدابهم. وكان لعملهم في سوريا أثر أبين منه في مصر. فقد أنشؤوا المستشفيات والمدارس وانتظم فيها كثير من نصارى العرب في الشام. وتخرج في مدارسهم عدة طبقات من المثقفين ممن كان لهم الفضل في نشر اللسان العربي وتوسيع دائرة وعلومه وآدابه.

ب/ المدارس

أنشأ محمد علي وإسماعيل باشا المدارس النظامية المتعددة بمساعدة الأوروبيين، ثم علماء مصر. وتم تقسيمها إلى مراحل من ابتدائية وتجهيزية واختصاصية. ووصل محمد علي بينها وبين أوروبا، يجلب العلماء ويبعث البعثات. وأعظم هذه المدارس خدمة للغة العربية وآدابها مدرسة دار العلوم. فقد تخرج في هذه المدرسة مئات من المعلمين والقضاة والمحامين وكتاب الدواوين، وترى على أيديهم إما مباشرة وإما بواسطة جميع متعلمي العصر الحاضر. وفيهم أفاضل الأمة المصرية والعربية من محرريها وكتّابها وقضاةها ومحاميها وشعرائها ومفكرها وغيرهم. وبكفي دليلاً على إثبات هذا الفضل لمدرسة دار العلوم ما أورده الشيخ محمد عبده في كلمته خلال حفلة المتخرجين لطلابها حيث قال: "لو أن باحثاً مدققاً أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكانٍ ووجدها تحيا في هذا المكان".

ومن المدارس التي يشهد فضلها أيضاً مدرسة الألسن التي أنشأها محمد علي لتدريب المترجمين لنقل الكتب الطبية والعسكرية إلى العربية. وكذا مدرسة الطب لخدمة

الجيش، وقد أقيم بجانب هذه المدرسة مستشفى لتمرين الطلاب ومعالجة المرضى. وكان مدرسوها يلقون محاضراتهم باللغة الفرنسيّة ويترجمونها في الوقت نفسه إلى اللغة العربية. وأدى ذلك إلى ازدياد عدد المستعربين بأوروبا والشرق من العلماء والباحثين المتخصصين في المشرقيات والآداب والتاريخ والكلاسيكيات والأديان والفلسفة وغيرها من الفنون ذات الصلة باللغة العربية.

ج/ البعثات العلمية

ومن العوامل التي لعبت دوراً بارزاً في إحياء اللغة العربية وعلومها أعضاء البعثات العلمية الذين أرسلهم محمد علي باشا وإسماعيل إلى فرنسَا وألمانيا وبريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية لتلقي العلوم المختلفة والتخصص في شتى الفنون. فقد تمّ - على يد رجال تلك البعثات - نقل غير قليلٍ من الكتب الجليلة إلى اللغة العربية مما أهل للغة العربية انقلاباً هائلاً وتطوراً ملموساً، وتكسّبت سعة الأغراض والمعاني والألفاظ العلمية والأساليب الأجنبية وطرق البرهنة والاستنباط وترتيب الفكر. وعهد إلى هؤلاء الأساتذة ومن سبقهم ومن لحقهم من الأوروبيين إنشاء المصانع الوفيرة والمدارس الكثيرة ملكية وحرية وإدارية وغيرها.

د/ إدخال اللغات الأجنبية

لقد شاع تعلّم اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسيّة وغيرها من اللغات الأوروبية الحديثة في بلاد العرب. وجُعِل تعليمها إجبارياً في مصر والشام في المدارس الحكومية ومدارس الرهبان والمبشرين. فنشأ من ذلك نقل كثير من المعاني وأساليب اللغات الأوروبية التي يقبلها الذوق العربي السليم إلى اللغة العربية. واتسعت أغراض القول فيها، وترجم من تلك اللغات الأوروبية ألوف الكتب والروايات والمقالات السياسية والعلمية والأدبية إلى اللغة العربية واستفاد العرب هم ولغتهم من ذلك الشيء الكثير.

ه/ المطابع العربية

سجل التاريخ اسم الألماني حنا جوتنبيرج كأول من اخترع الطباعة بالحروف، وذلك في القرن الخامس عشر الميلادي، وما كادت الطباعة بالحروف تنتشر في المدن الأوروبية حتى صيغت منها قوالب اللغات الشرقية. ثم أخذت المطبوعات باللغات الشرقية - ولاسيما العربية - تصدر عن أكثر العواصم الأوروبية، وخاصة ليدن وبرلين وباريس وغيرها. ثم دخلت الطباعة العربية الشرق سنة ١٧٠٨م. ومن أقدم المطابع العربية في الشرق مطبعة الجوائب في الآستانة، وهي التي تمّ فيها طبع طائفة كبيرة من عيون الكتب الأدبية. وأما في بلاد العرب فكان سبق للبنان في استعمال المطبعة بفضل دعاة المسيحية. ثم تلت مصر لبنان فدخلتها الطباعة على يد نابليون سنة ١٧٩٨م. ثم فشت فيما بعد المطابع في دمشق والقُسطنطينية وغيرها من الأمصار في بلاد العرب.

ولم يكن ليتسنى للنهضة الأدبية الحديثة أن تشق طريقها ولا لعواملها أن تؤثر أثرها إلا عن طريق المطبعة، فالمطبعة هي العامل الذي أحدث ثروة هائلة في الثقافة العامة بألوانها المختلفة. وذلك لأن الكتاب المخطوط - مهما كان شأنه - قليل العدد، ضيق النطاق، عزيز وغالي الثمن. أما الكتاب المطبوع فمن اليسير نشر الأعداد الضخمة منه وبتكاليف قليلة.

وفي الجملة فإن المطبعة قللت للراغبين مشقة اقتناء الكتب إلى حدّ لم يحلم به الأمم السالفة، فقد سهلت المطبعة على الحكومة نشر التعليم بين الناشئين وأتاحت التوسع في العلم والأدب لجميع طبقات الراغبين. كما سهلت للحكومة طرق تدبير أعمال المصالح والتدوين، وقربت مسافة الخلف بين أصناف الأمة.

ولما استولى محمد علي باشا على عرش الملك أنشأ المطبعة الأهلية ببولاق على أنقاض المطبعة الأهلية التي أنشأها نابليون. وقد طبعت نحو ثلاثمائة كتاب من الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية في العلوم الحديثة كالرياضيات والطب والجراحة والهندسة وغيرها. أما كتب الأدب فقد تأخر طبعها قليلاً، ومن أول ما طبع منها كتاب كلية ودمنة

لابن المقفع وخزانة الأدب الكبرى للبغدادي ومقدمة ابن خلدون ومقامات الحريري وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وغيرها.

وكانت معاجم اللغة من أهم الكتب المطبوعة التي جدّدت حياة اللغة العربية والأدب العربي مثل الصحاح للجوهري وقاموس الفيروزآبادي ولسان العرب لابن منظور الأفريقي والمخصص لابن سيده وغيرها. وكذلك كتب الأدب من مثل العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي. وكذلك دواوين الشعر، والرسائل القصيرة، وأمّهات كتب التاريخ كالطبري وابن الأثير وابن خلدون وغيرها.

و / الصحافة

الصحف مدارس متجولة في البلدان، ولعلها من أوسع سبل الإرشاد والتنوعية العامة، ولطالما هدّبت العقول ورَتّبت أفكار القراء. وقد لعبت الصحف دورًا هامًا في تكوين النهضة الحديثة في بلاد العرب. ويتمثل ذلك في بثها للأحداث والآراء والمقالات والإنتاجات الأدبية على الشعب. وكذلك قيامها بنقد القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية والفنية عن طريق العمودات والشروح والتفاصيل التي يكتبها الصحفيين والمساهمين وغير ذلك مما أكسبها لقب كلب الحراسة المشهور.

وأول جريدة عربية هي الوقائع المصرية التي صدرت سنة ١٨٦٨م. وعُهد تحريرها إلى الشيخ حسن العطار والشيخ عبد الكريم سليمان والشيخ محمد عبده. وحرّر أول عددها بالعربية والتركية، ثم اقتصرت فيما بعد على اللغة العربية، ثم صارت تطبع نسخ بالعربية ونسخ بالفرنسيّة. وكانت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع.

وكانت صحيفة الجوائب لصاحبها أحمد فارس أول جريدة عربية ظهرت في القُسطنطينيّة سنة ١٨٦٠م، في حين أن أول جريدة في سوريا هي جريدة سوريا الرسمية سنة ١٨٥٨م. وظهرت بعدها صحيفة حديقة الأخبار التي بدأت تصدر منذ سنة ١٨٦٥م.

وكانت صحيفة وادي النيل من أوائل الجرائد التي ظهرت بمصر بعد الوقائع، وتلتها جرائد أخرى مثل الإسكندرية والزمان. ومنها صحيفة الاعتدال والفلاح والأهرام والمؤيد واللواء والعلم والجريدة والشعب وغيرها. وفي سوريا من نظائرها كثيرة.

ويعود الفضل في تقدّم الصحافة العربية ورقّيّ صناعة تحريرها والترجمة إلى اللبنانيين، لسبقهم إلى معرفة اللغات الأوروبية واختلاطهم بالأمم الغربية. وكذلك كان للمسيحيين السوريين فضل على المصريين في اتخاذ صناعة تحرير الصحف كحرفة بسوريا أولاً، ثم بمصر أخيراً. وهم أول من قام بإنشاء دور الصحف بمصر بعد الوقائع وصحيفة وادي النيل. ولكنهم لم ينفردوا بها أكثر من عقد من الزمن حتى زاحمهم المصريون في ذلك، فاشتركوا معهم في تحرير الصحف وتصحيحها وإعداد المقالات.

ومن أشهر جرائد السوريين التي كان لها جزيل الفضل في نشر الثقافة العربية وجلب انتباه القارئ والانتشار جريدة الفلاح لصاحبها سليم حموي، ولكنها احتجبت بعد موت صاحبها. وكذلك جريدة الأهرام التي أسسها سليم تقلا اللبناني وغيرها.

ز / التمثيل

لم تعرف اللغة العربية التمثيل بمعناه الحديث إلا في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي. وكان اللبنانيون أسبق الأمم الشرقية إلى اقتباسه لتخرجهم من المدارس الأجنبية ودراساتهم للآداب الأوروبية. وأول من فعل ذلك مارون النقّاش الذي مثل أول رواية عربية سنة ١٨٤٠م بعنوان البخيل.

ثم شجّع إسماعيل باشا الأدباء والعلماء على ذلك. ولما تمّ حفر قناة السويس استقدم فرقة من الفنانين من فرنّسا، ومثلت رواية بالفرنسية كجزء من احتفالات فتح القناة. وورد مصر على إثر ذلك جماعة من الممثلين من لبنان، فمثلوا في الإسكندرية بضع روايات على المسرح سنة ١٨٧١م.

ولم يكن التمثيل في أول أمره بمصر شعبياً، وإنما كان أوتوقراطيّاً، لا يحضره إلا الأمراء والحكام وأصحاب الجاه. فلمّا بُني في الإسكندرية دار العادات أصبح للجمهور.

وكان التمثيل في أول أمره بعيداً عن الذوق الفني ومؤسسا على الجون والغناء لجهل كثير من الممثلين بصناعتهم، وقصور احترافهم، وضعفهم في اللغة العربية الفصحى، وسوء اختيار القصص الممثلة. فقد كان أغلبها غير ملائمة لتقاليد الأمم الشرقية والمجتمع الإسلامي. فتنكّر منها الشعب ولم تعد بعد بالعرض المطلوب منها.

ح / المكتبات

بدأ العصر الحديث والتراث العربي الذي خلفه السلف من علماء العرب ومفكرها وكتابها مبعثراً في خزانات المساجد وقصور الملوك. فلما انتشرت المطابع، وازدادت عدد الكتب، وقويت الرغبة إلى جمعها وتيسير الاطلاع عليها، أدى ذلك إلى إنشاء المكتبات العامة. وكان من أوائلها وأهمها دار الكتب المصرية التي دعى إلى إنشائها علي مبارك. وكانت تضم ذخائر من كتب التراث القديم والمؤلفات الحديثة، وعلى غرار هذه الدار قامت دوراً متعددة في الوطن العربي كالمكتبة الظاهرية بدمشق، والمكتبة الزيتونية بتونس، ومكتبة القرويين بالمغرب وغيرها. وأنشأت المكتبات النوعية كمكتبة الأزهر، ومكتبات المدارس والهيئات والمؤسسات العلمية والأدبية. كما أنشأت دور الكتب في حواضر الأقاليم.

وقد ارتبط بإنشاء دور الكتب إحياء التراث العربي القديم، فبدأت ثروة حارة جديدة إثر المكتبات في القاهرة وبَيْرُوت ودمشق وبغداد وتونس وسائر أمصار الدول العربية وغيرها. وشارك في ذلك بعض العلماء من الهند وغيرها من الدول التي تعتبر من أصحاب المصلحة للتراث العربي وأدبه. وساعدت المكاتب على إحياء الثقافة ونشر ألوان المعرفة وتنشيط الحركة في البحث والتأليف والترجمة وتيسير الاطلاع على الكتب لمن قد يفوتهم الحصول على المراجع أو يصعب إلا تحت سقوف تلك المكاتب.

ط / الترجمة

استقدمت مصر أساتذة أجنب وكذا الطلاب من غير الناطقين باللغة العربية، فأدى ذلك إلى ضرورة الترجمة، وكذلك الحاجة إلى ترجمة الكتب المنقولة من علوم الغرب،

والإعلام والعلاقات الدولية وغير ذلك من الأسباب. وقد قام المترجمون من المغاربة والسوريين بجهدٍ مشكورٍ في إحياء التراث العلمي العربي عن طريق الترجمة. ومن ذلك عنايتهم باستخراج مصطلحاتٍ علميةٍ جديدةٍ، وترجمة طائفة من الكتب العلمية في الطب وغيره من العلوم إلى العربية. ثم توالى إرسال البعثات إلى الدول الأوروبية لهذه المهمة، فأُرسل طبقات من البعثات لتدريبهم على صناعة الترجمة في جامعات فرنسًا وألمانيًا وهولندًا وغيرها من الدول الأوروبية وقاموا بعد عودتهم بمجهودات جبارة في ميدان الترجمة.

ثم ازدادت حركة الترجمة نشاطًا نتيجة لهجرة كثيرٍ من السوريين إلى مصر، ونتيجة لظهور جيلٍ جديدٍ ممن تخصصوا في اللغات الأجنبية. فانطلقت الترجمة إلى ميدان الأدب، وتضاعفت عدد الكتب الأدبية والإنشائية المترجمة، كما ازدادت عدد القصص والمسرحيات المترجمة.

ي / المجمع الأدبية

تم إنشاء المجمع العلمية والأدبية في بعض الدول العربية ولعبت هذه المجمع دورًا ملموسًا في تكوين النهضة الأدبية الحديثة. ومن أهم المجمع التي خدمت اللغة العربية وآدابها ما يلي:

١ / المجمع العلمي بدمشق

كانت سوريا أسبق الدول العربية إلى إنشاء المجمع العلمية. وقد أنشأ هذا المجمع سنة ١٩١٦م بعد دخول الأمة السورية في وصاية فرنسًا لأغراض تدور حول مسائل إحياء الأدب العربي وتلقين أصول البحث والدراسة لنبهاء الدارسين. وعني المجمع بوضع المصطلحات العلمية الحديثة، وإصلاح بعض الأوضاع الإدارية، وتقويم لغة الدواوين، وتصحيح بعض أغلاط الكتاب والشعراء. وأصدر المجمع مجلة لنشر دراسته ومحاضراته ومقالاته. وانضم إلى هذا المجمع صفوة العلماء والأدباء في الشام والعراق ومصر وطائفة من علماء المشرقيات الأوروبيين.

تم إنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٣٢م تابعاً لوزارة التربية والتعليم. وكان الغرض منه الحفاظ على سلامة اللغة العربية، لتكون وافية لمطالب العلوم والفنون في تقدمها. وعُهدَ إلى المجمع مهمة القيام بوضع معجمٍ تاريخيٍّ للغة العربية، ونشر الأبحاث الدقيقة الحديثة في تاريخ بعض الكلمات وأطوار تغير مدلولاتها، وتنظيم دراسة علمية للجهات العربية الحديثة في مصر وغيرها. كما كان من المتوقع أن يعين المجمع اللغة العربية على التقدم في العلوم الحديثة. وأن يبحث في كل ميدان علمي له صلة أو شأن بتقدم اللغة العربية. وكان المجمع مؤلفاً من أربعين عضواً عاملاً يتم تعيينهم من بين العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية، وعشرين عضواً مراسلاً في مختلف البلدان الغربية.

وقد بذل المجمع مجهودات خالدة في وضع المعاجم اللغوية وتهذيب المصطلحات وإصدار الأبحاث القيمة في فقه اللغة العربية وتاريخها وعلوم لهجاتها وآدابها وسائر الفنون التي لها صلة باللغة العربية من قريب أو بعيد.

ك/ الاستشراق

يراد بالاستشراق في العصر الحاضر دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأمه ولغاته وآدابه وعلومه ومعتقداته وأساطيره. ويسمى المتخصص في ذلك بالمستشرق، فكأن الكلمة تقول إنه صار شرقياً. وبدأت حركة الاستشراق منذ القرن العاشر الميلادي متمثلة في إقبال فريقٍ من علماء الغرب على دراسة لغات الشرق وعلومه وتقاليده وتاريخه. ومضت هذه الحركة تعلو حيناً وتنخفض حيناً آخر حتى كان القرن التاسع عشر الميلادي الذي شهد اهتماماً خاصاً بحركة الاستشراق من قبل الدول الغربية. فقد أخذت الأمم الغربية تنشأ المعاهد لتعليم اللغات الشرقية وإعداد المستشرقين. وعالجوا بحوثاً مختلفة حول بلاد الشرق وتاريخ الشرقيين ومدنيتهم وأخلاقهم وعاداتهم وشرائعهم، وعلومهم وكل ما يتصل بهم.

على أن الاستشراق لم يبق محصوراً في دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومدنيّة الشرق، بل تعدى ذلك إلى أغراض تجارية واستعمارية ودينية واستخبارية. فقد أقبلت الأمم الأوروبية القوية متنافسة في التعرف على الشرق وارتداد أقطاره، وكشف آثاره، وفتح كنوزه، وإحياء أدبه، وطبع آثاره.

ولا شك في أن للمستشرقين أثراً بعيد المدى في ترقية أسباب التقدم والبحث العلمي في اللغة العربية وعلومها وآدابها عن طريق تأسيس المطابع، وإنشاء المكتبات، وتأليف الجمعيات، وإقامة المؤتمرات، وإصدار المجلات، وتحقيق المخطوطات، ونشر نفايس الكتب والعناية بها، وإحسان طبعها، والقيام بالدراسات القيمة، والبحوث المحررة حول اللغة العربية وآدابها وعلومها حسب مناهج البحث العلمي الحديثة وقواعد النقد العلمي الدقيق، وتدريب أبناء العرب، وغير ذلك من النشاطات والخدمات التي قدمها المستشرقون للغة العربية والعرب حتى أصبحوا قدوة لمعلمي اللغة ومورخي الأدب والباحثين من العرب.

وعلى الطرف الآخر، فقد سجل التاريخ الدور السليبي الذي قام به بعض الأهوائيين من المستشرقين من تضليل القارئ بأبحاثهم التي شوّهوها بالذاتية واتباع الهوى ومجانبة الإنصاف والافتراءات الخالية من الأصالة خلال معالجتهم بعض القضايا الحساسة التي تمس تاريخ الإسلام وسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفتوحاته وشريعته وصحابته وغير ذلك، الأمر الذي جعل العلماء في العالم الإسلامي يحذرون من الاعتماد المطلق على ما كتبه هؤلاء المضلون في الدراسة والبحث والمرجعية.

ومن أشهر المستشرقين البارعين سَلِيسْتَرُ دِي سَاسِي الفرنسي، وجان جاك برتلمي الفرنسي، ويوسف ويت الإنجليزي، وفريتاغ الألماني، وهربلوت الفرنسي، وفرديناند وستفيلد الألماني، وفان فلوتن الفرنسي، ودأبيد سنثالانا الإيطالي، ورازموسن الدينمركي، ورؤبارت نكولسون الإنجليزي، والسيد شرل جيمس ليال الإنجليزي، والدكتور مرتين هرتمان

الألماني، وكازمُرسكي البولوني، ومارسلُ الفرنسي وغيرهم كثير ممن لهم أعمال علمية ذات الأثر الإيجابي على اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى جانب آثار أخرى سلبية.

■ مشاهير الأدباء في عصر النهضة الأدبية الحديثة

/أ/ أحمد شوقي

هو أحمد شوقي بك. ولد بالقاهرة سنة ١٨٦٩م. ونشأ بها، وتعلّم في مدارسها الابتدائية والثانوية، ثم تقدّم إلى مدرسة الحقوق، وعدل إلى قسم الترجمة الذي كان قد تم إنشاؤه قبل قليل، ف قضى فيه عامين، وتخرّج. وكان لأسرته اتصال بالقصر فأرسل إلى فرنسًا لإتمام دراسته في الحقوق والآداب. ولما عاد إلى مصر، استمر يتدرّج في المناصب حتى تولى رئاسة القلم الإفرنجي في عهد عباس الثاني. ثم نفتته الحكومة الأجنبية إلى برشلونة بعد أن احتلت القوة الإنجليزية عرش الملك في مصر. ولما عاد إلى مصر بعد أن وضعت الحرب أوزارها، انصرف بشعره إلى الشعب، يذود عن حوضه ويهتف بمجده، بإخلاص وجهد كبيرين. وقد بذل شوقي في سبيل الشعر عقله وماله وجاهه حتى اعترفت له العرب بالإمامة في الشعر، ودان له الشعراء في عصره ووفدوا إليه من الأقطار البائدة، وأقيم له مهرجاناتًا لتكريمه، واشترك فيه أرباب الأدب من رجال مصر وأقطاب سائر الدول العربية. فأكرموه وبايعوه أميرًا للشعراء. حتى قال حافظ إبراهيم في مطلع قصيدة مدحه بها يومئذ:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

ويُعدُّ شوقي أسطورة ومن أشهر الشعراء في عصره، وكان ذا خيالٍ رائعٍ وفكرٍ خصيبٍ. ويكاد النقاد يجمعون على أنه زعيم الشعراء في العصر الحديث وإمام النهضة الشعرية الحاضرة وقائدها. قال الشعر منذ صبايته ونبغ. وتفتن في فنونه ومناخه. ونظمه في كل غرض فأعجب.

وكان فخم العبارة، صافي الديباجة، رقيق الألفاظ، دقيق الحس وقويّ الروح. كان يُعني عناية كاملة بألفاظه ويهتم كثيرًا بأساليبه. كما كوّن لنفسه معاني جديدة وأفكارًا دقيقة في عباراته. وكان لا يتحمل الانتقادات، فكثيرًا ما ينفعل لهجمات أنصار التجديد من

النقاد، كالدكتور طه حسين الذي كان يهاجم أعمال شوقي الأدبية بعنف وذاتية وهو والأستاذ عباس محمود العقاد.

وكان محافظاً في فنه، إلا أن المحافظة لم تمنعه من الإنتاج على الأساليب الحديثة، فقد نظم في الشعر القصصي والتمثيلي والملحمي. وله نشر لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن. وقد ترجم حياته بقلمه في صدر ديوانه الذي جمع فيه كثيراً من أعماله الأدبية وسماه بالشوقيات. ومن آثاره الأدبية مسرحيتي ليلي ومجنون ومصراع كُلوياًتراً. وله أيضاً كتاب الذهب ودول العرب ووادي النيل وغيرها. ومات سنة ١٩٣٢م. ومن شعره في وصف الطبيعة ما يلي:

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري	حتى أريك بديع صنع الباري
الأرض حولك والسماء اهتزتا	لروائع الآيات والآثار
من كل ناطقة الجلال كأنها	أم الكتاب على لسان القاري
دلت على ملك الملوك فلم تدع	لأدلة الفقهاء والأخبار
من شك فيه فنظرة في صنعه	تمحو أثيم الشك والإنكار
كشف الغطاء على الطرول وأشرق	منه الطبيعة غير ذات ستار
شبهتها بلقيس فوق سريرها	في نضرة ومواكب وجواري
أو بابن داود وواسع ملكه	ومعالم للعز فيه كبار
هوج الرياح خواشع في بابه	والطير فيه نواكس المنقار
قامت على ضاحي الجنان كأنها	رضوان يزجي الخلد للأبرار
كم في الحمائل وهي بعض إمائها	من ذات خلخال وذات سوار
وحسيرة عنها الثياب وبضّة	في الناعمات تجرّ فضل إزار
وضحوك سنّ تملأ الدنيا سنى	وغريقة في دمعها المدرار
ووحيدة بالنجد تشكو وحشة	وكبيرة الأتراب بالأغوار
ومن شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله:	

سائل حراء وروح القدس هل علما
 كم جيئةً وذهابٍ شُرِّفَتْ بهما
 نودي اقرأ تعالى الله قائلها
 هناك أذن للرحمن فامتألت
 فلا تسل عن قريش كيف حيرتها
 تساءلوا عن عظيم قد ألمّ بهم
 يا جاهلين على الهادي ودعوته
 لقبتموه أمين القوم في صغر
 جاء النبيون بالآيات فانصرمت
 آياته كلما طال المدى جدت

مصون سرّ عن الإدراك مكنتم
 بطحاء مكة في الإصباح والغسم
 لم تتصل قبل من قيلت له بفم
 أسماء مكة من قدسية النعم
 وكيف نفرتها في السهل والعلم
 رمى المشايخ والولدان باللمم
 هل تجهلون مكان الصادق العلم
 وما الأمين على قومٍ بمتهم
 وجئنا بحكيم غير منصرم
 يزينهن جلال العتق والقدم

ب / حافظ إبراهيم

هو محمد حافظ إبراهيم. ولد بديروط من أعمال أسبوط سنة ١٨٧٠م. ومات أبوه وهو صغير، فقدمت به أمه القاهرة ونشأ بها تحت رعاية خالٍ له. وأُدخِل المدرسة الابتدائية ثم الثانوية. ثم انتقل إلى طنطا، وقضى بها بضع سنين متبطلاً. فطفق لا يفتؤ متبرماً بالعيش، متأففاً بالناس، متجنّباً على القدر لا يقول الشعر إلا في هذه المعاني. ثم دخل المدرسة الحربية، وتخرّج فيها ضابطاً، ثم نُقل إلى قسم الشرطة، ثم أعيد إلى الجيش. وأشخص إلى السودان فبقي هناك زمناً لا بنفك فيه متبرماً متمرداً، وثار في نهاية المطاف مع بعض الضباط سنة ١٨٩٩م، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع، ومنه إلى المعاش. فعاد حافظ كما كان، يضطرب في الحياة المبهمة، لا يطمئن لعمل ولا يستقر على أمر، حتّى عُيّن على القسم الأدبي بدار المعارف سنة ١٩١١م، ثم وكيلاً للدار، وظل على هذا المنصب حتّى تقاعد سنة ١٩٣٢م، وتوفي صيف السنة نفسها.

وكان حافظ شاعراً نبيلاً، وكاتباً كبيراً، ومؤلفاً قديراً، وراويّةً بصيراً. وكان دمث الأخلاق، كثير المواساة لأصحابه، شديد التعصب لأمثاله ممن شملهم البؤس وتغمدهم سوء

الحال في المعيشة. وكان كريماً، سمحاً وجواداً. وظهر أثر ما يحفظه من الشعر الكثير واضحاً في شعره، فقد كان جزل الألفاظ والأسلوب، متين التراكيب ونقي الديباجة. وكان لشعره روعة التراكيب، يميل إلى تنقيح العبارة وتهذيبها، والاحتفال بتجويدها وتزيينها، ويهتم بها أكثر من اهتمامه بجانب المعاني. واشتهر حافظ إبراهيم بشكوى الزمان والقول في السياسة والحياة الاجتماعية وكل ما يتصل بالشعب المصري، ولقب بشاعر النيل. ومن شعره الأبيات التالية من قصيدة له سماها بميت غمر:

سائلوا الليل عنهم والنهارا	كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم	وكيف اصطفى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدارٍ	يتداعى وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أنحى عليهم	فاكشف الكرب واحجب الأقدارى
ومر النار أن تكف أذاها	ومر الغيث أن يسيل انهما را
أين طوفان صاحب الفلك يروي	هذه النار فهي تشكو الإوارى
أشعلت فحمة الدياتي فباتت	تملؤ الأرض والسماء شرارا
غشيتهم والنحس يمشي يمينا	ورمتهم والبؤس يمشي يسارا
فأغارت أوجه القوم بيض	ثم غارت وقد كستهم قارا
أكلت دورهم فلما استقلت	لم تغادر صغارهم والكبارا

ومن شعره أيضا ما يلي في الحديث عن تربية البنات:

من لي بتربية النساء فإنها	في الشرق علة ذلك الأخلاق
الأم مدرسة إذا أعددتها	أعددت شعبا طيب الأعراق
أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا	بين الرجال يجلن في الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازعٍ	يحرزن رقبتهن لا من واق
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا	في الحجب والتضييق والإرهاق
فتوسعوا في الحاليتين وأنصفوا	فالشر في التقييد والإطلاق

ربو البنات على الفضيلة إنها في الموقفين لهن خير وثاق

ج/ حفني ناصف بك

هو محمد حفني ناصف بن إسماعيل بك. ولد يتيمًا وفي عائلة فقيرة بضاحية من ضواحي القاهرة تدعى بركة الحاج سنة ١٨٥٦م. فكلفه خاله وجدته أم أبيه. وأدخل كتاب القرية، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ شيئًا من القرآن، ثم غادر القرية لينجو من معلّم كان يفرط في ضربه، ففرّ ماشيًا على قدميه إلى الأزهر ومكث في القاهرة مدة طويلة، جود خلالها القرآن وحفظه. كما حفظ كثيرًا من المتون ودواوين الشعر، وتعلم الفقه على مذهب الشافعية، وأتقن علوم اللسان العربي، واشتغل بالشعر والأدب فبرع فيهما، حتّى أصبح أحد الشعراء البارزين في الأزهر.

وقد عُيّن لتدريس اللغة العربية في المدارس الأميرية، ثم مدرسة الحقوق، واستغل هذه الفرصة ليشارك طلبته في دراسة القانون، فدرس القانون وترك التدريس. وانتخب كاتبًا للنائب العمومي. ثم عُيّن قاضيًا في المحاكم الأهلية، وارتقى عبر المناصب في وزارة العدل حتّى صار وكيلًا لمحكمة طنطا. وفي هذه الأثناء انتدب لتدريس الأدب العربي في الجامعة المصرية. فألقى فيها محاضراتٍ ممتعةً جمّعت في كتاب خاص. ثم أصبح وزيرًا للمعارف، فازدهرت دولة الأدب العربي واعتز جانب اللغة جراء ما قام به من الإصلاحات والتنقيحات خلال فترة وزارته. وتوفي سنة ١٩١٩م.

يُعدُّ حفني ناصف أحد أركان النهضة الأدبية المصرية الذين أحيوها بأبحاثهم ومؤلفاتهم وقصائدهم. وكان من أطيب خلق الله حديثًا وأخضرهم جوابًا. فقد كان فكه الحديث، مليح النادرة وحاضر البديهة. وكان شاعرًا فاضلاً، كاتبًا مجيدًا وزعيمًا لطبقته. كما كان النابغون من الأدباء بعده عيالاً على أسلوبه. ومن أقواله هذه الرسالة التي وجهها إلى بعض أصدقائه تهنئة وعتابًا، ويقول فيها:

نهني السيد، أدام الله سيادته، ورفع على مكان السها مكانته، وحقق كما قضى بعزته ورفعته وسعادته بعيد الفطر، واستهلال شوال، بل نهني الهلال باستقبال الكمال،

حيث قابل مطلعته مطلعته، ووازي بغرته غرته، فقلنا إنه يتعرض لسقوط أشعة محياه على مرآته الوضيعة، ليقود مع توهج سناه مشكاته، ونعقب السيد إذ جعل العيد مستقر عاداته، ولو شاء لجعله في رمضان بزيارته

ما انقضاء الصيام عيد ولكن يوم ألقاك يا سليمان عيد

وكنت تخيلت أن تقارب الديار يدني المزار، ولكن بمثل هذا التخيل لا يرتفع الواقع على أن قرب الديار ليس بنافع. أما كان يحسن أن نكتب ونرسل إذا لم نواصل؟ أو أن تعود مريضاً في الهوى دنفا، ما كنت أعهد هذا يا ابن عباد.

هب أي لست هنا أو أن لا مودة بيننا. أما كان يجمل أن تحمل ركابك وتزور أصحابك؟ فأين المواثيق والعهود على قطع علائق الصدور؟ وأين ما كنا نسمع أن سليمان من آل داود؟ على مجرد فرض وتقدير محض! وإلا فأين وحدة المطلب واتحاد المشرب؟ وذمم المعارف وشهود الموافق؟ ومتى نسيت الأحرار حقوق الجوار؟ وأقل العتاب، فإن شرحه محتاج لإطناب، والسلام.

ومن شعره ما يلي في خطاب أحد الرؤساء:

أحييت آمالي وكنت أمتها	من طول ما لاقيت من إخواني
أدلي بإخلاصي لهم وأذود عن	أعراضهم بجوارحي ولساني
محضتهم وُدِّي فلما أيسروا	كانت بداية أمرهم نسياني
حسبي من الدنيا صديق ثابت	فرد فكنه ولا احتياج لثان

د / البارودي

هو محمود سامي بك بن حسني البارودي. ولد بالقاهرة سنة ١٨٣٩م. وتربى على نعمة أبيه الذي كان من حكام عهد محمد علي باشا. ولكن والده توفي والشاعر في السابعة من عمره، فقام بعض أقاربه بتربيته. وتدرّج في التعليم حتى تخرّج في الكلية الحربية ضابطاً. وكان مولعاً بالشعر ومحباً للشعراء منذ صغره، فكان يحفظ الكثير من شعر العرب القديم، ثم فاض ما حفظ على لسانه فانطلق منه برائق الشعر في أغراض مختلفة ومضى

يتفنن حتى أصبح شاعرًا عظيمًا قديرًا. تعلم اللغات الإنجليزية والتركية والفارسية وأجادها، وتصلح في آدابها. وعمل في مختلف الإدارات، وتدرّج في الرتب الحربية حتى سما إلى رتبة اللواء.

وهو أول من فتح باب الثورة ضد الاستعمار بمصر، فنفاه الإنجليزيون إلى إسبانيا نحو سبعة عشر سنة. ثم عُفي عنه فرجع إلى مصر. وقضى - بعد رجوعه - بضع سنوات في القراءة والكتابة والتأليف والنظم. ووافته المنية سنة ١٩٠٤م بعد أن كف بصره قبيل موته.

كان له الفضل الأول في إحياء الشعر العربي من وجلة موته إثر عصر الانحطاط. وقد تأثر في شعره بابن المعتز وأبي الفراس والشريف الرضى وغيرهم من نبلاء الشعراء السالفين. فخرج شعره بديعًا رائعًا، وأوصل الشعر العربي إلى الدرجة العالية. وكان يهتم بالألغاز والأساليب أكثر من اهتمامه بالمعاني، وعُني بالوصف والفخر والحماسة. ومن آثاره مختارات البارودي وهو مجموعة من القصائد اختارها لثلاثين شاعرًا من شعراء العصر العباسي. وله ديوان شعر في جزئين. ومن شعره ما يلي:

برزت في سحر البيا ن وشاب فيه مفرقي
وقضيت عمري في البلا غة سابقا لم ألحق
وخدمت ديوان المعاف رف مخلصا يتشوق
والآن أذن بالرحيل مؤذن لم بشفق
عشرون يوما قد بقين وبعدها لا نلتقي
فتبلغني يا نفس بالمفروض للمسترزق
فات الكثير من الحيا ة وقل منها ما بقي

ومن آثاره أيضا قوله في قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى، وذلك حين مرّ بقصر الجزيرة فتذكر عهد إسماعيل فقال:

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع هيهات قد ذهب المتبوع والتبع
هذي الجزيرة فانظر هل ترى أحدا ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع

أضحت خلاء وكانت قبل منزلة
للملك منها لوفد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ
ولا سميع إذا ناديت يستمع

هـ / الرافعي

هو مصطفى صادق الرافعي. ولد سنة ١٨٨١م في أسرة سورية الأصل استقرت بجوار النيل حيث ولد. ولم يتم دراسته الأولى لعائقٍ صحِّيٍّ ألمَّ به وأورثه عاهة الصمم، وعَوَّضَ هذا النقص بالاعتماد على نفسه، فتابع حياته بالقراءة الدائمة في مكتبة والده التي كانت تضم ذخائر من كتب الدين والأدب. وكان محبًّا للاعتكاف في بيته دون الاختلاط بالناس، وربما كانت إصابته بآفة الصمم مما اضطره إلى ذلك فضلا عن ميلٍ فطريٍّ في الخلود للنفس والأهل. وساعده ذلك على الاطلاع الدؤوب وقراءة كثيرٍ من كتب الأدب والدين. كما مهد له ذلك جوًّا هادئًا للكتابة والتأليف. وتوفي الرافعي سنة ١٩٣٧م.

وكان محافظًا ومتعصبًا للقديم، وكثيرًا ما هاجم أنصار التجديد في الأدب العربي أمثال الأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين وغيرهما بقلمه، وناقشهم بعنف وتعنّت. وقد دارت بين الطرفين معارك نقدية على صفحات الصحف والمجلات المصرية.

وكان الرافعي متمسكًا بالدين غيورًا عليه، كما كان ذا أخلاقٍ فاضلةٍ، وداعيةً إلى التمسك بأخلاق السلف ونبذ ما جاءت به الحضارة الأوروبية من عادات وتقاليد تغاير عادات المجتمع الإسلامي وتقاليده. كما كان يدعو إلى حفظ اللغة العربية الفصحى والأدب العربي القديم.

يعتمد الرافعي في كتابته على أسلوبٍ خاصٍ ليس بالمرسل المطلق، ولا بالمسجوع المقيد بقيود السجع وتكاليفه الشكلية. وإنما هو أسلوب يشوبه الغموض في اختيار الألفاظ وتركيب العبارات، واستخدام الاستعارات والمجازات اللغوية. وعباراته مع ذلك عربية سليمة، فصيحة ومحركة الألفاظ. له كتاب وحي القلم وتاريخ آداب العرب في ثلاثة أجزاء. وألف جزءًا في إعجاز القرآن. ومن أقواله ما يلي في نقد الأخلاق بعنوان "ما ينبغي أن تكون عليه الصداقة". ويقول فيها:

لا أريد بالصديق ذلك القرين الذي يصحبك كما يصحبك الشيطان، لا خير لك إلا في معاداته ومخالفته. ولا ذلك الرفيق الذي يتصنع لك ويماسحك متى كان فيك طعم العسل. ولا ذلك الحبيب الذي لك في هم الحب كأنه وطن جديد، وقد نفيت إليه نفي المبعدين. ولا ذلك الصاحب الذي يكون لك كجلدة الوجه، تحمر وتصفر لأن الصحة والمرض يتعاقبان عليها. فكل أولئك الأصدقاء لا تراهم أبداً إلا على أطراف مصائبك، كأهم هناك حدودٌ تعرف بها من أين تبتدئ المصيبة لا من أين تبتدئ الصداقة. ولكن الصديق هو الذي إذا حضر رأيت كيف تظهر لك نفسك لتتأمل فيها. وإذا غاب أحسست أن جزءاً منك كان من حاضرتك. وإذا تحول منك وصلك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود. وإذا مات... يومئذ لا تقول إنه مات لك ميت بل مات منك ميت.

و / خليل مطران

هو خليل بن عبده مطران. ولد ببعلبك سنة ١٨٧٢م في أسرة عربية يتصل نسبها بالعساسنة المنحدرين من قبائل الأزدي اليمنية. وكانت أمه راجحة العقل، تهوي الأدب وتقرض الشعر، فكان لذلك أثرٌ كبيرٌ في نشأته وتكوينه. تعلم خليل في مدارس بَيْرُوت، فأتقن اللغة العربية والفرنسية. ثم تعلّم فيما بعد اللغة الإسبانية. واكتسب ثقافة واسعة في الأدبين العربي والغربي. وتلمذ على الشيخ إبراهيم اليازجي أحد حماة اللغة العربية. وفي هذه الأثناء نظم شعراً يفيض ثورة ونقمة على الخلافة العثمانية، فضيّق عليه، وأصبح في المعمورة خائفاً يترقب، فرحل إلى باريس. ولكن أيدي المؤامرات تبعته إلى هناك، فغادرها. ثم اتجه أخيراً إلى مصر واتخذ القاهرة وطناً له. ولما كان في مصر اشتغل بالصحافة والأعمال والترجمة والشعر، وعرف بالأخيرة ولقب بشاعر القطرين. ثم عُيّن رئيساً للفرقة القومية للتمثيل وظل يترأسها إلى وفاته سنة ١٩٤٩م. ومن شعره ما يلي:

ولقد ذكرتك والنهار مودع
والقلب بين مهابة ورجاء
وخواطري تبدو تجاه نواظري
كلمي كدامية السحاب أزازي

والدمع من جفني يسيل مشعشعًا
والشمس في شفقٍ يسيل نضاره
مرت خلال غمامتين تحدرًا
فكأن آخر دمةٍ للكون قد
وكانني آنست يومي زائلاً

بسنى الشعاع الغارب المتزائي
فوق العقيق على ذرى سوداء
وتقطرت كالدمة الحمراء
مزجت بأخر أدمعي لرتاء
فرأيت في المرأة كيف مسائي

ز / المنفلوطي

هو مصطفى لطفى المنفلوطي. ولد بمنفلوط سنة ١٨٧٦م. ونشأ في بيت العلم والدين. وقد حفظ القرآن مبكرًا، وتعلّم في الأزهر. وكان كثير الميل إلى علوم اللسان وفنون الأدب، فقد كان يحفظ القصائد، ويتصيد الشوارد، وينتج الشعر والرسائل. وقد بدأت أمارات عبقريته كشاعرٍ تظهر منذ أن كان طالبًا في الأزهر. وقد تقرب إلى الشيخ محمد عبده وسعد زغلول واستفاد بجوارهما.

نازع المنفلوطي الحكام ودعا للخروج عليهم. وأتمّ مرة بأنه هجا عباس الثاني، فحُوكِم، وقضى في السجن مدة. وكذلك طرده الإنجليزيون من مصر فقدم باريس، وهناك أنشأ جريدة العروة الوثقى التي كانت كمنارٍ احترقت وكشفت عن مخازي المستعمرين. ثم عُهد إليه بعد عودته تحرير صحيفة العدل ثم عُيّن سكرتيرًا في مجلس النواب، حيث ظل إلى أن وافته المنية سنة ١٩٢٤م.

وكان المنفلوطي أديبًا موهبًا، سليم الفكرة ودقيق الحس. وكان حسن الأخلاق، متواضعًا، ذرب اللسان وصريح القول. وكان يحمّد الله على ما وهبه به من الشجاعة. وقد جبلت نفسه على الرحمة والعطف وحب الخير للناس، فنذر قلمه ليتصدى ضد تلك المفاسد الوافدة مع حضارة الغرب، وكتب كثيرًا عن إصلاح بعض العيوب الشائعة في المجتمع الإسلامي في مصر. ومن ذلك يقول:

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسنًا، لأني لا أعتد فضلًا صحيحًا بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان. وإني لأرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره

ليتخذ إحسانه إليه سبيلا إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان. ورجل يحسن إلى نفسه، ولا يحسن إلى غيره، وهذا الشره الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهبٍ جامدٍ لقتل في سبيله الناس جميعا، ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره، وهذا البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه.

وأما الرابع الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا أعلم له مكانا، ولا أجد إليه سبيلا. وأحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني ديوجين الكلي حينما سُئل ما يصنع بمصباحه وكان يدور به في بياض النهار فقال "أفتش عن إنسان" ومن أقواله بعنوان "ذلك ما لا يكون" في نقد الأخلاق أيضا ما يلي:

أتريد أن أعتمد على غيري في حياتي؟ وأن أضع زمام نفسي في يد عظيم من العظماء أو نبيل من النبلاء؟ يسعني ويكتفيني ويكفيني مؤنة عيشي ويحمل عني هموم الحياة وأثقالها؟ فيكون مثلي كمثل شجرة اللباب، لا عمل لها سوى أن تلتف حول جذوع وتمتص مادة حياتها، بدلا من أن تعتمد في حياتها على نفسها؟ ذلك ما لا يكون. أتريد أن أحمّل نفسي كما يحمل الدلال سلعته، وأدور بها في الأسواق مناديا عليها من منكم أيها الأغنياء والأثرياء والوزراء والعظماء وأصحاب الجاه والسلطان، من يبتاع نفسها بذمتها وضميرها وعواطفها ومشاعرها بلقمة عيش وجرعة ماء؟.

أتريد أن تستمبل قامتي كأني قوس من كثرة الانحناء، وأن يتخذل أجفاني من كثرة الإطباق ومن الإغضاء، وأن تجتمع فوق ركبتي طبقة من كثرة السجود بين أيدي العظماء؟ أتريد أن يكون لي لسانان، لسان صادق أمدح به ذلك الذي متعني واجتبانني، ولسان أعد به عيوبه وسيناته، وأن يكون لي وجهان، وجه راض عنه لأنه يزود عني ويحميني، ووجه ساخط عليه لأنه يستعبدني ويستحققني؟ ذلك ما لا يكون.

أريد أن أعيش حرا طليقا، أضحك كما أريد وأبكي كما أشاء، وأن أحتفظ بصوتي رنّانا، ونظري سليما، وخطواي منتظمة، ورأسي مرفوعا، وقولي صريحا، أنظم الشعر في

الساعة التي أختارها، وفي الشأن الذي أريد، فإن أعجبني ما ورد علي منه فذلك، وإلا تركته غير آسف عليه، وأخذت في نظم غيره.

أريد أن أعيش حرًا طليقا، أناضل من أشياء وأجادل من أشياء، وأنتقد من أشياء، وأقول كلمتي الخير والشر للأخيار والأشرار في وجوههم، لا متملِّقًا هؤلاء ولا خاشعًا أولئك.

ح / إيليا أبو ماضي

هو إيليا أبو ماضي الأديب الناقد. ولد ببلنات سنة ١٨٨٩م. وعاصر مصر وهو حدث، وظل بها زمنا يمارس صناعة تحرير الصحف والمجلات. وانبثقت شاعريته إذ ذاك فنُشر له ديوان بعنوان "تذكار الماضي".

ثم هاجر إيليا إلى أمريكا الشمالية حيث أصبح هناك عضوًا ذا نشاطٍ في جمعية الرابطة القلمية التي تأسست في مدينة نيويورك الأمريكية، وساهم بإنتاجاته الأدبية والنقدية في تكوين ما يعرف بأدب المهجر. ونشر خلال هجرته ديوانين أولاهما باسم "الجداول" والآخر بعنوان "الخمائل". كما ظل مطلا على العرب والعربية من خلال مجلة السمرير وذلك حين استقر في نيويورك بعد أن غادر أوهايو.

وقد كوّن له اطلاعه الواسع على الآداب العربية والغربية مكانة ممتازة كشخصية جديدة في الشعر العربي الحديث. أما شعره فقد كان مهجريا في أسلوبه وموضوعه، واشتهر بابتعاده عن تقليد القدامى، واستحداث الموضوعات والأساليب الجديدة في إنتاجاته. وقد تناول حياة العرب وما فيها مما يراه هُمومًا وتخلُّفًا بالنقد من كل نواحيها. وكان سهل اللفظ، كثير التأمل في الحياة، متشائما ومتحررا من كل ما يراه قديما في الأدب العربي. وتوفي سنة ١٩٥٧م. ومن شعره في وصف السماء ما يلي:

السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصية الجبين
والبحر ساجٍ صامتٍ فيه خشوع الزاهدين

لكنما عيناك با.....هتتان في الأفق البعيد
سلمى بماذا تفكرين
سلمى بماذا تحلمين
أرأيت أحلام الطفولة تختفي خلف النجوم
أم أبصرت عينك أشباح الكهولة في الغيوم؟
أم خفت أن يأتي الدجى الجاني ولا تأتي النجوم؟
أنا لا أرى ما تلمحين من المشاهد إنما
أظلالها في ناظريك
تنمُّ يا سلمى عليك
فاصغي إلى صوت الجدول جاريات في السفوح
واستنشقي الأزهار في الجنات ما دامت تفوح
ومتعي بالشهب في الأفلاك ما دامت تلوح
من قبل أن يأتي زمان كالضباب أو الدخان
لا تبصرين به الغدير
ولا يلدُّ لك الخير
لتكن حياتك كلها أملا جميلا طيبا
ولتملاً الأحلام قلبك في الكهولة والصبا
مثل الكواكب في السماء وكالأزهار في الربا
ليكن بأمر الحب قلبك عالما في ذاته
أزهاره لا تدبل

ونجومه لا تأفل

مات النهار ابن الصبا ح فلا تقولي كيف مات

إن التأمل في الحياة يزيد أوجاع الحياة

فدعي الكآبة والأسى واسترجعي مزج الفتاة

قد كان وجهك في الضحى مثل الضحى متهللا

فيه البشاشة والبهاء

ليكن كذلك في المساء

KKKKKKKKKK

الفصل الثامن الأدب النيجيري في اللغة العربية

■ المدخل

دخلت اللغة العربية بلاد نيجيريا بدخول الإسلام وباتت إحدى اللغتين الأجنبيتين اللتين وردتا على بلاد نيجيريا وأصبحتا جزءاً لا يتجزأ من كيان الدولة اللغوي والثقافي والديني والاجتماعي والمدني.

ومن الطبيعي أن تنتشر الثقافة الإسلامية في البلاد بعد دخوله، وذلك لأن الإسلام دين العلم والثقافة؛ تحلّ معه ثقافته وعلومه أينما حلّ. وبناءً على ذلك لم يقف النشاط اللغوي للغة العربية في نيجيريا عند ذلك الحد، بل دخلت اللغة العربية في المجال الأدبي بعد أن تعلّمها المواطنون ضمن فنون الثقافة الإسلامية، ووقفوا على إنتاجات أساطير أدبائها وكبار كتابها المتقدمين، فجعلوا يحاكونهم، ويبتجون الأعمال الأدبية التي تقوم بتصوير الحياة النيجيرية باللغة العربية.

■ دور الإسلام في نشر اللغة العربية في نيجيريا

ويرجع تاريخ دخول اللغة العربية بلاد نيجيريا إلى دخول الإسلام، الذي جاء عن طريق القوافل التجارية التي تأتي من شمال أفريقيا منذ وقت مبكرٍ لا يُعرفُ على وجه التحديد. فقد كانت العلاقات التجارية قديمة العهد بين ممالك هوسا وبين المغرب والسودان وغيرهما من بلدان شمال أفريقيا. ومن الطبيعي أن ينتشر الإسلام في المراكز التجارية عن طريق هؤلاء التجار الذين يأتون دائماً مع بضائعهم ودينهم الحنيف، ولاسيما إذا اعتُبر أن الإسلام دين لا رهبانية فيه، وأنه من السهل أن يتأثر الأفريقي الوثني بالعربي أو البربري المسلم، خصوصاً إذا لاحظ من أحدهما الأمانة والوفاء والسماحة والكرم وغير ذلك من القيم الإسلامية.

ولكن أكثر المصادر تشير إلى عدم وجود ما يشير إلى وجود الإسلام في المنطقة رسمياً قبل القرن الحادي عشر الميلادي، ففيه أسلم ملك كاتم برنو هُمِّي جَلَمِي هو وجمهور

أهل مملكته. وأسلم ملك كَنُو عليّ ياجي في القرن الرابع عشر الميلادي، وانتشر الإسلام خلال عهده في المملكة.

وهكذا انتشرت اللغة العربية وعلومها في نيجيريا رفقة الإسلام، وذلك لأن اللغة العربية كانت تتبع آثار الإسلام ولا تفارقه، وتهاجر معه أينما هاجر. وذلك بفضل القرآن، وعن طريق التعليم، والدعوة إلى الدين، ونشر محاسن الإسلام ومعالم ثقافته التي كانت اللغة العربية هي لغتها الأولى والرسمية. وقد أسهمت المدارس القرآنية في نشر الثقافة العربية في نيجيريا، لأنها بمثابة المدارس الأولية، والمدارس الوحيدة التي ملاءها التلاميذ. واستطاعت أن تُعدّ للقرآن قراءً ولغته العلماء والكتاب.

ويرجع الفضل في انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية إلى التجار ونشاطهم التجارية والدعوية بين بلاد نيجيريا إلى الدول العربية في شمال أفريقيا والخليج، والحجيج الذين يقضون شهوياً للحج ذهاباً وإياباً، والمهاجرين الذين يرتحلون إلى تُمبُكتُو والمغرب الأقصى لطلب العلم، وجمع من العلماء والدعاة الذين زاروا البلاد وأكروا أنفسهم لتدريس الدين واللغة العربية والتأليف، أمثال عبد الرحمن المغيلي وعمر الفوتي والشيخ الطاهر بن إبراهيم الفلاني وغيرهم. ثم الملوك والسلاطين الذين اعتنقوا الإسلام واتخذوه ديناً رسمياً لمملكتهم وساعدوا في نشر ثقافته بكل ما بوسعهم.

وفي الجملة، يمكن اعتبار الإسلام كأهم ما ساعد في انتشار اللغة العربية في نيجيريا منذ دخوله ومروراً بفترات تاريخية مختلفة ذات حوافز ومؤثرات متباينة وإلى الآن. فقد مرت اللغة العربية بعد دخولها في نيجيريا بفترات، منها فترة تأسيس الممالك، وفترة الوفود والحركات الثقافية، وفترة جهاد الفوديين وقيام دولتهم، وفترة الاستعمار البريطاني، وفترة ما بعد الاستقلال إلى العصر الراهن.

■ اللغة العربية في نيجيريا خلال القرن التاسع عشر الميلادي

يعتبر النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي بمثابة العصر الذهبي للإنتاج العلمي والأدبي باللغة العربية في نيجيريا لوفرة الوسائل التي أتاحت للغة العربية

وعلمها فرصة الانتشار والتطور. ومن أهمها قيام الدولة العثمانية في صُوكُتُو، وكونها دولة إسلامية خاضعة لسلطان الإسلام وشريعته. وقد تبنت الدولة العثمانية اللغة العربية كلغة رسمية، فتمّ استخدامها في كتابة الدواوين الحكومية، وتقييد المشروعات والقرارات الإدارية، وسجلات المحاكم الشرعية. كما اهتمت الحكومة بتثقيف الشعب وتشجيع الأفراد على طلب العلم، إضافة إلى كون كافة سلاطين الدولة ووزرائها من العلماء المجتهدين والأدباء المشهورين.

فأتاح ذلك الوضع فرصة الانتشار للغة العربية كفرع من فنون الثقافة الإسلامية، وتدارسها الشعب. فنبغ منهم كثير ممن أتقنها، وجعلوا ينظمون القصائد بها، محاكين في ذلك شعراء العرب القدماء من الجاهليين والإسلاميين والعباسيين الذين كانت آثارهم الأدبية متوفرة في نيجيريا في دواوين خاصة وفي أمهات كتب تاريخ الأدب العربي.

وأما في النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، وبعد مضيّ عصر أولئك العباقرة، فقد قلّ الإنتاج الأدبي، وذلك لأن العلماء الذين عاشوا في تلك الفترة لم يساهموا في التأليف والتصنيف، لاعتقادهم أن باب الاجتهاد قد سُدّت وأغلقت بمضيّ عهد الشيخ عثمان بن فودي وأخيه وابنائهم الذين كانوا من أركان الثقافة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي. وزعم أولئك العلماء أنه ليس من إمكانهم أن يأتوا بشيء جديدٍ لم يذكره هؤلاء الأعلام. فركدت إثر هذه الفكرة همّتهم، واقتصرت جهود معظمهم على قراءة الكتب التي ألفها الفوديون، وعلى فهمها وتدريسها. واستمر الحال على هذا الجمود إلى اطلاع فجر القرن العشرين الميلادي، وفيه شهدت اللغة العربية تقدّمًا ملموسًا بواسطة عوامل متعددة.

■ اللغة العربية في نيجيريا خلال فترة الاستعمار البريطاني

معنى الاستعمار بالمفهوم الحديث هو الرغبة الجامحة من بعض الدول الأوروبية كالبريطانيا وفرنسا والبرتغال وإيطاليا وغيرها في امتلاك البلاد غير الأوروبية واستيطان البيض فيها وبسط النفوذ السياسي والاقتصادي والمسيحي بقوة السلاح في بعضها. وهو

نشاط عانى منه كثير من الدول الآسيوية والأفريقية منذ مؤتمر بارلين الدولي إلى أواخر القرن العشرين الميلادي.

وقد بدأ الاستعمار البريطاني لجزء من أراضي نيجيريا منذ سنة ١٨٦١م عندما احتل الإنجليز مدينة لاجوس. ثم استمروا يترصون بسائر المناطق ويتغلغلون فيها حتى سيطروا على كافة المناطق الجنوبية ابتداء من سنة ١٩٠٠م. كما تم الاستيلاء على المناطق الشمالية سنة ١٩٠٣م. وبما أن التبشير المسيحي كان من أهم أغراض الاستعمار، فقد ترك المستعمرون شؤون التعليم بأيدي الإرساليات، وسهّلوا لهم الطرق والوسائل لنشر الثقافة المسيحية، لاسيما في جنوب نيجيريا.

وأما في الشمال فقد واجهت الإرساليات الطرد والتفجير من أمراء ممالك الشمال وسكّانها. وفشلت محاولاتهم الأولى في إنشاء المدارس التبشيرية في مناطق شمال نيجيريا. وذلك لأن المسلمين الذين يمثلون الكثرة الغالبة من سكّان الشمال كرهوا الثقافة الإنجليزيّة واعتقدوا أنها خطة لتنصيرهم. وكانوا في توثيق تام بثقافة آبائهم، فلا حاجة لهم إلى هذه الثقافة الجديدة الممزوجة بروح المسيحية. وكان المستعمرون أنفسهم لا يشجعون المبشرين على دخول أراضي المسلمين، وغير ذلك من الأسباب.

ثم أرسلت حكومة الاستعمار سيد هُنس پيشا إلى مصر والسودان ليُشاهد كيف استطاعت حكومة بريطانيا الاستعمارية صبغ التعليم في تلك البلاد المسلمة، وعاد پيشا بعد أن زار عدّة من المدارس في مصر والسودان بتقرير حاصله أن يتم إدخال الدراسات الدينية واللغة العربية في مناهج المدارس الحديثة. وعلى هذا الأساس تمّ افتتاح المدارس الحديثة الأولى في كُتو سنة ١٩٠٩م، ثم في صوكُتو وكاتشينا بعد سنتين.

ويظهر مما سبق أن المستعمرين إنما أدخلوا اللغة العربية والدين الإسلامي في المواد التي كانت تدرس في المدارس الحكومية الحديثة استجابة لرغبة الأمراء وإرضاء للآباء. ولذلك لم تُقدّم الحكومة لهاتين المادتين خدمة تساعد على تقدّمهما كما فعلت لسائر المواد. فأصبحتا بشيء من الجمود، وأصبحتا غريبتين بين سائر المواد، ونظر إليهما التلاميذ

والمدرسون بعين الاحتقار. فكانت اللغة العربية منعزلةً بين سائر المواد التي تدرس في المدارس الحكومية، وضيئلة تدرس بطريقة جامدة. وهكذا ظل الأمر إلى بداية أربعينيات القرن العشرين الميلادي دون تحسُّن جذري مع ما حدث من تجهيز المؤتمرات المتتالية التي عقدت للنظر في وضع مناهج اللغة العربية والدين في المدارس الحكومية.

ولما احتاج المستعمرون إلى القضاة والموظفين في المحاكم اضطروا إلى إنشاء المدارس العربية الحديثة في كل من صُوكُتُو وكُنُو، وذلك سنة ١٩٣٠م. ثم فُتِحَت مدرسة أخرى في كُنُو سنة ١٩٣٤م وسميت مدرسة الشريعة الكبرى، وكانت أول مدرسة من نوعها في غربي أفريقيا. ولقد لعبت هذه المدرسة دورا هاما في نشر الثقافة الدينية في نيجيريا ورفعت مستوى دارسي اللغة العربية في نيجيريا. كما أصبحت كعبة يغشاها الطلبة من كل المحافظات في نيجيريا ومن سائر البلاد الأفريقية المجاورة.

وفي الجملة، كانت اللغة العربية قد أصابها نوع من الجمود خلال فترة الاستعمار البريطاني لمحاولة المستعمرين تضعيفها بشق الطرق، واستبدالهم الثقافة العربية بالثقافة الإنجليزية، واستبدالهم كتابة لغة هُوسا بالحروف اللاتينية، وكانت من قبل تكتب بالحروف العربية وتسمى في لغة هُوسا بَرُبُوتُنْ أَجْمِي (الكتابة الأعجمية). وساعد على هذا الجمود سدّ الأبواب التي كانت قبل تلك الفترة مفتوحة بين نيجيريا وبلاد العرب. فلم تنتشر اللغة العربية خلال فترة الاستعمار البريطاني انتشاراً يليق بها.

ثم بدأ بصيص من النور يسطو على اللغة العربية نتيجة الحركات السياسية ونشاطات الكفاح الاستقلالية وإدراك الحكومة بأن الحاجة ماسة إلى تنظيم المدارس القرآنية، فأجرت على إثر ذلك بعض الإصلاحات التي عادت بنتائج إيجابية.

واستمرت اللغة العربية تُعَلَّم في الحلقات والزوايا التقليدية على المنهج الموروث بدون أي تطور. ولم تظهر في هذه الفترة مؤلفات كثيرة خلافا للفترة الماضية، واكتفى العلماء بدراسة المؤلفات التي وضعها سلفهم وشرحها وكتابة الذيل عليها والحاشية لها.

■ اللغة العربية في نيجيريا بعد الاستقلال

لعبت الحكومة دورًا إيجابيًا بعد الاستقلال في إدخال إصلاحات في التعليم العربي والديني، فظهرت مدارس كثيرة وأقبل الناس يستزيدون منها. واعتنت الحكومة بتدريب مدرسي اللغة العربية والدين، فأكمل طائفة من مُدرّسي هاتين المادتين دراستهم العليا وتخصصوا. ثم تفرغوا للتدريس وشارك بعضهم في سياسة التعليم. واستمتعوا برفع مستواهم. وكذلك أقبلت الحكومة على إرسال البعثات التعليمية إلى البلاد العربية وغيرها. ثمّ تمّ إنشاء لجنة لتنظيم التعليم في المدارس القرآنية إثر اختلاف الآراء حول موقفها، فزارت هذه اللجنة ليبيا ثم السودان فمصر لدراسة الطرق التي عالجتها تلك الدول مشاكل التعليم في المدارس القرآنية. فقدم الوفد بعد عودته تقريرًا مفصلاً يحتوي على تخطيطات جيدة تهدف إلى إدخال إصلاحاتٍ جادة في سياسة التعليم العربي. ومن ثمّ أصدرت الحكومة قرارًا باعتبارها بالمدارس القرآنية والإسلامية، وإدخال نظامها في إطار التعليم العام. وحاولت سدّ الفجوة التي خلقها المستعمرون بين التعليم العربي والغربي بإدخال المواد المدنية في المدرس الإسلامية وإضافة المواد العربية والدينية في المدارس المدنية. هذا كله مما نالته العربية من التطور بعد الاستقلال، ويرجع فضل ذلك جله تقريباً إلى الحكومة الإقليمية الشمالية التي اهتمت بإدخال الإصلاحات في نظام التعليم العربي. وأما بالنسبة للمدارس الإسلامية التي أنشأها الأهالي والجمعيات الخيرية، فقد وافقت الحكومة على أن تقوم بتقديم الدعم المالي والفني في إجرائها. ثم المدارس الحكومية التي فُتحت في بعض المدن، كمعهد تدريب مدرسي اللغة العربية في صُوكُتُو سنة ١٩٦٣م الذي أنشأ على غرار مدرسة العلوم العربية في كُنو ثم مُثِل نحوه في عُمبي بعد سنتين. وتتابع إنشاء المدارس الحكومية في كُنو وكَاتُشِنَا وصُوكُتُو وبَرَنُو لتدريب مُدرّسي اللغة العربية والدين على النظام المتبع في المدارس الحكومية المركزية وارتفع بذلك مستوى اللغة العربية في المدارس والمعاهد الحكومية.

وأما العلماء التقليديون فقد استمروا في نشاطهم على ما هم عليه من المنهج. فما زالوا يفتحون أبوابهم لكل من يريد أن يتعلم عندهم، وكانوا يدرّسون طلابهم الكتب الفقهية وبعض كتب الحديث والنحو والتفسير والتصوف عن طريق قراءة النصوص وترجمتها إلى اللغات المحلية الدارجة. وكانت عنايتهم بالتاريخ والأدب ضئيلة جدا.

ثم تطورت الأمور بالنسبة للغة العربية والدين الإسلامي في بداية ثمانينيات القرن العشرين الميلادي نتيجة للحركات الإصلاحية التي قامت بها بعض الطوائف والجمعيات الدينية كجماعة إزالة البدعة وإقامة السنة التي دعت إلى العلم للجميع وأنشأت معاهد علمية في كافة القرى وأمصار الشمال، الأمر الذي سهّل على الشعب طلب العلم واكتساب المعرفة في الدين واللغة العربية. وجماعة نصر الإسلام التي أسهمت في نشر الدين وعلومه بوسائل شتى ومثلت دور حلقة الوصل بين مسلمي نيجيريا والحكومات والهيئات الأهلية والدولية.

ومع حلول القرن الحادي والعشرين الميلادي بلغت اللغة العربية في نيجيريا ذروة سنام تقدّمها بإقبال الناس على تعلّمها لأغراضٍ مختلفةٍ وعبر جميع المراحل الدراسية، وتضاعف عدد المدارس والمعاهد والهيئات والمؤسسات التي تعني بدراستها، وازدياد الحاجة إلى المثقفين بها في سوق العمل، وتطوّر الحياة من كل الجوانب، والعمولة، وغير ذلك من المبررات.

■ خصائص اللغة العربية في نيجيريا

تخصّصت اللغة العربية التي يستخدمها النيجيريون ببعض الخصائص التي تميزها عن سائر لهجات اللغة العربية في غير نيجيريا. وخلاصة ذلك في ما يلي:

أ/ في الخط

يستخدم النيجيريون الرسم المغربي في كتاباتهم في أول أمرهم، ثم دخل عليهم الخط الحديث بواسطة المدرّسين من الشرق، كالسودانيين الذين تولّوا مهنة التدريس بمدارس

العلوم العربية بكنؤ. إلا أن المدارس القرآنية والحلقات العلمية ما زالت تستخدم الخط المغربي من الترسيم بالمداد العادية في كتابة الحروف، وفي الشكل بالمداد الأحمر.

وهناك بعض الاختلافات بين الخطين المذكورين، فإن أهل الحلقات - على سبيل المثال - يكتبون الفاء المعجمة بنقطة واحدة تحتية بدل الفوقية ويكتبون القاف المثناة بنقطة واحدة فوقية بدل النقطتين. كما يرسمون الياء المتطرفة المجردة في آخر الكلمة هكذا (<).

ب/ في النطق

تنقسم الحروف الهجائية من حيث صعوبة أو سهولة النطق بها عند النيجيريين الشماليين إلى ثلاثة أقسام، وهي:

١. الحروف التي توجد في لغة هوسا وعددها سبعة عشر وهي: الألف والباء والتاء والجيم والذال والراء والزاي والسين والشين والكاف واللام والميم والنون والهاء والواو ولام الألف والياء. وهذه الحروف لا تسبب أية صعوبة في النطق بها.
٢. الحروف التي توجد في لغة هوسا ولكنها تُنطق بطريقة مخالفة عن الأصل العربي وعددها أربعة: الطاء والغين والفاء والقاف.
٣. الحروف التي لا توجد في هوسا بتاتا وهي الثمانية الباقية: التاء، الحاء، الخاء، الذال، الضاد، الطاء، العين والصاد.

ففي هذا القسم الأخير يقع الخطأ الشائع عند الهوسويين في النطق بها. فقلما تجد من يسلم من ذلك من المثقفين فضلا عن غيرهم. فالثناء على سبيل المثال ينطقونها سينا فيقولون: مثلا "سار" و"لبس" بدلا من (ثار) و(لبث). والحاء تصير هاءً فيقولون: "الهمد" و"الرهمان الرهيم" بدلا من (الحمد) و(الرحمن الرحيم). وكذا الخاء تنقلب كافاً أو هاءً، فيقولون: "كالدون" أو "هالدون" و"كرج" أو "هرج" بدل (خالدون) و(خرج). والذال تُنطق زايًا، فيقال: "ذلك" و"الزين" بدلا من (ذلك) و(الذين).

كما يبدلون الصاد سينا فيقولون: "مسر" و"السناعة" بدلا من (مصر) و(الصناعة). والضاء ينطقونها لاما أو دالا أو راء، فيقولون مثلا: "المغلوب عليهم ولا الالين" أو "المغروب عليهم ولا الالين" بدلا من ﴿عَبْرَ الْمَعْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ وفي مثل مرض يقولون: "مرد" أو "مرل"، وهكذا. والطاء تصير زايًا فيقولون مثلا "الزهر" و"الزلام" بدلا من (الظهر) و(الظلام). والعين تصير همزة يقولون: "الأليم" و"أليه" و"أم يتساءلون" بدلا من (العليم) و(عليه) و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾﴾

ج/ في التركيب واستعمال اللغة

ومن ناحية القواعد النحوية والصرفية واستعمال مفردات اللغة يُلاحظ أن قواعد اللغة المحلية قد تؤثر على متعلمي اللغة العربية، فكثيرا ما تغطي قواعد لغة الأم على المتعلم حينما يمارس اللغة العربية، ومن ثم يقع في الخطأ.

وبالنسبة لقواعد النحو مثلا، يجب في لغة هوسا أن يتقدم الفاعل على الفعل والمفعول، وهذا مخالف لما هو معروف في اللغة العربية من سياقي الجملة الفعلية والاسمية، ومن هنا يُلاحظ كثرة استعمال الجمل الاسمية في تركيباتهم.

وفي حالة الإضافة والوصف لا يفرق أكثر الهوسويين بين عبارتي "وَلَدٌ غَنِيٌّ" (بإسناد الصفة إلى الولد) وبين "وَلَدٌ الْغَنِيِّ" (بإضافة الولد إلى الغني). فيستعملون الجملة الأولى في محلّ الثانية أو العكس. وكذلك في استخدام حروف الجر، فقد لا تكون ملائمة في التراكيب العربية ولكنها ضرورية في ما يقابلها من التراكيب في هوسا أو العكس. ومثال الأول "يَا تَفِ كَاسُوَا" (ذهب إلى السوق). ومثال الثاني "جاء صباحا" (يَا زُو دَ سَافِي). فقد يحاول بعض الناس استخدام مثل هذه الجمل والحالة هذه فيقع الخطأ في كلا الجانبين.

وبالنسبة للتعريف والتنكير يُلاحظ فقدان ما يقابل أداة التعريف في كل الأوجه التي تستعمل في العربية. والموجود في هوسا في مقابل (ال) التعريفية هو زيادة النون الساكنة في آخر الكلمة إذا كانت مذكرا أو الراء الساكنة إن كانت مؤنثا. فيقع الخطأ لعدم

الاهتمام بقواعد استخدام هذه الأدوات أو عدم إتقانها. فترك في محل لا بد منها أو العكس. فقد يقول الهوسوي: "رأيت ولدا" وهو يقصد (رأيت الولد) أو العكس. ومن مميزات تركيباتهم تعميم الخاص وتخصيص العام، كاستعمال كلمة (البحر) بدلاً من (النهر) وكلمة (اللغة) في محلّ (الألفاظ الصعبة). كما يُطلقون كلمة (جلس) على (الإقامة). وغير ذلك مما تفترضه لغة الأم على ابنها الذي يتعلم لغة ثانية.

ولكن أغلب هذه الخصائص النطقية والتركيبية بدأت تأفل وتتغير إلى ما هو أحسن بعد أن تقدّمت الحياة العلمية وتعلّم الناس فنون اللغويات في العربية وأتقنوا علم الأصوات والنحو وعلم التجويد وتخصّصوا في مختلف الميادين اللغوية والأدبية في الجامعات النيجيرية وغيرها من الجامعات والمعاهد العليا في الدول العربية.

د / في الشعر

ومن ناحية خصائص الشعر العربي في نيجيريا فقد اتضحت للباحثين ظواهر متعددة، ومنها:

١. كثرة الاقتباس من القرآن والأحاديث وخاصة في الشعر التعليمي.
٢. الاقتباس من الشعر القديم ومحاولة تقليد منهج من سلف من الشعراء في الشكل والموسيقى، وطريقة تصوير الأشياء والخيال والأسلوب واختيار الألفاظ، واستخدامهم الألفاظ الغريبة في القوافي.
٣. الدوران حول الأغراض القديمة التقليدية كالمديح والثناء والغزل وغيرها.
٤. الأخطاء النحوية والصرفية الشائعة، هذا وإن كان قد يُباح من باب الضرورة الشعرية إلا أن بعض هذه المخالفات خرجت عن الحدود التي أجازها العروضيون.
٥. ركافة الألفاظ وضعف التركيب وبروز ظاهرة التكلّف في معظم الشعر النيجيري باللغة العربية.
٦. امتزاج الشعر بالنزعة الدينية وذلك لأن أكثر الشعر العربي في نيجيريا يصدر من أفواه العلماء ورجال الدين وليس من الأدباء، ولا سيما الشعر التعليمي.

٧. توظيف الثقافة العلمية من تاريخٍ ونحوٍ وصرفٍ وفقهٍ وحديثٍ ومنطقٍ وغير ذلك في لغتهم الشعرية.
٨. ذكر كثير من الأمكنة من حصون وحياض وأنهار ومدن في الشعر، وبخاصة تلك التي دارت فيها بعض الحروب والوقائع المهمة في تاريخ البلاد.
٩. بُغِدُ الشعر النيجيري في اللغة العربية عن التعقيدات الفلسفية والعمق الذهني، والاعتماد على العفوية والبساطة.

■ فنون الشعر العربي في نيجيريا

/أ/ المديح

طرق الشعراء في نيجيريا المديح كغرض أساسي من أغراض شعرهم، وكان المديح عند غالبهم على منهج زهير بن أبي سلمى الذي رُوِيَ أنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه من الصفات الحميدة. فقد كان الشعراء العلماء يمدحون الشيوخ والعلماء والقادة ورجال الدعوة وأهل الخير بما فيهم من الصفات. وجدير بالذكر أن المديح النبوي قد نال مكاناً مرموقاً بين الشعراء العلماء، لاسيما أصحاب الطرق الصوفية، تبعاً لصلتهم بالدين، وإفراطهم في حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإكرامه. فقد اعتقدوا أن مدحه صلى الله عليه وآله وسلم عبادة وقربة يتوسلون بها، فأكثرُوا من التعبير عن هذه العاطفة الدينية بكل إخلاص، وظلُّوا ينظمون القصائد في المديح النبوي على مدار السنة، وينشدونها في حفلات المولد النبوي وحلقات الذكر. ومثال المديح قول الوزير جنيد في مدح أمير المؤمنين الحسن بن معاذ:

إلى أن بدا وجه الصباح كأنه	محيا أميرٍ ذي الأيادي الهوامع
أمير له في كل فعل محامد	وأخلاقه فاقت عسولا لراضع
سخيَّ يحاكيه السحاب وخيره	عميم لجمع الناس دانٍ وشاسع

ب / الرثاء

بات الرثاء من أبرز أغراض الشعر انتشاراً في نيجيريا، فما يكاد يتوفى شيخ من الشيوخ أو عالم من العلماء أو قائد من قادة المسلمين حتى يهرع الشعراء إلى رثائه بقصائد قيمة. ويكثرون في الرثاء من ذم الدنيا والزجر عن الاعتزاز بما وتقريظ الفقيد وإظهار التلهف على فقدانه. ومثال ذلك نونية القاضي عمر إبراهيم في رثاء شيخه مالم إسحاق مآجي، ويقول فيها:

لموت الأديب فريد الزمان	عراني من المهم ما قد كفاني
فصار كشمس الضحى في العيان	إمام تفرّد في كل فن
وفي النحو والصرف أو في المعاني	ففي الفقه فرد كذا في الحديث
أشارت أكفّ له ببنان	إذا قيل من فاق للدرس شرحاً

ج / الغزل

يبدو أن الشعراء في نيجيريا استنكفوا عن القول في هذا الفن الذي يمثل العاطفة الإنسانية والمشاعر الوجدانية، لحرصهم على حفظ مكانتهم الاجتماعية بين الشعب كعلماء ربّانيين ودعاة مصلحين وشيوخ مبجلين. فقليل منهم من أطلق عنانه في الغزل، وبقي الكثير يمارسه على حرف وعفاف. ومثاله قول محمد البخاري:

فجعتك أم الفضل بالهجران	فبقيت بين الناس كالسكران
وكأن في قلبي وجوفي جمرة	مُذُّ بَعْدَتَنِي مِنْ جَنَاهَا الدَانِي
قامت تراءى في القصور بفاحم	رجل ومقلة شادن ظمآن
وبجيد مغزلة وساقى خدلة	وترائب كالبدر والمرجان

د / الوصف

قد ساهم الشعراء النيجيريون بنصيبٍ لا يستهان به في الوصف، فوصفوا الطبيعة الصامتة والمتحركة، ووصفوا المخترعات العصرية والمدن وبعض المشاهد التي خلبت عقولهم وأثارت شعورهم. ومن ذلك قول القاضي عمر إبراهيم في وصف مدينة كُؤو:

أبارس هُوسًا عليك السلام	سلامٌ من العاشق المستهَام
أزجِّي التحيات شوقًا إلى	جميل صفاتك بالإكرام
معالمك الغرّ لامعة	تكاد تفوق نجوم الظلام
ومن بينها المسجد الفاخر	كجامع دُهني جمال النظام
ومأذنة طاولت إذ بدت	نواطح نيويورك قرب الإمام
ومكتبها قد حكى البرلما	نِ القاهري لحسن التمام
كنو جمعت علم شرقٍ وغربٍ	ففاضت بسهمين بين السهام
لذلك قيل كمثلك ألف	قديمًا فأصدِّقْ به من كلام

ح / الحكم والأمثال

لقد أكثر الشعراء العلماء في نيجيريا من تقييد الحكم والأمثال في الشعر للاستعانة بذلك في تطوير حركة الوعظ والإرشاد. ومثال ذلك قول العالم أبي بكر المسكين:

من غرض عن معائب الإخوان	جفنا يرى الستر من المنان
لا تُفَشِّ يا صاحٍ من اليعوب	ما ستر العلام للغيوب
واعلم أن من سعى إليكا	لا بد أن يسعى إذاً عليكَا
فكم غنيّ بات أفقر الوري	وكم فقيرٌ ظلَّ أغنى من يُرى
وقد يكون للحسام نبوة	كما يكون للجواد كبوة
عليك بالجار قبيل الدار	لتستريح من عنا الجوار
وموت زمرة من الأشراف	خير من ارتفاع نذل جاف
واعمل لدنياك كباق أبدا	واعمل لأخراك كهالك غدا
لا يعرف الشوق سوى من كابدَه	ولا صبابة سوى من شاهده

و / شعر الجهاد

لقد وجد شعر الجهاد نصيباً موفوراً لدي شعراء نيجيريا، وخاصة خلال قيام دولة الفوديين في صُوكُتُو، حيث هيأت الحروب الطاحنة التي خاضتها جنود ابن فودي ميداناً فسيحاً لقرض شعر الجهاد ووصف المعارك والوقائع. ومثاله قول محمد بلُو وهو يصف واقعة كُتُو:

سائلوا عنا وعن أعدائنا	يوم دار الحرب في كنو الحفر
قد تركناهم بما مثل الهبا	أو كأحطام الهشيم المختظر
ولكم كَرَّ بهم فرساننا	في صناديد كِيَاوَا المنكسر
إذ رجعنا لكم وقت الضحى	بجنود كجراد منتشر
فدعونا يا نزال للوغى	فدخلنا حصنهم وقت العصر
فسقيناهم منايا فرؤُو	سُهما أمثال جذع منقعر
ثم رحنا غانمين كأننا	قد رجعنا من جواثي للحفر

ز/ الشكوى والحنين

تناول شعراء نيجيريا شعر الشكوى والحنين ضمن أغراضهم الشعرية، لكن تناولهم لهذا الغرض قليل إذا قُورِنَ بالأغراض الأخرى. ومثال ذلك قصيدة للوزير جنيد، نظمها يشكو الحالة الاجتماعية السيئة التي أصبحت هي السائدة في البلاد بعد دخول المستعمرين البريطانيّين شمال نيجيريا، ويقول فيها:

قد أفسدوا الدين والدنيا جميعا	ولا لهم منها بقر ولا شاء
غدا تتبع عورات الخلائق من	أخلاقهم حسن الأقوام أم ساءوا
الخير ما فعلوا والشر ما تركوا	والرأي ما قد رأوا يا بنس آراء
لا ينصحون جليسا في معاشره	ظنوا التعلق نصحا يا لدهياء
يا رب يا رب إنا لائذون بمن	هو الملاذ إذا ما اشتد ضراء
محمد كاشف الكربات سيدنا	من لاذ حقا به جاءتته سراء

ح/ شعر المناسبات

اهتم الشعراء النيجيريون بشعر المناسبات حيث كانت قرائحهم تستجيب لكل المناسبات التي تمرّ بهم من حفلة أو وقعة تاريخية أو سفر أو مغامرة أو غير ذلك. ومن هذا القبيل رائية القاضي عمر إبراهيم التي نظمها حين نزل الإنسان القمر لأول مرة. ومطلعها قوله:

نزلت نزلت بسطح القمر	وفيت لجون وعده المنتظر
يليق بنا أن نقوم احتراماً	لحقّ الجليلد جليل القدر
ليل شرف يا لها من شرف	فباه بحق به وافتخر
إليك إليك نزيل القمر	يسوق التحيات شوقاً عمر
رفعت بلادك رفعا عظيماً	وفي تحتها قمرٌ استقر

ط/ الشعر التعليمي

ظلّ الفقهاء الشعراء يقومون بتقييد المعارف والعلوم في القوافي. وكانت أغلب هذه القصائد في فنون الفقه والحديث والنحو والتصوف وغير ذلك. ومثاله منظومة الوزير الجنيد في تاريخ الشيخ عثمان بن فودي المعروفة بروائع الأزهار من روض الجنان. وقد استهلها بقوله:

يقول مبتغي الرضا الجنيد	من ربه أعانه المجيد
لله حمدٌ أولاً وآخراً	على الدوام باطنا وظاهراً
يخص من شاء بما يشاء	سبحانه في يده القضاء
ثم صلواته على النبي	ذي المعجزات الأرفع الزكي
وآله وصحبه الكرام	ما تبع المأموم للإمام

ي/ الهجاء

كان الهجاء من الأغراض التي لم يهتم بها الشعراء النيجيريون في أول الأمر. ثم تطور بعد حين من الدهر، وذلك حين استخدمه بعض الطوائف الدينية للهجوم على خصومها. فقد كان متبعو الطرق الصوفية من الشعراء - على سبيل المثال - يكثرون من

هجاء الوهابيين والسلفيين وغيرهما من علماء الطوائف السنية وأتباعهم. ومن الشعراء من استعمل الهجاء لأعراض سياسية أو شخصية أو غير ذلك.

ومثاله قول الشاعر المحامي آدم عثمان في هجاء العقيد غديون أوركار وفرقته إثر عملية الانقلاب الفاشلة التي ترأسها أوركار ضد حكومة الجنرال إبراهيم بدماص بآبَنَعْدَا:

ألا تبتاً لفرقة أهل ظلم	وإلحاد بيوم النائبات
لقد هموا الإحاطة بالمزايا	وحكم الشعب يا للكارثات
قد ائتمروا الفساد وخططوه	على حين لغفلة مخبرات
فإن الله يعلم كل كيد	مكايدكم فلن تك غالبات

■ البعثات التعليمية للدراسات العربية والدينية

كانت سنة الرحلة لطلب العلم قديمة في الإسلام، فكثيراً ما كان علماء السلف يقومون بالهجرة والرحلات الشاقة من بلد إلى آخر، ويقطعون المسافات البعيدة لتحصيل المعرفة وطلب العلم ورواية الحديث لما في ذلك من شرفٍ وفضلٍ ومنافع كثيرة. وقد كانت هذه السنة انتشرت في كل البلاد التي دخلها الإسلام. فقد كان المسلمون يسافرون من هذه البلاد إلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط قصدًا لطلب العلم والحج منذ أن انتشر الإسلام وقويت العلاقات الثقافية بين بلاد العرب ونيجيريا. ثم كانت البعثات ترسل إلى تلك البلاد لطلب العلم. وتنقسم البعثات إلى الرسمية وغير الرسمية.

أ/ البعثات غير الرسمية

كان عدد من الطلبة يسافرون أفواجا إلى القاهرة للالتحاق بجامعة الأزهر من برنؤو وغيرها من البلدان الشمالية، وذلك منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. ومن الصعب تحديد عدد أولئك الطلبة وأسمائهم لخلو رحلاتهم من شأن الحكومة.

وهكذا استمر طلاب العلم يعيشون الأزهر ويجاورونه ويستفيدون بجواره ويتثقفون بثقافته. فيقيم الطالب هناك ما شاء الله أن يقيم ثم يعود بعد أن تفقه في الدين وتمكّن في

الثقافة العربية. وكان بعض الملوك والأمراء يقومون بتشجيع أفراد الناس ومساعدتهم بشكل غير رسميّ تجاه هذه الرحلات.

ولا يزال طلاب العلم من نيجيريا حتى الآن يرحلون إلى مصر والمملكة العربية السعودية والسودان وغيرها من بلاد العرب ويلتحقون بالجامعات وسائر المعاهد العلمية لدراسة اللغة العربية والثقافة الإسلامية.

ب/ البعثات الرسمية

كانت نقطة بداية أمر البعثات الرسمية للتعليم العربي والدين الإسلامي في نيجيريا في بداية خمسينيات القرن العشرين الميلادي. وذلك حين وافق المجلس التنفيذي للحكومة الشمالية على تشكيل لجنة للبحث في مشاكل التعليم العربي والدين. وبعد ملاحظات عميقة قررت الحكومة إرسال ستة من الطلبة يُختارون من خريجي مدرسة العلوم العربية بكنو إلى معهد بخت الرضا في دولة السودان للحصول على الدبْلُوم في التدريس. وذلك سنة ١٩٥٤م، وكانت مدة الدراسة سنتين.

وكانت المنح الدراسية التي تقدمها بعض البلاد العربية قبل الاستقلال غير مرحبة بها عند حكومة المستعمرين البريطانيين للأغراض السياسية والدينية. ولذلك كانت الحكومة تفضّل إرسال البعثات إلى إنجلترا. فتمّ إرسال البعثة الأولى إلى إنجلترا للحصول على الدبْلُوم في الدراسات العربية في أواخر سنة ١٩٥٤م. وكذلك أوفدت الحكومة البعثة الثانية إلى مدرسة الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندُن للحصول على الدرجة الجامعية. وذلك سنة ١٩٥٩م. وكانت هذه البعثة هي الأولى من نوعها.

وبدأت البعثات تخطو خطوات التقدم بعد الاستقلال. فذهب تسعة وعشرون طالبا لأول مرة بواسطة الحكومة إلى مصر، وذلك سنة ١٩٦٢م، وانضم ثلاثة عشر منهم بجامعة القاهرة والباقون بالأزهر. وفي سنة ١٩٦٣م منحت الحكومة المصرية بعثات يبلغ عددها أربعين منحة، فالتحق بعضهم بالأزهر وبعضٌ بوزارة التعليم العالي. وكانت هذه

المنح موزعة على أنحاء نيجيريا. وكذلك توالى البعثات التعليمية إلى مصر سنوياً إلى الآن.

وسافر إلى السودان أحد عشر طالبا في أوائل سنة ١٩٦٢م الدراسية على نفقة الحكومة السودانية. والتحق ستة منهم بالمعهد العلمي، في حين أن الآخرين انضموا إلى كلية المعلمين ببخت الرضا.

ونال ثمانية عشر طالبا منحة من المملكة العربية السعودية. فسافروا إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٩٦٢م. ولكن هذه الطبقة من البعثة لم يتم نجاحها كالبقيات. فلم يكدر الطلبة يقضون سنة واحدة هناك حتى طالبوا من حكومة نيجيريا أن تلتزم لهم التغيير بالنقل إلى جامعة أخرى في غير السعودية من الأقطار العربية. وذلك لمخالفة التعاليم الدينية في السعودية لعقيدتهم ومذهبهم واجتماعيتهم، والتمسك بالدين الذي اعتبروه تشدداً في الدين، وعدم النشاطات الحيوية على حدّ نظرهم. فلم يبق في السعودية إثر ذلك إلا طالبان منهم.

وأما الحكومة العراقية فقد قدمت عشرة منحة في جامعة بغداد سنة ١٩٦٣م. ولكن لم يذهب إليها في تلك السنة سوى خمسة من الطلبة لدراسة اللغة العربية. وهكذا كثرت البعثات من قبل الدول العربية، كما ضاعفت الحكومة نشاطها تجاه البعثات.

وكان أمر البعثات في البداية ذا نظام ودقة في اختيار الطلبة المبعوثين، فلا يرسل إلا طلبة أكفاء يستطيعون متابعة دروسهم وتوسيع ثقافتهم والاستفادة من الإقامة في الدول العربية. ثم خلف من بعد خلفاً أضاعوا كل شيء، وتغيّر الأمر عندما كثرت البعثات وولي الأمر إلى بعض الأنانيين، فتم إرسال طلبة ضعفاء، من الذين يفتقدون الأساس أو لا يرغبون في الدراسة. وعاد بعضهم بعد عدة سنوات قضوها في جامعات الدول العربية المختلفة بشهادة الحضور فقط. كما تم فصل بعضهم من الدراسة لأسباب أكاديمية أو أخلاقية أو غير ذلك.

ولا تزال حكومات بعض الولايات في شمال نيجيريا تقوم بخدمات جبارة في إيجاد المنح الدراسية للطلاب وتمويل دراستهم في مصر والسودان والسعودية وغيرها من الدول العربية. كما تقوم بعض الهيئات الخيرية الأهلية والدولية بتعاونٍ مع الحكومات والجامعات بتجهيز الدورات التدريبية التأهيلية للطلاب لاختيار من سيتم قبوله في بعض الجامعات.

ومهما يكن من شيءٍ، فإن للبعثات أثرًا واضحًا في ترقية مستوى التعليم العربي في نيجيريا، حيث لا يزال الممتازون من الطلاب يعودون بعد أن نجحوا في دراساتهم، وتخصّصوا في متخلف الميادين، حاملين ثقافة واسعة وخبرات حديثة في الدراسة والبحث، ومؤلفات قيمة من إنتاجات رواد علوم الدين واللغة العربية في العصر الراهن. وينضم أكثرهم في التدريس وسياسته فيستفيد الشعب بما لديهم من العلوم والخبرات. وساهم ذلك في تقدم شأن اللغة العربية والثقافة الإسلامية وازدياد نشاط ميادينها.

■ اللغة العربية في الجامعات النيجيرية

على الرغم مما لعبته إرساليات المستعمرين البريطانيين في نشر التعاليم الغربية والدين المسيحي في نيجيريا فإنها أسهمت في نشر التعليم العالي بصورة ابتدائية في نيجيريا. وإن كان غرضهم الأساسي من ذلك لا يختلف عن غرضهم الوحيد، وهو نشر الدين المسيحي ونخب معادن المناطق التي احتلوها وطفقوا يسمونها بالحميات.

وكانت أول مدرسة أنشأت للتعليم العالي في غربي أفريقيا هي كلية فُوراي في فريتاون بسيراليون سنة ١٨٢٧م. وقد أنشأت لتدريب القسيسين والمدرسين والموظفين للكنيسة. وقد لعبت هذه الكلية دورا هاما في نشر التعليم العالي في الحميات البريطانية في غربي أفريقيا. وكان يغشاها الطلاب من غانا وسيراليون ونيجيريا.

وأما الحكومة فلم تفعل جهدًا يُشهد نحو التعليم العالي لمدة طويلة. وأول أمرها تجاه ذلك يعود إلى سنة ١٩٣٠م، حينما أصدر مدير المعارف سيد هسي اقتراحات إلى الحكومة في نظام التعليم بأن يُقسّم إلى ابتدائية وثانوية وعالية لتدريب المهن والتخصص. وكانت أول مدرسة عالية هي كلية يابا في لاجوس التي أنشأت سنة ١٩٤٨م. ثم أصبحت

كليةً لتدريب مهن الطب والزراعة والهندسة والتدريس. ثم فتحت كلية إبادن الجامعية سنة ١٩٤٨م، ولكن هاتين المدرستين لم تعودا على الشعب النيجيري بنتائج إيجابية لشدة التقدير في طريقة القبول، وبلوغ الكليتين حدَّ البشعة في فصل الطلاب، مما جعل الطلاب النيجيريين يفضلون السفر إلى الخارج على الالتحاق بإحدهما. ولم يكن فيهما قسم للغة العربية، فكان الطلبة يرتحلون إلى الأزهر والحجاز والسودان للدراسات العربية.

وبدأ النهوض الحقيقي في مجال التعليم العالي يظهر بعد الاستقلال حين أصبحت الحكومة تعترف بضرورة توسيع التعليم العالي لحاجتها إلى عددٍ من الأهالي الأكفاء والخبراء في مختلف التخصصات للقيام بمسؤوليات البلاد الإدارية والتعليمية وغير ذلك من الأعمال الدبلوماسية الضرورية بعد الاستقلال. فتمَّ تشكيل لجنة للبحث في تشكيل التعليم العالي وتوسيعه. فقررت هذه اللجنة إنشاء أربع جامعات على الأقل في الوطن، وزادت الحكومة فأنشأت خمسًا. وتمَّ ذلك بالفعل ما بين سنة ١٩٦٠م وسنة ١٩٦٢م. وهنَّ جامعة إنسكي وجامعة أحمد بلو في زاريا وجامعة إيفي وجامعة لاجوس وجامعة إبادن.

وتمَّ إنشاء قسم دراسات اللغة العربية والثقافة الإسلامية في جامعة إبادن سنة ١٩٦١م، ولكن قابل القسم مشاكل متعددة، ومن أبرزها عدم وجود الطلبة المتكفين في اللغة العربية تمكنا يؤهلهم للقبول بالقسم ويمكّنهم متابعة الدراسة، وعدم وجود الكتب المناسبة، ووجود بيئة غير ملائمة لدراسة اللغة العربية حيث كان وضع الجامعة لا يشجع الطلبة على ممارسة اللغة في محادثاتهم.

وأما جامعة أحمد بلو زاريا أو جامعة شمال نيجيريا كما سميت أولاً، فكانت معدومة قسم اللغة العربية في بدايتها. ثم أسست الجامعة كلية عبد الله بايرو في كَنُو وخصصت هناك قسمًا للدراسات العربية والإسلامية. وهو القسم الذي أصبح يسمى فيما بعد بكلية الآداب والدراسات الإسلامية لما أصبحت الكلية بعد حين من الدهر جامعةً مستقلة بنفسها، وتمَّ ذلك سنة ١٩٧٥م. وهي الجامعة المعروفة الآن بجامعة بايرو كَنُو.

وكان قسم اللغة العربية في هذه الكلية ممتازاً وناضجاً حيث كان المحاضرون جميعهم تقريباً ممن تخصصوا في فنون اللغة العربية وميادين آدابها في مختلف الجامعات في بلاد العرب كمصر والحجاز والسودان.

ثم أنشأت فيما بعد جامعات مختلفة وأنشأ ضمن فروع أغلبها قسم اللغات، فكانت العربية من بين اللغات. فهي الآن تدرس في معظم الجامعات، وخاصة في شمال نيجيريا. ويتم تدريسها على مستوى جميع المراحل الجامعية في الجامعات الفدرالية التقليدية كجامعة أحمد بلو زاريا، وجامعة بايرو كَنُو، وجامعة عثمان طَن فودي صُوكُتُو، وجامعة مِيدُغُري، وجامعة جُوسُ، وجامعة إلُورُن، وجامعة إبادَن، وجامعة لاجُوسُ. وتدرس أيضا في بعض جامعات الولايات والجامعات غير الحكومية وبعض المعاهد العليا التي تمنح درجة الليسانس.

وهكذا دخلت اللغة العربية في جامعات نيجيريا كما دخلت في جامعات أوروبا. ثم بدأت بالتدريج تتغير وتتطور وتجد المجال اللائق بها كلغة حيّة مثل باقي اللغات الحديثة التي تدرس في الجامعات. وقد أدرك الآن كثير من الباحثين في الجامعات النيجيرية أهمية هذه اللغة وضرورة معرفتها لكل من يقوم ببحثٍ في مجال التاريخ واللغويات والتخصصات التي تتعلق بالحياة الثقافية والاجتماعية وسائر الفنون التي تدخل تحت الإنسانيات.

■ دور أساتذة اللغة العربية في نيجيريا

لقد لعب أساتذة اللغة العربية والباحثون في فنون ثقافتها دورا هاما في بناء كيان الطبقة الراهنة من طلاب العلم والمثقفين في نيجيريا، وساعدوا في تقدّم الوطن وثقافته على وجه العموم. فإنهم جزء من المواطنين الذين ساعدوا بأكبر جهدٍ ممكن على نشر الثقافة والتعليم والوقوف على الحقائق العلمية والتاريخية والاجتماعية والأدبية عن طريق الدراسة وإعداد البحوث القيّمة في مختلف الميادين الفنية واللغوية والاجتماعية وغير ذلك.

- ويمكن اختصار أبرز ما لعبوه من الدور في الأرقام التالية:
- أ/ مساعدتهم الأمة على تذوق الأدب العربي وخلق الشعور الأدبي الأصلي في عقلية الدارسين عن طريق دراسة النصوص الأدبية وتاريخ الأدب العربي.
- ب/ العمل على ترقية مستوى الثقافة العربية في نيجيريا وتسرب اللغة العربية الفصحى بين الأفراد وإمامهم بفنونها الدراسية ومبادئها الثقافية.
- ج/ كما ساعدوا على تفقه الإسلام وشريعته بحكم إتقان العلماء والدعاة والواعظين للغة العربية وقواعدها التي تساعد على فهم النصوص الإسلامية.
- د/ وكذلك دورهم في إيصال المواطنين إلى معرفة الحقائق التاريخية وخاصة في ما يمس اللغة العربية وأهلها منذ ابتداء عهدها التاريخي إلى العصر الحاضر.
- هـ/ ومن ثمّ انتشر التأليف باللغة العربية، وخاصة في الميادين الأكاديمية العالية والبحوث التي يقدمها الطلاب على عتبة تخرجهم من الجامعات والمعاهد العليا للحصول على درجة الدبلوم أو الليسانس أو الماجستير أو الدكتوراه. وكذلك البحوث المنشورة في المجالات الأكاديمية والمقالات التي يقدمها المشاركون في المؤتمرات والندوات وورشات العمل الأهلية والدولية.
- و/ وفرة المراجع والمصادر الأصلية في فنون اللغة العربية والثقافة الإسلامية في المكتبات العامة والخاصة وفي أسواق الكتب.
- ز/ العلاقة الدبلوماسية والثقافية القوية بين نيجيريا وبلاد العرب عن طريق البعثات العلمية والتبادل الثقافي.
- ح/ إيجاد الطباعة العربية الرياضية والإلكترونية وإنشاء المطابع العربية والمراكز الحاسوبية للأعمال والتدريب على صناعة الطبع بالحروف العربية في أغلب مدن شمال نيجيريا.
- ط/ تبنى بعض العادات وتقاليد العرب الكلاسيكية والمعاصرة وممارستها في مختلف ميادين الحياة والتأثر والتأثير بين اللغة العربية واللغات المحلية لاسيما لغة هوسا.

ك/ مساهمة المواطنين في تصوير الحياة النيجيرية تصويرًا فنيًا باللغة العربية مما أدى إلى وفرة النصوص الأدبية شعرًا ونثرًا ومسرحيةً وخلق مادة أدبية عرفت بالأدب العربي النيجيري أو الأدب النيجيري في اللغة العربية.

ل/ إنشاء المدارس لتعليم اللغة العربية دهلزية ونظامية بكل مراحلها بفضل الأحزاب الدينية والأفراد، وبالتالي أنشأت على نفقة الحكومة. وغير ما ذُكر هنا من الأعمال الثقافية التي يشهدها الناظر الذكي.

■ طائفة من مشاهير الأدباء النيجيريين

أ/ محمد البخاري بن عثمان

هو محمد البخاري بن عثمان بن فودي الفلاني. العلامة الفقيه، والعالم الفصيح. قرأ على أبيه وعمه عبد الله، وتفقه في فقه مذهب المالكية. وشارك في جهاد ابن فودي ضد مماليك هوسا. فقد كان ممن غزا بلاد نقي، وأبلى فيه بلاءً حسنا. وتوفي سنة ١٨٤٩م. وله قصائد متعددة في أغراضٍ متباينة، ومن ضمنها لاميته التي مدح بها عمه الشيخ عبد الله بن فودي. ويقول فيها:

أصحوت أم هاجت هواك منازل	عقَى معارفها البلى وهواطل
دار عهدت بها الحلول وكل من	أهوى معي والعيش غضُّ باجل
ولقد وقفت برسمها مستخبرًا	عن أهلها والدمع منّي سائل
لله درك هل وقوفك نافع	برسومها أم هل لدمعك طائل
فدع الديار وذكر أخدان الهوى	وخرائدًا في مشيها تتماثل
ولقد هباك الدهر شيخا ما له	في العلم في تلك الأراضى مائل
أعني إمام العصر عبد الله من	ساد الجيوش التُّبُل مذ هو شابل
شيخ العلوم خديمها تباها	خِذْن التقى الخبر النبيل الكامل
علم الهدى سعد الزمان عماده	حان رفيق بالأنام حلاحل
ذو شدة في دينه متواضع	ذو هيبة برُّ أمينٌ عامل

علامة القرآن حاوي السبق في علم الحديث وفي البلاغة كافل
بحرٍ محيطٌ يستحق الفلك في نحو وفي الأصلين غيث وابل

ب/ أسماء بنت عثمان بن فودي

هي أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي الفلاني. العالمة الكبيرة، والفقيرة الناسكة. يلقبها النقاد بخنساء نيجيريا. ولدت في بيت العلم والشرف، فتربيت تربية إسلامية محمودة. ودرست علوم الدين الإسلامي وفقهه وشيئاً يسيراً من علوم الحديث عند آبائها. وأخذت كذلك فنون اللغة العربية عندهم حتى جمعت ثقافة واسعة، وأصبحت عالمة متقنة. ولها تلاميذ ومؤلفات عديدة. وكذلك نظمت قصائد كثيرة في مناسبات مختلفة.

وكانت عائشة بنت عمر الكمهوي - أحد أصحاب ابن فودي - صديقة لأسماء

فتوقيت، فكان من نصيب أدب أسماء أن رثتها بقصيدة أخذ منها الأبيات الآتية:

أعيني جودا وابكيا لي حبيبي وسلوة أحراني وأنسا لوحشتي

فجودا بسكب الدمع من فقد عائشٍ أعزّ أحبائي وأوفى صديقتي

وأثني عليها بالشجاعة والحيا ودين وأخلاق حسان رقية

وذكرٌ وأورادٌ وصبرٌ وعفة قراءة قرآنٍ فنعم حبيبي

ألم تعلموا أن الصداقة لم يكن ليهدمها شيء إذا ما استقرت

فلا ولد يُسلي لي المحب ولا أخ ولا مسكن زاهٍ ولا جمع قنوة

وأبكي عليها بالدموع ترحماً وشوقاً وتحناناً لصدق المودّة

ولم ينه عن هذا النبي وإنما نهى عن صرخات بآه وآهة

وأدعو إلهي أن يؤمن خوفها ويرزقها الرحمن حسن المثوية

ج/ عبد الله بن محمد فودي

هو عبد الله بن محمد فودي. شقيق الشيخ عثمان بن فودي ووزيره، الشيخ

العلامة الفقيه، مفسر عصره، بقية أهل الحديث واللغة وصاحب التصانيف المشهورة. ولد

سنة ١١٧١ هـ وأخذ العلم عن أخيه وعن العلماء المشهورين في البلاد في ذلك العصر.

وقد صال وجال في طلب العلم، وعكف على التحصيل والحفظ والتقييد حتى أصبح نادرة عصره، وتاج علماء أيامه في معرفة فنون الثقافتين الإسلامية والعربية.

وكان له ذكاء مفرط، كما كان مشغولاً بالعبادة، وقد اشتهر بالورع والعفاف. وله مؤلفات في مختلف فنون العلم، على رأسها مؤلفاته القيّمة في التفسير والفقه والحديث والنحو والصرف والبلاغة والوعظ وغيرها من ميادين الثقافة الإسلامية والعربية وسائر الفنون الثقافية.

ومن آثاره الألفية في أصول الفقه، ومنظومة الحصن الرصين في علم الصرف، وضياء التأويل في التفسير، وضياء الحكام في ما لهم وعليهم من الأحكام، وتزيين الورقات وغيرها من الكتب والمؤلفات القيّمة.

وكذلك كان له جمعٌ من القصائد، معظمها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد شارك عبد الله في الثورة الإصلاحية التي قادها أخوه ضد بلاد هوسا. ثم عُيّن وزيراً بعد قيام الدولة العثمانية على ساقبها. فُوّي شطراً من الدولة. وتوفي عبد الله سنة ١٢٤٤هـ. ومن شعره ما يلي:

حمداً وشكراً لربي الواحد الباري على هلاك طغاةٍ من بني قار
على أيادي جموع من جماعتنا مهاجرين وفيهم جمع أنصار
أمامهم دعوات القادريّ لنا أماننا راجمات جمع كفّار
يخرّبون بلاد الكفر إن نزلوا بدار كفرٍ فساءت حال ذي الدار
يقودهم بلّو في خيلٍ وفي رجلٍ بين الليوث كليث نائر ضار
حتى أناخ على ساحات دارهمُ فأصبحوا مثل عصفٍ حُطّ في النار
وأسرُّ طاغوتهم قد زاد ذلتهم مقيد بينهم في ملبس العار

د / محمد بلّو

هو أمير المؤمنين محمد بلّو بن عثمان بن فودي الفلاني. العلامة الفقيه، العالم البحر والمجاهد الكبير. ولد سنة ١١٩٥هـ، وأخذ العلم عن عمّه عبد الله وعن أبيه

وغيرهما من العلماء الكبار في الأسرة الفودية وخارجها، وعكف على التحصيل والمطالعة حتى قويت ملكته العلمية، وظهرت دقة تدبيره للحركات السياسية وفصاحته. ولما توفي والده الشيخ عثمان بن فودي تم تعيينه خليفة له، ولقب بأمر المؤمنين.

وله مؤلفات عديدة في مختلف الفنون الإسلامية. وقد أوتي خبرة غير عادية في معرفة تاريخ بلاد السودان والدقة في تحرير الحوادث والوقائع التي دارت إبان حركة الجهاد الذي أعلنه أبوه ضد بلاد هوسا. ويُعد كتابه المسمى بانفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور من المصادر الأساسية والقيّمة في دراسة تاريخ بلاد نيجيريا القديمة. وألف كتاب روضة الأفكار ومفتاح السداد وغيرها. وتوفي سنة ١٨٣٧م. ومن شعره ما يلي:

وكم عشت في عزة عمياء وجهل ولهو وأنت صبي
والأفانج واسلك سبيل الرشاد ولا تسه عما يقول الحفي
من ازداد سناً ولم يكتسب علوم التجارب فهو الغبي
ومن نال علماً ولم يكتسب به عملاً صالحاً فغوي
ومن نال عزاً ولم يفتخر ولم يتكبر فذاك السري
ومن نال علماً ولم يتظاهر به ويجادل فذاك الرضي
ملكتم الأمور وقلبتهم كأني عليها قديماً ولي
ولم أركالصمت منها جميلاً ومكسب ذي الصمت عندي ذكي
ومن ملك النفس عمّا تريد وأتبعها الحق فهو القوي
ومتبعها في هواها زماناً ولم ينهها عن هواها عصي
وإن القناعة رشد كثير وصاحبها الدهر خلّ غني
وذو الحرص ما إن يزال فقيراً وإن الحريص لئيم شقي
ومن راقب الله في أمره وجاهد فيه فذاك التقى

ومن آثاره النثرية قوله:

ولما ولى ابنه يُنْفَا شمر عن ساق الجد والاجتهاد على ذلك حتى غزا قرية عظيمة
من قرى الإسلام على حين غفلةٍ من أهلها. فقتلوا ما شاء الله من فقهاءها وقرائها في نهار
رمضان وهم صائمون ونهبوا أموالهم وأسروا ذراريهم وجعلوا يفتشون الكتب والمصاحف
ويحتطبون الألواح فيوقدونها ويستنهزون بأهل الإسلام ويقولون لهم انتونا بما تعدونا إن
كنتم صادقين.

هـ / يحيى بن عبد القادر

هو يحيى بن الوزير عبد القادر بن الوزير محمد البخاري. كان من كبار علماء مدينة
صُوكُتُو في بداية القرن العشرين الميلادي. وقد تولى منصب القاضي ثم الوالي. وعكف
على التدريس والوعظ إلى أن توفي. ويقول في مدح أمير المؤمنين الحسن بن معاذ:

جدير بالخلافة مستحق	بها أهل ومن مثل الهمام
لقد علمت بذلك أهل هوسا	جميعا قبل أخذك بالزمام
ستبهر أرضنا وتفوق حُسنا	بإذن الله بالحسن الهمام
ويحيى وقته عمرا جديدا	كما تحيا الرياض مع الغمام
ويؤمن أهلها وحشي افتراق	فيذكر وقته وقت التمام
وتخمد في قلوب الناس نار ال	عداوة أجمت زمن اللئام
وتغمد ألسن تبغي فسادا	فتخرس لا تطيق من الكلام
ويضرب فوق أيدي الظلم ضرب	تشد به فيذهب كالجهاام
سألت الله أن يُبقيه دهرا	طويلا في الإمامة بالسلام
وينصره على الخيرات دأبا	فيصبح خيره في الخلق عام

و / الوزير جنيد

هو جنيد بن محمد البخاري بن أحمد بن عثمان الوزير الفلاني. ولد سنة
١٩٠٦م. ومات أبوه وهو حدثٌ دون الخامسة من عمره، فتولى رعايته عمه الوزير محمد

سَمَّبُو. تعلم الوزير جنيد في الكتاب، وحفظ القرآن. ثم درس العلوم العربية وفنون الثقافة الإسلامية عند كبار علماء صُوكُتُو. وكان دائم البحث والمطالعة في أمهات الكتب حتى تحصل على ثقافة بعيدة المدى في العلم والأدب.

وتولَّى الوزير جنيد وظيفة التدريس مدة من الزمن، ثم عُيِّن مستشاراً في أمور الشريعة الإسلامية في مجلس أمير المؤمنين أبي بكر الثالث، وهو المنصب الذي شغله إلى أن توفي سنة ١٩٩٧م.

ومن آثاره العلمية كتاب المبادئ الضرورية في الدروس العربية وقصيدة تنشيط الزائرين بمزار أمير المؤمنين. وألف أيضاً الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة. وله ديوان شعرٍ دارت عليه بحوثٌ ودراسات أكاديمية في معاهد علمية متعددة، وكان شاعراً مكثراً، متأملاً وفصيحا. ومن شعره في وصف بعض رحلاته:

المطار وكنا كالطيور البواكر	خرجنا بعون الله في غلس إلى
تدافع أمواج الهوى في الهواجر	فطارت بنا من يروى ولاجة الهوى
وتملؤه من صوتها بالزواجر	تخوض عُباب الجوّ عند ارتفاعها
ملبّنة بالخيش برّاً لزائر	مُجوّفة فيها كراسي صقفت
كأكلي، سوى تدخيننا بالسجائر	وتفعل فيها كل شيء تريده
ك طرنا ولم نزل سوى عند فاشر	نزلنا جنينة للغداء وبعد ذا
وقد بعّدنا عن أراضي النياجر	فعدنا إليها ثم طارت وشرقت
بخرطوم فانجابت هموم المسافر	إلى أن أحنّناها وفارت يد النوى
فأقبل ليلٌ مُسندل بالدياجر	وعند غروب الشمس تمّ نزولها
نجومٌ بدت أو كالبدور السوافر	فلاحت لآلي الكهرباء كأنها
نزلنا بلوكندا بهي المناظر	فلما انتهينا واطمأنت نفوسنا
تشمّ الصبا منه لعرف العنابر	على شاطئ النيل المبارك قد رسا
بما نشتهيهِ مثلج للضمائر	نُمتّع فيه كل يوم عيوننا

وجوه حسانٍ في معالي المنابر
تميس على التيار ميس الحرائر

به ألف مصباح تضيء كأنها
زوارقه تأتي وتذهب دائما

ز/ السيد محمد الناصر الكبي

هو الشيخ العلامة محمد الناصر بن محمد المختار بن محمد ناصر الدين الكبري،
رئيس الطريقة القادرية وشيخها في إقليم غربي أفريقيا. ولد سنة ١٩١٢م في قرية من
ضواحي مدينة كَنُو تدعى غُرْنَعَاوَا لأسرة تعود أصولها إلى مدينة تمبكتو. نشأ يتيما تحت
رعاية خاله الشيخ إبراهيم نَطْعُني. وكان - منذ طفولته - نادر الذكاء، محبا للعلم وحريصا
على ملازمة الشيوخ. قرأ القرآن وهو حدث ثم عكف على طلب العلم والتحصيل، فلازم
كبار شيوخ مدينة كَنُو حتى استوى ونبغ. يعد الشيخ محمد الناصر من كبار علماء نيجيريا،
ونوادر أدبائها في القرن العشرين الميلادي. وقد تخرج عليه عدد من كبار الشيوخ
والأساتذة والسياسيين والأمرء. وكان له دور فعال في توحيد صفوف أتباع الطريقة
القادرية في نيجيريا وفي إحياء أنشطتها وبث أصول التصوف على المنهج القادري. له
مؤلفات تربو على المائة، ومنها النفحات الناصرية في الطريقة القادرية ورسالة النصيحة
الصريحة في الردّ على العقيدة الصحيحة وقمع الفساد في تفضيل السدل على القبض في
هذه البلاد وموكب القادرية في الشوارع الكنوية، وغيرها.

وكان شاعرا مجيدا ومكثرا. كما كان عالما متفنا ومؤلفا بارعا. اكتسب عضوية
دائمة في المجلس الأعلى للشؤون الدينية وهيئة كبار العلماء في نيجيريا. وقد حظى
باعتراف وتقدير دولي لعلمه وفصاحته واهتمامه بشؤون الدين وخدمة القادرية، فتم تكريمه
في مناسبات عدة وتقليده أوسمة متعددة. وقد منحته جامعة أمدرمان الإسلامية في جمهورية

السودان الدكتوراه الفخرية في الدعوة الإسلامية ونشر الثقافة الإسلامية سنة ١٩٩٥ م.
وتوفي سنة ١٩٩٦ م.

ومن شعره قصيدة ميمية في مدح الرسول صلى الله عليه وآله سلم نالت إعجاب
النقاد لأنها خالية من حرف منقوط. ويعرف ذلك في اصطلاح البلاغيين بالأخيف ومن
أبياتها ما يلي:

أعلى سلام لأعلى الرسل أعلاما	وأكرم الرسل أحلاما وإسلاما
محمد أحمد المحمود حامده	مملء الروح أسراراً وأحكاما
ما أرسل الله أعلى سرمداً أحدا	كأحمد العلم المعلوم إعلاما
أولى لكل علا أدلى لكل ملا	أحمى كلاماً وأولى الدهم إكلاما
طه الطهور الرد المخاص كل ردى	أحاط سوراً على الإسلام أهراما
مدح المكرم حمد والكرم لهم	لثالي المدح إملاء و إحكاما
عسى أحل على أمداح أوسطها	أطاول المادح السحار أحلاما
أطول مادحه ما سال سائلهم	مه مه ومهمه هاء طاول اللاما

ح/ القاضي أبو بكر جومي

هو أبو بكر بن محمود بن محمد. العلامة الفقيه، القاضي النحرير وزعيم الحركة
الوهابية السلفية في نيجيريا. ولد في منتصف عشرينيات القرن العشرين الميلادي بقرية
جومي من أعمال زَمَفَرَا. وبدأ طلبه للعلم عند أبيه الذي كان عالماً مشهوراً في ذلك الحين،
فأخذ عنه عامة أساسيات العلوم الإسلامية، كما أخذ عن غيره من العلماء. وأُدْخِلَ
المدرسة النظامية، فبدأ بالابتدائية وواصل إلى الوسطى، واستغل هذه الفرصة ليدرس كثيراً
من الكتب في فنون الدين عن أحد أساتذته في المدرسة النظامية. ثم قُبِلَ في مدرسة
الشريعة في صُوكُتُو، ولما تخرج فيها عُيِّنَ مُدْرِساً في المدرسة التي تم فتحها قبل قليل في مَرُو.
ثم غادرها إلى كَنُو لينضم إلى مدرسة العلوم العربية المشهورة، وقد عُيِّنَ للتدريس في

المدرسة بعد تخرجه. وسافر إلى السودان ضمن البعثة التعليمية الرسمية الأولى، ثم إلى عديد من الدول العربية رفقة رئيس وزراء الولاية الشمالية سيد أحمد بلو سَرْدَوْنَن صُوْكُتُو.

وقد تولى مهنة القضاء وارتقى عبر مناصبها حتى أصبح رئيس قضاة المحاكم الشرعية في شمال نيجيريا. ولما استقال عاش على معاشه، مترهدًا عمًا عند الحكام والأغنياء. وتصدى للتدريس والوعظ والإرشاد العمومي في بيته وفي مسجد السلطان محمد بلو في كادونا إلى أن توفي سنة ١٩٩٢م.

وكان عالمًا ربانيًا، بقية أهل الخير، مجتهدًا في الدين، خبيرًا بعلوم الشريعة، داعيًا إلى الإصلاح والتمسك بالسنة على منهج السلف الصالح. وكان متواضعًا، جوادًا، بعيد الفكر، جريئًا على مناصرة الحق وصبورًا على المحن.

ومن آثاره تفسير رد الأذهان إلى معاني القرآن. وكتاب العقيدة الصحيحة بموافقة الشريعة. وله ترجمة ذاتية بلغة هوسا. وقد نال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة ١٩٨٧م. واكتسب العضوية في رابطة العالم الإسلامي. وقد تم تكريمه بالدكتوراه الفخرية في الحقوق مرتين، مرة من قبل جامعة أحمد بلو، زاريا-نيجيريا، ومرة أخرى من قبل جامعة إبادن. ومن شعره الأبيات التالية المأخوذة من قصيدة له قالها وهو يحنُّ إلى وطنه لما كان طالبًا في بخت الرضا:

بكيت لدمع العين مَيّ تدفق	تساورني الأحزان ليلاً فأعرق
تطول الليالي وهي سجنٌ وزهرها	تبطئ سيراً في الدجى تتألق
أناغمها مستأنسا بابتسامها	كما ابتسمت أم البنين تحقد
أزودها نظر الوداع إذا هوت	ومرت على من كنت أهوى وأعشق
فهل علم المحبوب بؤسى لبعده	وهل كان فيما نالني يترقق
سبتني وطارت بي تفرق بيننا	على حسدٍ طيارة تتشقق
مطبة إبليس اللعين وأهله	ومخطر أهل السلم إذ تتحلق
تطير وتمشي في الهواء بأرضها	نجوم وفيها النار تذكو وتحرق

فصبرٌ جميلٌ يا ذه النفس كلما بدا زائلٌ والنوم بالكد يسبق

ط/ القاضي عمر إبراهيم

هو عمر بن إبراهيم بن أحمد بن عمر الوالي الزكزي. ولد سنة ١٩٢٢م في قرية رثشفا من أعمال زاريا. تتلمذ عمر في الكتاب، ثم أخذ يدرس مختلف الفنون الإسلامية عند أبرز العلماء في زاريا. ورغم أن القاضي عمر إبراهيم لم يرسل إلى المدرسة الحكومية فقد استطاع أن يحضر مدرسة مسائية لمدة سنتين، واكتسب خلالها الشعلة التي أنارت له دياجير الثقافة الغربية. وتخرج في مدرسة العلوم العربية بكنو قاضيًا، وتولّى مهنة القضاء في محاكم مختلفة، كما تقلّب بين المناصب القضائية إلى أن استقال، ثم استوطن بعد ذلك مدينة كنو. وتوفي سنة ١٩٩٦م.

وقد بدأت ملامح شاعرية هذا العبقرى تظهر منذ أن كان حدثًا، ثم طفق ينظم الشعر طوال حياته حتى أصبح أول شاعرٍ نيجيري ينحو بشعره منحى الحدائث والتجديد كشاعرٍ يعيش في القرن العشرين الميلادي. فتناول في شعره وصف بدائع الطبيعة، وصوّر آيات الكون وروائع مضامينه، وتغزّل مستجيبًا لوجدانه ومسجلاً لتجاربه العاطفية. وكان متأثرًا في شعره بأقطاب الأدب في العالمين الغربي والعربي، ومنهم أسطورة الأدب الإنجليزي ويليام شكسبير الذي كان مجموع أعماله كتابًا مقدّسًا بالنسبة للقاضي، والأديب الإيرلندي جورج بيرنارد شو الذي كان من الفلاسفة الذين زاملهم القاضي عمر إبراهيم عبر مكتبته المليئة بالكتب. وكذلك تأثر القاضي عمر بالأدباء في العالم العربي، على رأسهم الكاتب الأستاذ الخبير عباس محمود العقاد والناقد المثير للجدل الدكتور طه حسين، وتأثر من الشعراء بشاعر النيل حافظ إبراهيم، وأمير الشعراء أحمد شوقي، وحكيم معرة إبي العلاء المعري وغيرهم من العباقرة والأساطير الذين كان القاضي شغوفًا بقراءة أعمالهم والتأثر بمناهجهم.

ومن آثاره ديوان حديقة الأزهار وقصيدة خصائص المخترار وغيرها. كان القاضي عمر إبراهيم متشائماً في شعره، كما كان سيئ الظن بالناس، كثير الشكوك بهم، لا يثق بأحد ولا يعبأ بالتقاليد العامة في شعره. ومن ذلك القبيل قوله:

الناس إما جاهل مطبق أو عالم أبله أو أحمق
يفهم هذا كل شيء سوى ما احتاج عقلا عنده مغلق
ومن لهم عقل وعلم ترى إن نطقوا في نطقهم نافقوا
يخفون ما قد أيقنوا صدقه بلى به قلبهم يخفق

ومن آثار الأستاذ القاضي عمر إبراهيم النص الآتي، وهو جزء من خطبة ألقاها وهو يُحِثُّ الشعب على مساعدة التقدم ومجانبة التأخر والرجعية وذلك خلال ندوة الجمعية الأدبية بمدرسة العلوم العربية بكنؤ، يقول فيها:

لقد أخطأ من ظنَّ أن هذه الدنيا خُلِقَتْ فقط للكافر، وأن المسلم لا ينبغي له أن يأخذ منها بحظه الوافر، وأن الزاهد من استغنى من الثياب بالجلباب وبطعامٍ تعافه الكلاب، وبدارٍ خربةٍ يتخذها فقط للحجاب، وإن كانت ثيابه وسخة وأطعمته قدرة هو الذي وصل إلى حقيقة التقوى، وفاز بالخطوة ولو اتبع أحيانا الهوى. كلا! إن هذا الظن غلطٌ، من أخذه زلٌّ وسقط، لأنه كثيراً ما وُجِدَ أميرٌ عادلاً وتقيٌّ، وهذا مسكينٌ فاجرٌ شقيٌّ، فمثل هذا الظن هو الذي أحرَّ المسلمین، فبدلاً من أن يكونوا متقدمين، صاروا إلى مضاجعهم نائمين وأنساهم هذا الظن السليم الذي يرقى به إلى القوة ويعتلى إلى أعلى الذرة

ي/ محمد الأمين الكانمي

هو محمد الأمين الكانمي، العلامة الفقيه، والكاتب الناقد. ولد بفزان من أبٍ عربيٍّ وأمٍّ كائميَّة، حجَّ وأقام مدة بين المدينة ومصر وتعلم عند كثير من العلماء في تلك البلدان ثم عاد إلى وطنه. وكان من العلماء الأعلام في أيامه. عارض الشيخ عثمان بن فودي في جهاده برسائل عديدة دوَّنها الشيخ محمد بلو في إنفاق الميسور.

فقد قام الكانمي بالدفاع عن بَرْنُو وكَاَمَّ حتَّى استردَّها من جيوش الشيخ عثمان ابن فودي، فأصبح عظيمًا على أرض بَرْنُو وكَاَمَّ. وجُعِلَ سلطانًا عليهما إلى أن وافته المينة سنة ١٨٨١م. وآلت إلى ذريته السلطة في مملكة بَرْنُو، وإليه يعود اللقب السلطاني (شَيْخُنْ بَرْنُو) الذي يُلقَّب به الأمير في مملكة بَرْنُو. ويقول في إحدى رسائله التي وجهها إلى الشيخ عثمان بن فودي:

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد...فالباعث لرسم هذا المزبور أنه لما ساقنتي المقادير لهذا الإقليم وجدت نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقدة، فسألت عن السبب فقيل بغيٌّ وقيل سنَّةٌ، وتحيرنا في الأمر، فكتبت لإخوانكم المجاورين لنا وثيقة طلبت منهم بيان السبب على الجواز، فأجابوني بجوابٍ ركيكٍ لا يصدر عن عاقلٍ، فضلاً عن عالمٍ فضلاً عن مجددٍ، وعدّوا أسماء كتبٍ لنا اطلاع على بعضها، ولكن لم نفهم منها ما فهموه، وبينما نحن في حيرة التردد هجم بعضهم على دار الإدارة، ونزل المهاجمون لنا قريباً منا، فكاتبتناهم ثانياً وناشدناهم الله والإسلام أن يكفّوا عنا شرهم فامتنعوا، وصالوا علينا، فقمنا مدافعين عن أنفسنا متبرئين إلى الله من سوء صنيعهم، حتّى ضاقت علينا الأرض ولم نجد مقالا ولا مجالا.

ك/ آدم عبد الله الإلوي

هو آدم عبد الله الإلوي، الأستاذ الكبير، والكاتب الماهر، من أعلام الدعوة الإسلامية في نيجيريا خلال القرن العشرين الميلادي. تعلّم في دهاليز مدينة إلورن. ثم سافر إلى عديد من بلاد العرب كمصر والمغرب والسودان وغيرها، فتلقّى مزيداً من الثقافة والعلوم، وحضر مؤتمرات متعددة اتصل خلالها بكبار العلماء والمفكرين العرب واستفاد الطرفان كل من الآخر. وكان آدم متواضعاً، عزم المهمة وفصيحا. وقد أنشأ مركزاً علمياً في مدينة لاغوس وعكف على التدريس والوعظ والدعوة والإرشاد والتأليف في فنون الدين والثقافة الإسلامية. ومن آثاره كتاب أسماء بالإسلام في نيجيريا وآخر بعنوان تاريخ نيجيريا

وغيرها. ومن أقواله ما يلي في تصوير جهود علماء نيجيريا لتقدم ركب الثقافة الإسلامية في نيجيريا:

لقد أخذت نيجيريا من العلوم الإسلامية وآداب اللغة العربية قسطا لا يستهان به، وكان طلاب العلم في صدر عهدهم يرتحلون إلى بلاد المغرب الأقصى لطلب العلم بها، ويسافر بعضهم إلى مصر ويأخذ بعضهم من مهاجري العرب ومن السائحين إلى بلاد المغرب، ولما ارتكز العلم بمدينة تُمبُكتُو رجع الناس إليها في طلب العلم بها حتى نبغ فيهم عدد كبير من أهل العلم، وعند ذلك اكتفوا بما في بلادهم وصاروا لا يطلبون العلم إلى سواها، ولا يحتاجون إلى غير مؤلفات علمائها الراسخين في العلم.

KKKKKKKKKK

الفصل التاسع مبادئ النقد الأدبي

■ مفهوم النقد

تطلق كلمة النقد في اللغة بمعنى الاختبار وتمييز الجيد من الرديء. فيقال نقد الدراهم إذا ميّز جيدها من رديئها، وفلانٌ ينقد الناس إذا عابهم واغتابهم، وإذا قيل نقد الكلام، فمعناه أظهر ما فيه من العيوب أو المحاسن، والنقدان الذهب والفضة. ويمكن تعريف النقد الأدبي في الاصطلاح بأنه هو فن تذوق الآثار الأدبية ودراستها دراسةً قائمةً على التحليل والشرح والتفسير، وذلك بغية الوصول إلى معرفة ما

فيها من ملامح الجودة أم الرداءة، حتى يمكن الحكم على الأثر الأدبي المدروس حكماً سليماً بعيداً عن الجنف أو الجور، سواء أكان الحكم له أو عليه.

فالنقد الأدبي إذاً اسمٌ يطلق على كل دراسة تتناول نصّاً فنياً من الشعر أو النثر أو المسرحية لتفسيره والكشف عن معانيه وبيان قيمته الفنية ومساعدة القارئ على تذوق ما في النصّ من جمالٍ ومنتعةٍ فنيّتين.

والذوق هو الأساس في الدراسة النقدية والحكم على الأعمال الأدبية؛ لأنه أقرب إلى طبيعتها. لكن ليس كل حابلٍ ونابلٍ من الذوق يصلح للحكم على هذا العمل من حيث الجودة أو عدمها، وإنما المقصود به الذوق المصقول المدرب، ذوق الناقد الخبير الذي مارس الأدب وعاشه، وفهم أسرار الجمال الفني وطبيعته.

■ موجز تاريخ نقد الأدب العربي

كانت طبيعة النقد في الأدب العربي تختلف باختلاف أطواره التاريخية، فقد كان النقد في العصر الجاهلي يمتاز بسلامة الفطرة والسذاجة. وكان قائماً على إحساسٍ فنيّ ونابعاً من الوجدان الصادق. وكان شفهيّاً، وتمثل الموازنة باباً كبيراً منه. وكان يقوم به أناسٌ قد مارسوا هذا العمل لمدة طويلة، ومن بين النقاد في العصر الجاهلي الشعراء، كزهير والنابغة وغيرهما. وكانت سوق عكاظ مسرحاً لممارسة النقد الأدبي خلال المواسم والمهرجانات والمعارض.

وبعد ظهور الإسلام تغيّرت وجهة حياة العرب عامة والشعر خاصة، فظهرت مقاييس نقدية جديدة تمثل القيم الإسلامية والخلقية الرفيعة، فأصبح الاهتمام يتجه إلى المعاني الإسلامية. ومما يلاحظ أن الأحكام النقدية في صدر الإسلام وعصر بني أمية كانت جزئية، وبعبارة قصيرة ومن دون منهج دقيق مطرد. وقد شارك بعض الحكام في النقد، ولاسيما في العصر الأموي. فقد كان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان - على سبيل المثال - ناقداً له ملكة قوية وذوق أدبيّ. ومن نقاد هذا العصر الشاعر العبقري الفرزدق، والنحوي البصري ابن أبي إسحاق الحضرمي وخلائق آخرون.

ويمكن القول بأن قضية النقد في الأدب العربي لم تشهد النضوج والاكتمال حتى اطلع العصر العباسي، حين بلغت الحضارة العربية الإسلامية درجةً عاليةً من الرُقْيِ والازدهار. فقد كثر في العصر العباسي الابتكار العلمي والتوسع في المعرفة. ووجد النقد ميداناً خاصاً له ورجالاً متخصصين يقومون به خير قيام. ومن أهم القضايا التي يتناقشها النقاد في العصر العباسي قضية الانتحال، واللفظ والمعنى، والسرققات الأدبية، والذوق الأدبي، وغير ذلك من القضايا النقدية. ومن أشهر النقاد في العصر العباسي ابن قتيبة الدينوري وأبو عثمان الجاحظ والخليفة العباسي عبد الله بن المعتز وقدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ومحمد بن سلام الجمحي وغيرهم.

وأما في العصر الحديث، فقد ازدهر الأدب العربي إثر اتصاله بالآداب الغربية. وقد رافق هذا الازدهار انتعاش الدراسات النقدية. فأصبح الناقد لا يكتفي بدراسة الأعمال الأدبية للشاعر فقط، بل يضيف إلى ذلك دراسة حياة الشاعر وبيئته وعصره وسائر العوامل ذات الأثر في حياته. كما اتجه النقد إلى دراسة القضايا الاجتماعية التي يعالجها الأدب، وأصبحت النظرة النقدية إلى العمل الفني نظرةً شاملةً متكاملةً. وكذلك انقسمت اتجاهات الأدباء والنقاد إلى أنواعٍ تبعاً للمدارس النقدية التي ينجح الناقد إلى منهجها في تحليلاته، والتي من أهمها الكلاسيكية والرومننتيقية والواقعية والطبيعية والرمزية ومذهب الفن للفن ومدرسة الديوان وغيرها. ومن أشهر النقاد في العصر الحديث الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل والأستاذ عباس محمود عقاد والدكتور زكي مبارك وميكائيل نعيمة والطبيب الجرايمي أحمد ذكي أبو شادي وغيرهم.

■ تقسيم النقد

وينقسم النقد عادة إلى قسمين رئيسيين:

أ/ النقد الذاتي

فالنقد الذاتي هو أن يقتصر الناقد في نقده على إيضاح مشاعره الذاتية وذوقه الفردي للأعمال الفنية، فيأتي نقده حينئذ صدى لمشاعره النفسية، ومعبراً عن مدى

استجابته الشخصية للنصوص التي يدرسها. فالذوق الشخصي هو الفيصل في إدراك الجمال أو القبح في الأثر الأدبي.

فالناقد يُحْكَمُ هواه على النصوص الأدبية ويتخذ ذوقه الشخصي بمثابة المعايير التي يحكم بها للنص أو عليه، فيقرّظ ما استحسّنه ذوقه ويعيب ما لم يعجبه. ويختلف الحكم في النقد الذاتي من شخصٍ إلى آخر تبعاً لاختلاف الميول والأهواء والأذواق والخبرات والبيئات وغير ذلك من أوجه الاختلاف بين الناس.

ب/ النقد الموضوعي

وهو أن يتقيد الناقد بقوانين مرسومة وقواعد علمية اصطلح عليها السابقون الحاذقون من النقاد وجعلوها مثلاً يحتذى به، ومناطاً يترسّم. فيحكم بما على النصوص الأدبية بحيث تكون القواعد والمصطلحات هي الحاكمة على النصوص. ولا يختلف الحكم في النقد الموضوعي من شخص إلى آخر.

■ أهمية النقد

يعتبر معرفة أصول النقد الأدبي كفن، وممارسة النقد عملياً من الأمور الضرورية التي ينبغي أن يأخذ كل دارسٍ للأدب منهما بنصيب، ومن أبرز وجوه أهمية النقد الأدبي ما يلي:

أ/ يساعد النقد دارس الأدب على تذوّق المتعة الفنيّة التي في النصوص الأدبية وفهمها على المنهج الأدبي المستقيم.

ب/ يدرّب النقد القارئ على إدراك الحقائق والمعلومات بنفسه، ويربي ذهنه على الدقّة في تدبير الأمور وترتيب الفكر وتخطيط الأعمال الأدبية.

ج/ يعطي الدارس خبرةً على استعمال الأساليب الثقافية النقدية في الجدل والحوار ويكسبه الثقة بنفسه عند الكتابة أو الخطاب أو الحوار.

د/ يساعد على اكتمال ثقافة الدارس بإيقظ الأدب لشعوره وهزّه لوجدانه وفكره وفتح له لقلبه المغلق.

- هـ / يتيح للإنسان فرصةً للقراءة الدائمة قراءة فهم وتدوق.
- و / يعلم الدارس التحفظ والتحقيق في القول والكتابة، كما يدرّبه على تحمل الانتقادات والردود. وغير ذلك كثير.

■ وظيفة الناقد

تنحصر وظيفة الناقد في تفسير النصوص الأدبية وبيان قيمتها الفنية من حيث المضمون (المعنى) ومن حيث الصياغة (الشكل). وهذا يعني أن الناقد يقوم بوظيفتين أساسيتين من خلال عملية دراسته للأعمال الأدبية، وهما التفسير والتقويم. ويتناول الشكل والمعنى خلال كلٍّ من هذين العنصرين. ولذلك ينبغي له أن يقوم بتحليل النص الأدبي من هاتين الجهتين ويقسم الكلام حول النص على النحو التالي:

أ / تفسير النص الأدبي شكلاً ومضموناً.

ب / تقويم النص الأدبي شكلاً ومضموناً.

كما ينبغي له أن يتعامل مع كل ما يتصل بالنص من سيرة الأديب وفكرته وعاطفته وخياله وعبارته وجوّ نصه. ويستحسن أن يلاحظ ما في النص من المسائل الأسلوبية واللغوية والموسيقية والبلاغية والإنشائية والفنية وغير ذلك، وينظر إلى عاطفة الشاعر وخياله وأسلوبه وغير ذلك من الوجوه التي تتصل به أو بإنتاجه.

■ غاية النقد

أما غاية النقد فهي كشف ما في النصوص الأدبية من المتعة الأدبية، ومساعدة القارئ على تذوق ما فيها من الجمال الفني، والوقوف على عين ما تضمنه النص ذوقاً وجمالاً سلباً وإيجاباً، ثم تقويم ما في النص من شلل شكليّ أو معنويّ أو فكريّ أو علميّ أو غير ذلك.

■ موضوع النقد

يقوم الناقد بدراسته في النصوص الفنية من شعرٍ ونثرٍ ومسرحيةٍ. وهي النصوص التي يتم قراءتها لما فيها من المتعة الفنية لا لفائدة علمية أو عملية. وهذا ما يميّز بين

الكتابة الأدبية والكتابة العلمية سواء كانت الكتابة منظومة أو منثورة. فقد ألف بعض العلماء مقطوعات في العلوم اللسانية والشرعية المختلفة كألفية ابن مالك في النحو وألفية السيوطي في علم مصطلح الحديث ولامية الشاطبي في علم القراءات وهلمّ جزاً، ولكن لم يقصدوا من هذه المتون وأشباهها إلا تقييد المعلومات والقواعد بالوزن والقافية ليسهل حفظها واستحضارها. فمثل هذه المنظومات لا تسمى شعراً ولا تدخل في اهتمام الناقد الأديب. وكذلك الكتب المؤلفة في فنون العلم لا تسمى أدباً ولا تدرس دراسةً أدبيةً. لأنها إنما تدرس لتحصيل الفائدة العلمية أو العملية بخلاف القصص والمقالات الوجدانية والشعر العاطفي فهي تقرأ طلباً لمتعة القراءة فحسب.

على أنه هناك طائفة من الكتب لا تُعدُّ في صميم الأدب ولا تطرد من دائرته بتاتاً، فهي كهامشٍ للأدب. تلك هي الكتب التي لا تقصد إلى المتعة الفنية قصداً أولياً، ولكنها تُحدث لقارئها هذه المتعة إلى جانب ما تزوّده به من ذخائرها العلمية، وذلك ناتج عن الميل الأدبي الذي يطغى على مؤلفيها والنزعة الفنية الكامنة في نفسيتهم. وربما تنحى بعض قرائها إلى جانب اللذة الفنية عى حساب فوائدها العلمية.

وعلى هذا، فإن النص الأدبي هو ما يشبع القارئ بمتعته الفنية ولا يحفره إلى طلب متعة أخرى، ولا يتيح له أن يتأمل إلى دون ذلك من الانفعالات. وفنونه كثيرة منها الشعر والمسرحية والخطبة والقصة والمقالة الأدبية والرواية وغير ذلك.

■ ثقافة الناقد

يحتاج من يريد التصدي لصناعة نقد الأدب إلى دراسة جيدة لآداب العرب القديمة والحديثة، وإطلاع دائم على نصوص الأدب عبر عصوره التاريخية، ومعرفة متعمقة بالنظريات الأدبية وتطوراتها، وقراءة متمكنة في آداب غير العرب من الأمم لاسيما الأمم التي اتصل بأدبها الأدب العربي، ودراسة أصول الأدب المقارن وطبيعته.

ولا بد أن يكون متقناً لفنون اللغة العربية وراسخاً قدم في أسرارها. وعليه أن يلم بسائر الفنون ذات الصلة بالعربية كتاريخ الإسلام وثقافته وعلم شريعته وتاريخ الأمم

العربية وعلومها. وهو بحاجة ماسة إلى التشقف بفنون علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التاريخ وسائر فنون الإنسانيات.

ومن المهم الاطلاع الواسع على السير وأخبار الفنانين والأدباء وقراءة دائمة لأعمال الرواد في ميادين الأدب والنقد والاهتداء بخبراتهم. والترؤد بالحقائق والمعلومات التي تساعد على فهم مدلول النصوص الأدبية ومقصودها.

وعليه قبل كل شيء أن يكون سليم الذوق، منصفاً، بعيداً عن الهوى، دقيق الحس، مبتكراً وواسع الاطلاع.

فسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

KKKKKKKKKK

فهرس الموضوعات

الإهداء.....

المقدمة.....

الفصل الأول: الأدب العربي في العصر الجاهلي

معنى الأدب - أقسام الأدب - تقسيم العصور الأدبية - العرب في الجاهلية - أسواق العرب في العصر الجاهلي - الشعر العربي في الجاهلية - أولية الشعر - خصائص الشعر الجاهلي - أغراض الشعر الجاهلي - منهج القصيدة في الجاهلية - منزلة الشاعر في الجاهلية - المعلقات -

أصحاب المعلقات - تراجم طائفة من الشعراء الجاهليين - النثر الجاهلي - فنون النثر في الجاهلية - تراجم بعض الخطباء في العصر الجاهلي - نماذج من الأمثال
الفصل الثاني: الأدب العربي في صدر الإسلام

المدخل - القرآن الكريم - موضوعات سُور القرآن - أسلوب القرآن - أثر القرآن في اللغة والأدب - فصاحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم - الشعر في صدر الإسلام - أغراض الشعر في صدر الإسلام - لفظ الشعر وأسلوبه ومعانيه في صدر الإسلام - رجال الشعر في صدر الإسلام - الخطابة في صدر الإسلام - تعريف الخطابة - دواعي الخطابة في صدر الإسلام - موضوعات الخطابة في صدر الإسلام - أسلوب الخطابة في صدر الإسلام - مشاهير الخطباء في صدر الإسلام

الفصل الثالث: الأدب العربي في العصر الأموي

المدخل - الحياة الاجتماعية في العصر الأموي - الحياة السياسية في العصر الأموي - الحياة الثقافية في العصر الأموي - أغراض الشعر في العصر الأموي - أسلوب الشعر في العصر الأموي - مشاهير الشعراء في العصر الأموي - الخطابة في العصر الأموي - المدخل - موضوعات الخطابة في العصر الأموي - أسلوب الخطابة في العصر الأموي - مشاهير الخطباء في العصر الأموي

الفصل الرابع: الأدب العربي في العصر العباسي

المدخل - الحياة السياسية في العصر العباسي - الحياة الاجتماعية في العصر العباسي - الحياة العلمية في العصر العباسي - أغراض الشعر في العصر العباسي - لفظ الشعر في العصر العباسي وأسلوبه ومعانيه - أوزان الشعر وقوافيه في العصر العباسي - مشاهير الشعراء في العصر العباسي - الكتابة في العصر العباسي - المدخل - موضوعات الكتابة في العصر العباسي - مميزات الكتابة في العصر العباسي - طائفة من كُتّاب العصر العباسي

الفصل الخامس: الأدب الأندلسي

البيئة الطبيعية في الأندلس - الفتح العربي للأندلس - الحياة الاجتماعية في الأندلس - الحياة الثقافية في الأندلس - الأدب العربي في الأندلس - مظاهر نهضة الأدب الأندلسي - عوامل نهضة الشعر في الأندلس - خصائص الشعر العربي في الأندلس - النثر الأندلسي - تطور النثر الأندلسي - فنون النثر الأندلسي - مشاهير الأدباء في الأندلس

الفصل السادس: عصر الأتراك والمماليك

المدخل - حالة اللغة العربية في العواصم - لغة التخاطب - ديوان الإنشاء - التصنيف في العصر التركي - حالة الشعر في عصر الأتراك - مشاهير الأدباء في عصر الانحطاط

الفصل السابع: الأدب العربي في عصر النهضة الأدبية الحديثة

المدخل - أثر محمد علي باشا في تكوين النهضة - أثر إسماعيل باشا في تكوين النهضة - أثر السوريين في تكوين النهضة - أثر الأزهر في بث العلم - أثر الاحتلال البريطاني في التعليم - عوامل النهضة الأدبية الحديثة - مشاهير الأدباء في عصر النهضة الأدبية الحديثة

الفصل الثامن: الأدب النيجيري في اللغة العربية

المدخل - دور الإسلام في نشر اللغة العربية في نيجيريا - اللغة العربية في نيجيريا خلال القرن التاسع عشر الميلادي - اللغة العربية في نيجيريا خلال فترة الاستعمار البريطاني - اللغة العربية في نيجيريا بعد الاستقلال - خصائص اللغة العربية في نيجيريا - فنون الشعر العربي في نيجيريا - البعثات التعليمية للدراسات العربية والدينية - اللغة العربية في الجامعات النيجيرية - دور أساتذة اللغة العربية في نيجيريا - طائفة من مشاهير الأدباء النيجيريين

الفصل التاسع: مبادئ النقد الأدبي

مفهوم النقد - موجز تاريخ نقد الأدب العربي - تقسيم النقد - أهمية النقد - وظيفة الناقد - غاية النقد - موضوع النقد - ثقافة الناقد